# تأملات غزالية
# في
# الأخلاق النظرية

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر
وعميد المركز الثقافي الإسلامي بالشرقية

الطبعة السابعة
١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

إلى .........

الإيمان الصافي

القلب الطاهر

السريرة النقية

الجوانب التقية

## بُـنـيـاتي

هبة الله ، نعمة الله ، رحمة الله

آملا أن يجعل الله لهن الخير الذي يرضاه ، ويرضى عنه

والدكم

أ. د. / محمد حسيني موسى محمد الغزالي

٢٨ / ١٢ / ١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة السابعة

**الحمد لله رب العالمين ، جعل الأخلاق الحسنة عنوانا على عباده المرسلين، وأصفيائه المقربين ، وأحبابه الذين أختصهم ليكونوا هداة قائمين ، وجعلهم الأقرب إلى مجالس المصطفى يوم الدين ، فيقول الرسول ﷺ** " إن أحبكم إلى الله ، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة ، إحاسنكم أخلاقا ، المواطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون " .

**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تنجينا من عذابه ، وتسلكنا في أهل طاعته وأحبائه ، وتلبسنا حلل السعادة والرضوان يوم لا ظل إلا ظله ، ولا شفيع عنده إلا بإذنه ، فعن أنس ﷺ عنه أن رسول الله ﷺ قال أن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل ، وأنه لضعيف في العبادة .**

**وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله رحمة الله المهداة ، والنعمة المسداة ، والفجر المبين ، والسراج المنير ، كان نورا يمشي بين الناس ، ورحمة تسري في العالمين ، وأخلاقا تعلوا فوق كل الأخلاق ، كيف لا وهو يقول عن نفسه الشريفة إنما بعثت لأمم مكارم الأخلاق ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن .**

**اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آل بيته الأطهار وأمهات المؤمنين الأخيار الذين هم النجوم الزواهر حتى يبدو الليل كالنهار ، قال فيهن رب العالمين** ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (1)**، وأرض اللهم عن صحابته الأخيار الذين قال فيهم رسول الله أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم .**

**وكرم الله أتباعه الأبرار ، من أهل العلم ، وصحيح الأخبار ، وأرحم علماءنا الذين اشتاقت نفوسهم للملأ الأعلى ، وتعشقوا النظر إلى وجه الكريم الغفار ، وأكرم نزل آبائنا وأمهاتنا عندك يا عزيز يا قهار ، وأخلفنا في أبائنا وبناتنا وأهلينا ، واسترنا يا ستار .**

**أما بعد ،،،،**

---

(1) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

فقد يسر الله تعالى لي في الأسباب ، وصدرت الطبعة الأولى من كتابنا هذا " تأملات غزالية في الأخلاق النظرية " منذ عشر سنوات تقريبا ، ومن مطالع التوفيق أن هذا الكتاب لم تمكث طبعته بين الناس إلا وقتا قليلا ، ثم تكررت طباعته وتعددت مرات عديدة ، إلى الحد الذي يجعلني أشعر بالحرج الشديد من تقصيري عن شكر هذا القبول الإلهي،إلى الحد الذي أشعر معه أنني قد أرضيت الله تعالى وهو العليم بضعفي الجابر له.

وفي هذه الآونة ، تجدد الطلب له حتى أن أكثر من زميل وزميلة، قد طلبوه بغرض أن يدرس في الكليات التي يعملون بها ، فلم أجد بدا من سرعة الإستجابة ، دون أن أقدم على إحداث تعديل في شي منه بالحذف أو الزيادة ، نظرا لظروفي الصحية التي لا يعلمها إلا الله جل علاه ، بجانب كثرة الإلتزامات العلمية والأدبية والوظائفية ، وهذا كله من فضل الله إلا القليل الذي يبلغ حد الندرة ، وأنعم به من فضل .

على أني لا أنظر إلى هذا التراث الذي أقدمه ـ إن صح وصفه بأنه تراث ـ بين يدي القراء الأفاضل ، والزملاء الأعزاء ، والزميلات الكريمات ، سوى انه من نعم الله تستحق الشكر ، ومهما بدا من غيري ، فإني أحاول الإلتزام بما أوصى به رسول الله ﷺ أصحاب الخلق الحسن ، هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

كما أن القارئ الكريم قد يجدني أوافق البعض في الآراء العلمية ، وانتصب لها مدافعا عنها ، وقد يراني مخالفا لها ، منتصبا في نقدها بطريقة محايدة تتم في موضوعية، حاولت الإلتزام بها ، وحيدة أمكنني تدريب نفسي عليها ، فعن حذيفة ﷺ قال، قال رسول الله لا تكونوا آمنه تقولون أن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤا فلا تظلموا .

ثم أن المقلد الذي يملك القدرة على التدبير و التفكير ، إنما هو أعمى يقلد مثله، فلا هو واصل طريق النجاة ، ولا بالغ الطريق السليم ، وإنما هو متنكب واقع في الوهدات، ولن ينقذه منها أو يحمله بعيدا عنها ما تذرفه عيناه من دمعات مهما كانت حارقات مؤلمات ، إلا لأنه الذي تنازل عن ماله من ملكات ، وتخلى عنها في جميع الأوقات .

ربنا أتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا

أ. د. / محمد الغزالي

الزقازيق ـ مساء الإثنين ١ صفر ١٤٢٨ هـ

١٩ فبراير سنة ٢٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الأولى

**الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره ، وعدل تركيب الخلق فأحسن تصويره [١] ، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره [٢] ، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره ، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره ، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره [٣] ، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، وأمتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره .**

**والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله و نبيه وحبيبه ، وصفيه ، وبشيرة ، ونذيره ، الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من مخايلة وتباشيره [٤] ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [٥] .**

**وأرض أللهم عن آل بيته الكرام ، وأصحابه نجوم الهدى الأعلام ، الذين كانوا أنجما تنير الظلام ، وأتباعه من أهل العلم ، الذين كانوا علامات بارزة فوق الهام ، وأرحم اللهم والدينا ، وأكرم أهلينا ، واحفظنا في ذرارينا ، واحشرنا معا تحت لواء شفاعة نبينا الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ، إنك على ما تشاء قدير .**

**أما بعد ،،،،**

---

(١) قال تعالى ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة النمل : الآية ٨٨ .

(٢) قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ سورة التين : الأية ٤ .

(٣) فالترغيب والترهيب من المبادئ العامة في الشريعة الإلهية ، لأنهما معا يحملان العبد إلى ما فيه الخير ، كما يحذرانه من الوقوع في المعاصي .

(٤) نقلت لك هذه المقدمة من كلام الإمام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ، نظرا لنفاستها ، فاحرص عليها - إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٤٧ .

(٥) سورة الأحزاب : الآيات ٤٥ - ٤٧ .

فإن المسائل الأخلاقية في العلم النظري قد نالت عناية الكثيرين بالنسبة إلى البحث والدرس، وكيف لا وهي تتحدث عن أمر مهم، جاء به المرسلون، ودعا إليه الأنبياء أجمعون، حيث كساهم الله تعالى حلل الأخلاق الحسنة الكاملة، وجعلهم المولى الكريم جل شأنه، المنارة الإلهية، يقول الإمام الغزالي " فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين "(١).

ثم أن معرفة الخير والشر، وممارسة النافع المفيد، وهجر الضار الفاسد، أمر مهم بدليل أنه ما من نبي إلا جاء داعيا للخيرات، حاثا عليها، ناهيا عن الشرور والآثام، محذرا منها، وقد سعى المصلحون إلى اقتفاء آثار الأنبياء، فلما بعث الله سيدنا محمدا ﷺ جعله في أعلى مكارم الأخلاق، قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

غير أن هذه المسائل قد تكاثرت، وتحولت الإتجاهات في دارستها إلى صور عديدة، بعضها تعلق بها كتعريفات ومفاهيم، وبعضها نظر إليها من خلال الموضوعات التي تناولتها، والغايات التي تسعى إليها، والفوائد الهامة التي يمكن أن تجنى منها، وهذا في حد ذاته يكشف عن أهمية الأخلاق في المحيط الإنساني أيضا.

ونظرا لتشعب هذه المسائل الأخلاقية، وتنامي فروعها في إتجاهات عديدة، فقد بات من الضروري النظر إليها على أنها قضايا مستقلة في مفاهيمها ومناهجها، بجانب موضوعاتها والغايات التي تنهض معها، والأمر الذي يجعل الباحث الحريص لا يدلف إليها مرة واحدة، وإنما يسعى إليها حثيثا حتى لا تجرفه التيارات، ولا تتقاذفه الموجات، فيسقط في الأعماق صريع اللجات، ويصير أثرا مطويا بين الذكريات.

من الواضح أن الأخلاق قسمان، أحدهما يتمثل فيه القواعد والأسس التي يقوم عليها علم الأخلاق، بجانب النظريات والمشكلات الأخلاقية، ويسمى هذا القسم الأخلاق النظرية، ثانيهما تتمثل فيه المواقف التطبيقية التي تبدو فيها معالم التعرف على كل من الخير والشر، ويسمى هذا القسم

---

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٣، كتاب رياضة النفس، صـ ٤٧، تحقيق الدكتور بدوي طبانة.

(٢) سورة القلم: الآية ٤، وروى عن ابن عباس ﷺ أنه قال وأنك لعلى خلق، يعني دين، عظيم، ففسر الخلق بمعنى الدين، ومن هنا قالوا إن من إطلاقات لفظ الخلق الطبع، والمروءة والسجية والدين والعادة، والمروءة، إلى غير ذلك من الإطلاقات للغوية.

بالأخلاق العملية ، وكل منهما يتكامل مع الآخر في الواقع ، حتى وإن انفصل عنه في الدراسة .

ولما فكرت في خوض غمار هذا البحر ، وأنا على ثقة من ضعف جسدي ، ووهن قاربي والمجداف ، واضطراب أحوالي ، فقد اعتمدت على الواحد القهار ، صاحب الحول ، والطول ،و سألته التيسير والسداد، فوفقني لتكون هذه الدراسة تحت عنوان " تأملات غزالية في الأخلاق النظرية " على أن أختار منها ما يتعلق بتحديد المفاهيم والمصطلحات التي أتناولها كرؤوس، ومن أبرزها الخلق ، وعلم الأخلاق ، وبيان موضوع الأخلاق ، وفائدته أو ثمرته ، كما أتناول الحكم الخلقي وطبيعته بجانب المسئولية الخلقية والجزاء الأخلاقي ، ثم دور الضمير الخلقي في هذا الإتجاه .

كما أحاول الإلماح إلى أبرز القوانين الأخلاقية ، الوضعي منها والسماوي ، مع بيان الفروق الجوهرية بين القوانين الأخلاقية وموقف الإسلام منها في صورة تسمح بالمطالعة ، وتعين على الدرس والمراجعة ، وتمهد لإعادة العرض والمتابعة ، فذلك شأن البحث العلمي الهادف .

بيد إني سأحاول التعرض لقضية الإلزام الخلقي في الإسلام ، من حيث تعريفه ومصادره ، بجانب درجاته ، وأثر ذلك على الفرد والمجتمع ، ولا يمنع ذلك من التعرض ، أو تناول ، جملة من الفضائل الأصولية التبعية على أساس أن أمهات الفضائل محددة لدى الكثيرين ، وتبقى التبعيات التي يعول عليها في كثير من الأحوال .

ولا أزعم في هذه القضايا إني قدمت ما لم أسبق إليه ، أو أقطع الطريق على من سيأتي بعدي نحوها ، كل ما أدعيه هو إنني حاولت قدر طاقتي ، وكم تضرعت إلى الله تعالى ، وسألت أن يوفقني لما فيه من الصواب ، ويهديني إلى ما يرضيه جل شأنه ، ربنا عليك توكلنا وإليك أتينا وإليك المصير .

محمد الغزالي

فجر العاشر من رمضان سنة ١٤١٧

غزالة الخيس - مركز الزقازيق



# الفصل الأول

## تحديد المصطلحات والمفاهيم

من المناسب قبل البدء في تناول أي علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، أن يتم تحديد المصطلحات التي سيتم تداولها بشأنه،والإتفاق حول المعاني والمفاهيم التي يراد استعمالها داخل موضوعاته ، حتى لو كان ذلك كله يتم على باب الإصطلاح الخاص[١] ، أما لماذا ؟ فلأن الألفاظ هي أثواب المعاني التي تبدو من خلالها ، وكل لفظ لغوي ، فإنه يحمل جملة من المعاني لا تكون كلها مراده على وجه واحد ، أو درجة واحدة ، ومن ثم فلا بد عند الإستعمال لهذا المعنى بالذات من قرينة ترشح كون ذلك المعنى هو الراجح في هذا الإستعمال ، أو ذاك .

ولما كان لفظ الخلق والأخلاق من الألفاظ اللغوية التي تجيء على نواح عديدة ، ويتم التعامل بها أيضا من جوانب كثيرة ، فقد بات من الضروري الوقوف على الحقيقة اللغوية ، حتى يكون المستهدف واضحا ، والتعامل اللغوي مستقيما ، لأن الإشتراك اللغوي يحتاج نوعا من الفصل الدقيق الذي لا يمكن التخلي عنه ، ومن ثم فسأحاول السير في هذا الفصل متناولا مايلي :

## أولا : تعريف الخلق

وردت مادة الكلمة خ ل ق في القرآن الكريم حوالي ٢٥٠ خمسين ومائتي مرة تقريبا[٢] ، مما يؤكد أن مادة الكلمة لها وجود ، واستعمال في القرآن الكريم ، بدليل أنها جاءت مضافة منعوتا بها ، واقعة في نطاق المدح والخصوصية لسيدنا محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٣] .

يقول العلامة الفخر أن في الآية تعريضا لمن رماه ﷺ بالجنون ، لأن ذلك كذب وخطأ ، وذلك لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه [٤] ، ومن كان موصوفا بتلك الأخلاق والأفعال ، لم يجز إضافة الجنون إليه ، لأن أخلاق المجانين سيئة ، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لاجرم وصفها الله تعالى بأنها عظيمة [٥] .

---

(١) مشكلة الإصطلاح الخاص تحتاج بحثها على العديد من الجوانب ، نظرا لإرتباط المفهوم العام في الإصطلاح بالعديد من الجهات، راجع كتابنا : أوراق منسية في النصوص الفلسفية ، صـ ٤٧ .

(٢) راجع للإستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، صـ ٢٤١ / ٢٤٥ ، حيث تكفل ببيان مواضعها من السور والآيات القرآنية .

(٣) سورة القلم : الآية ٤ .

(٤) راجع للعلامة القرطبي : تفسير القرطبي ، في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وللعلامة السيوطي : الخصائص النبوية الكبرى ، المجلد الأول ، وللإمام الذهبي : تاريخ الإسلام ومشاهير الإعلام ، جـ ٢ ، السيرة النبوية .

(٥) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثلاثون ، صـ ٦٤٩ ، ط. دار الغد العربي بالقاهرة .

كما جاءت الكلمة في السنة النبوية المطهرة كثيرا ، منها ما روى أن رجلا جاء لرسول الله ﷺ ثم قال يا رسول الله أوصني ، فقال ﷺ للرجل أتق الله حيث كنت ، قال زدني ، قال : اتبع السيئة الحسنة تمحها ، قال زدني ، قال : خالق الناس بخلق حسن (١) وقوله ﷺ أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه ، وحسن الخلق (٢) .

في نفس الوقت ، جاءت الكلمة على لسان لقمان الحكيم ، ضمن إجابته على أسئلة ابنه إليه ، حيث قال ابن لقمان الحكيم لأبيه يا أبت أي الخصال من الإنسان خير ، قال الدين ، قال فإذا كانت اثنتين قال الدين والمال ، قال فإذا كانت ثلاثا ، قال الدين والمال والحياء ، قال فإذا كانت أربعا ، قال الدين ، والمال ، والحياء ، وحسن الخلق ، قال فإذا كانت خمسا ، قال الدين ، والمال ، والحياء ، وحسن الخلق ، والسخاء ، قال فإذا كانت ستا ، قال الحكيم لإبنه يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي ، تقي ، ولله ولي ، ومن الشيطان بري(٣) .

بل إن المأثور عن الصحابة والتابعين ، وأهل العلم والعرفان بالله رب العالمين ، عن الخلق والأخلاق كثير جدا ، بحيث إذا قامت دراسات عديدة لم تستغرق كل ما كتب ، سواء في الجانب الإيجابي ، وهو الخلق الحسن ، أم كان في الجانب السلبي ، وهو الخلق السيئ .

كما وردت الكلمة ، في الحكم الجارية مجرى الأمثال ، من ذلك قولهم :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ∴ فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا(٤)

من ثم فمن المناسب التعرض لمفهوم الكلمة خ ل ق في لغة العرب ، وكذلك من الناحية الإصطلاحية، إذ من خلال ذلك يتضح جملة المعاني التي يتم التعامل معها من خلالها، وذلك طبقا لما يلي:

أ - في اللغة

وردت مادة الكلمة خ ل ق في لغة العرب على الوزن الصرفي - عنق وأعناق ، وأفق وآفاق ، متى كان ذلك بالضم ، أما من ناحية الفتح أو الكسر فلها إعتبارات أخرى ، لكن الكلمة جاءت على العديد من المعاني ، أبرزها :

---

(١) والحديث صحيح ، وله طرق عديدة ، منها ما روى عن ابن أبي ذر الغفاري ﷺ وهو حسن صحيح على ما قال بع العلماء .

(٢) أخرجه البزار وأبوعلي والطراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥١ .

(٤) وبالتالي ، فمعيار بقاء الأمم بعد الإيمان القلبي هو المحافظة على الأخلاق الكريمة ، والتمسك بالأخلاق الحسنة ، حتى تكون هي القاعدة التي تقوم عليها .

### ١ - السجية والطبع

تقول العرب : سجية فلان الكرم ، ومعناه أن خلقه يتسم به ، فيتصرف من خلاله كأنه منساق إليه من غير تفكير فيه ، وكان حاتم الطائي من أكثر الذين اشتهروا بهذا الكرم ، حتى ضرب به المثل ، فقالوا ما أكرم من حاتم(١) ، كما يقولون سجية فلان البخل ، بمعنى أن أخلاقه تتصرف فيه لا يستطيع منازعتها في أمر قررته و وضرب المثل بالجاحظ في بخله الشديد ، بأنه كان لا يبيع بيض دجاجة إلا إذا غسله ، ظنا منه أن ما على البيض يسمد الأرض ، فيكون المشتري قد دفع ثمن البيضة فقط ، لكنه استفاد بها وسمادها(٢) .

وقديما قيل

| | |
|---|---|
| إذا افتقر الكريم فأركن إليه ∴ | فإن شم الورد بعد القطف عادة |
| وإذا اغتنى اللئيم فصد عنه ∴ | فبيت الخمر تتلفه الزيادة (٣) ، |

### ٢ - الطيب والرائحة الكريمة

يقولون فلان خلوق الفم واللسان ، ومعناه أن رائحته المادية طيبة ، ورائحته المعنوية هي الأخرى متكاملة ، ولذلك امتدح الناس أصحاب الرائحة الطيبة ، لأنهم يجعلون مجالسهم محل راحة الناس ، وطمأنينتهم لقيامها على طاعة الله تعالى ومرضاته ، ثم أن الخلوق ضرب من الطيب أعظم رائحة من غيره ، وأعظم أجزائه الزعفران (٤) .

وكان طيب رائحة رسول الله ﷺ يدركه الناس من رائحة عرقه وفضلاته(٥) ، ولذا لم يكن أحد يمر برسول الله ﷺ أو يمر به رسول الله ﷺ إلا ويدرك أن هذا المار طيب الرائحة (٦) ، كما كان كريم الأخلاق ، وكيف لا وهو يقول أدبني ربي فأحسن تأديبي .

---

(١) راجع للمعلم بطرس البستاني ، دائرة البستاني ، وللويس المعلوف، قطر المحيط ، باب الخاء .

(٢) راجع كتابنا : حكم وأمثال ، جـ ١ ، صـ ٢٧٣ ، لتعرف مضرب المثل ، ومورده ، والعلاقة القائمة بينهما .

(٣) وكان الإمام الشافعي ، رحمه الله ، يقول :

| | |
|---|---|
| سل الفضل أهل الفضل قدما ولا ∴ | تسل غلاما تربي فقيرا ثم تمولا |
| فلو ملك الدنيا بأثرها ∴ | حتما تذكره الأيام بالذي كان اولا |

(٤) راجع للدكتورة / فاطمة محجوب: الموسوعة الذهنية في العلوم الإنسانية ، جـ ٢٣ ، لتعرف الكثير عن الطيب ، وبخاصة الزعفران .

(٥) راجع للإمام السيوطي : الخصائص النبوية الكبرى ، المجلد الأول ، صـ ١٣٢ / ٣٧٧ .

(٦) وكان طيب رائحة النبي ﷺ يدرك من مسافات بعيدة ، راجع للعلامة العاقولي:الجامع لأوصاف الرسول.

### ٣ ـ الفطرة والجبلة

يقال خلق المرء هي ما يبدو فيها ، ومعناه أن الصورة التي يظهر بها أمام الناس هي ذاتها التي خلقه الله تعالى عليها ، ومن ثم قال البعض من باب التجاوز الاستعمالي ، في هذا عيب خلقي ، معناه أنه موجود به منذ ولادته ، ولا دخل له فيه ، وهم لا يقصدون الإساءة للخالق عز وجل ، وإنما غرضهم تميز هذا عن ذاك ، وأن الأول أصلي ، فإذا طرأ عليه غيره ، كان الثاني عارضا ٠

### ٤ ـ النصيب والمنزلة

وكلما كان المرء متمسكا بكتاب الله تعالى ، ملتزما سنة رسول الله ﷺ كان له النصيب الأوفى ، والمنزلة العظمى ، ومتى تهاون في ذلك ، حرم هذا النصيب ، ولم يبلغ تلك الدرجة ، يستشهد لذلك بقوله تعالى﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾[1].

وقوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] ، فلا منزلة لهم ، ولا نصيب ، إنهم أضاعوا أرصدتهم بأيديهم ، وخربوا دينهم ودنياهم ٠

قال الإمام الرازي ، والمعنى لا نصيب لهم في خير الآخرة ونعيمها ، وأعلم أن هذا العموم مشروط بإجماع الأمة بعدم التوبة ، فإنه إن تاب عنها سقط الوعيد بالإجماع [3] ، وبالتالي فالخلق هنا معناه ، النصيب الذي حرموا منه ، والمنزلة التي سقطوا دون بلوغها ٠

### ٥ ـ الدين والاعتقاد

كانت العرب تقول هذا خلق الأولين ، نتمسك به كما تمسكوا ، ونلتزم به كما التزموا ، يقصدون انه دين يجب إتباعه ، ويرون في التخلي عنه جريمة هي ذاتها المستوجبة لأقصى العقوبة ، بل كانوا يرمون المخالف لهم في هذه الأخلاق بالترميم لك الاعتقاد ، يدل ذلك على قوله تعالى في موقف قبيلة عاد من نبي الله هود عليه السلام حيث قالوا له ﴿ قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[4] ، قال العلامة القرطبي إن هذا إلا خلق الأولين دينهم الذي كانوا عليه[5] أو هو طبعهم ومروءتهم [6] ومذهبهم الذي هم عليه، ويجيء أمرهم معهم [7].

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٠ ٠

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٧ ٠

(٣) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع ، الجزء السابع ، صـ ٢٩ ٠

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٣٦ / ١٣٨ ٠

(٥) وهذا ما رواه ابن عباس رضي الله عنه ٠

(٦) وهو منقول عن ابن الاعرابي ٠

(٧) العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن،المجلد السابع،صـ ٥٠٠٥/٥٠٠٦ ٠

٦ - السلوك الذي يمضي عليه المرء

قالت العرب خلق فلان التسامح والعفو ، ومعناه أن هذا المرء يسلك بين الناس مسلكا يتسم بالتسامح والعفو ، كأنه يمتثل قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ، ومن ثم فإن كل سلوك حسن يمثل خلقا حسنا ، وخيرا كثيرا ، وكل سلوك قبيح يكون هو ذاته الخلق الشيء القبيح ، والشر الذي يجب التباعد عنه .

٧ - العادة السيئة

قال الحكماء إن الخلق الذميم يعيش مع صاحبه لا يفارقه كأنه ظله ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، وربما يتوب العبد ، فيتوب الله تعالى عليه ، وفي الحكم الجارية مجري الأفعال من قولهم

ومهما يكن عند أمريء من خليقة ∴ وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٢)

٨ - الكفاءة والجدارة

يقال هذا الأمر خليق به فلان ، ومعناه أنه الأكفأ للقيام به ، والأجدر بأن يوكل إليه ، طالما كان واعيا لأعبائه ، مدركا للارتباطات المتعلقة به ، وكانت الجماعات السالفة تصف المرء بأنه صاحب الجدارة، كما تنعته بأنه صاحب الكفاءة ، يقصدون بذلك أخلاقه لا ذاته (٣) .

لكن ، ما هو التعريف اللغوي الذي يمكن تقديمه للخلق ، بحيث يكون شاملا المعاني السابقة ، ذلك ما أرى التعبير عنه بأنه ما يمارسه المرء سجية فيه ، وطبعا ينقاد إليه ، ويلتزم به ، كالدين في كفاءة تظهر معه رائحة كريمة ، حيث تكون المنزلة العالية، والنصيب الأوفى ، وقد تجيء الكريهة ، حيث تكون المنزلة المتدنية .

## ب - في الإصلاح

لما كان الإصلاح هو إتفاق جماعة بعينها في علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، على استخدام ألفاظ بذاتها ، في معان مراده ، فإن الإصلاح يمثل حجر الزاوية في كثير من المعارف الإنسانية ، التي يراد الوقوف عليها ، وحينئذ يسمى بالإصطلاح الخاص الذي لا منازعة فيه ، وقديما ، قيل لا مشاحة في الإصطلاح ، وبناء عليه سألتقط للخلق عدة تعريفات اصطلاحية على النحو التالي :

---

(١) سورة التغابن : الآية ١٤ .

(٢) لأن المرء الذي يحاول إخفاء طبيعته عن الناس ، حيث يسترها بالحياء الكاذب ، أو الورع المصطنع ، حتما ينكشف أمره ، ومهما حاول أو بذل لأن الطبع عادة يغلب التطبع .

(٣) راجع هذه المعاني في المصادر العربية ، وكتب التفسير ، عند تناول معاني الآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق ، ففي ذلك وجوه كثيرة .

١ - ذهب ابن مسكويه ت ٤١٢ هـ ، إلى أن الخلق حال للنفس ، داعية لها إلى أفعالها ، من غير فكر ولا روية [١] ، وهذا قد يؤدي إلى القول بأن الخلق تمارس على طريقة جبرية لا مكان فيها لإرادة الإنسان ، واختياره ، وحينئذ لا يكون مسئولا عن تصرفاته حتى التي تجري عليه ، يمتدح بها ، أو يذم ، لكن هذا الظاهر غير مراد إذا عرفنا أن الحال الداعية ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هي مرجحة لشيء على غيره ، وذلك من شأنه تحميل الإنسان مسئولية ما يصدر عنه .

٢ - ذهب الإمام أبو حامد الغزالي ٤٠٥ - ٥٠٥ هـ إلى أن الخلق هيئة في النفس ، راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال المحمودة عقلا ، وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت هذه الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا[٢] .

يقول الدكتور الشاعر لا نسلم للإمام الغزالي على ما يراه في التعريف بقوله غير فكر ولا روية ، وذلك لأنه يلغى الإرادة الإنسانية ، والإرادة بلا شك أساس العمل الأخلاقي ، بل هي أساس المسئولية والجزاء ، وصدور الفعل الإنساني بدونها إنما هو هدم للمسئولية من أساسها ، ومن هنا كانت الأعمال اللاإرادية معفاة من المسئولية عليها[٣] .

لكن ما استدركه الشاعر على الغزالي ليس بصواب لأمرين :

**الأول :** تأكيد الغزالي نفسه على أن المراد هنا ليس هو الجبر والإكراه ، أو نفي الإرادة الحرة ، والإختيار الكامل ، وتشهد لذلك عباراته ، حيث يقول : " إنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور ، لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنما إشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال ، أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم " [٤] .

**الثاني:** تدارك الشاعر نفسه لموقفه ، وتفرقته بين ما تسوق إليه العبارات من حيث ظاهرها ، وما يؤدي إليه الإتجاه المعرفي ، فيقول " ونعتقد أن فيلسوفينا [٥] لا يريدان بالطبع إلغاء الإرادة ، وأن

---

(١) العلامة أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، صـ ٤١ ، تحقيق ابن الخطيب ، ط. المطبعة المصرية .

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٢ ، تحقيق الدكتور بدوي طبانه ، ط. الحلبي ، وراجع له : الأربعين في أصول الدين ، صـ ١٩١ .

(٣) الدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر : مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ، صـ ٢٨٧ ، ط. دار الطباعة الحديثة بالقاهرة . الأولى ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

(٤) الإمام الغزالي : أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٢ .

(٥) يقصد بهما ابن مسكويه والغزالي ، لأن إتجاه التعريف عندهما فيه شيء من التقارب

يصدر الإنسان في سلوكه عن الآلية ، وبغير فكر ولا إرادة ذلك لأنهما يؤكدان في عزم وإصرار ، أهمية الإرادة في الأعمال الإنسانية ودورها الفعال فيها "[١] .

٢ - ذهب العلامة الفخر الرازي ٥٤٤ / ٦٠٦ هـ إلى أن الخلق ملكة نفسانية ، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة[٢] ، وتعريفه قائم على ناحية دقيقة ، هي ضرورة التفرقة بين الآتيان بالأفعال الجميلة ، وسهولة الإتيان بها ، فكل منهما حال مستقلة[٣] ، فيقول أن الحالة التي تحصل بها تلك السهولة هي الخلق ، ويدخل في حسن الخلق ، التحرز من الشح والبخل والغضب ، والتشديد في المعاملات ، والتحبب إلى الناس بالقول والفعل ، وترك التقاطع والهجران ، والتساهل في العقود كالبيع وغيره [٤] .

وربما فهم من كلام الرازي، أنه قصر الخلق على الحسن أو الجميل وحده ، وهو بذلك يقدم تعريفا للخلق الحسن ، والأفعال الخيرة ، ولكن هذا الفهم يزول متى لاحظنا أننا أمام الفخر الرازي في جانبه الروحي الوجداني ، أو الصوفي الإشراقي ، لا الفيلسوف المتكلم ، حيث يظهر أكثر المفكرين في اتجاهين يتكاملان ، ولا يتنافران في الحقيقة ، الإتجاه الأول يمثل متابعة المذهب الفكري الذي ينتمي إليه ، والثاني يمثل وجهة نظره الخاصة التي تعبر عن وجدانه ، وتدل في نفس الوقت على مخزونه القلبي ، فإذا كان الإتجاه الأول هو المعبر عن المخزون المعرفي ، فإن الإتجاه الثاني يكون هو الحامل مفاتيح مخازن الجانب القلبي الوجداني[٥] .

بدليل أن الفخر ذاته يقول ، بينا أن الخلق هو الأمر الذي بإعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلا ، فلما كانت الروح القدسية التي له شديدة الاستعداد للمعارف الإلهية الحقه ، وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة ، كانت تلك السهولة حاصله في قبول المعارف الحقه ، فلا يبعد تسمية تلك السهولة بالخلق [٦] ، وهو إتجاه له وزنه العملي ، وأسبابه التي تجعله مقبولا على العديد من النواحي .

---

(١) الدكتور أحمد الشاعر : مناهج البحث الخلقي في الإسلام ، صـ ١٨٧ .

(٢) الإمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثلاثون ، صـ ٦٤٩ .

(٣) وجه الإستقلال أن كلا منهما تمثل حالة بذاتها ، على الرغم من ارتباطها بالأخرى ، لكن من السهل وصف كل منهما بمالها وحدها

(٤) الامام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ، جـ ٣٠ ، صـ ٦٥٠ .

(٥) كثيرا ما ظهر الإمام الغزالي والفخر الرازي في ذلك الموقف ، وبخاصة في مسألة الإمامة ، راجع كتابنا: الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة، صـ ١٤٨، وفي مسألة تعليل أفعال الله تعالى ، راجع كتابنا : تعليل أفعال الله بالأغراض بين المثبتين والنافين ، صـ ٨٩ ، فستجد المصادر التي رجعت إليه من مؤلفاتهما نفسيهما .

(٦) الامام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثلاثون ، صـ ٦٥٠ .

٤ـ ذهب الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ٥٦٠ / ٦٢٨ هـ[١] ، إلى أن الخلق حال للنفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ، ولا اختيار ، وقد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعضهم لا يكون إلا عن طريق الرياضة والاجتهاد ، كالسخاء ، فإنه لا يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ، ولا تعمد ، وكالشجاعة والحلم ، والعفه ، والعدل، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة ، وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة ، ومنهم من يبقى على عادته ويجري على سيرته [٢] .

من جملة التعريفات السالفة تبين أن الخلق ، إما حال من أحوال النفس ، أو صفة من صفاتها ، فإذا كانت الخلق حالا فهي نفسانية ، وإذا كانت صفة فهي نفسانية أيضا ، وذلك مما يؤكد أن الخلق تكون من داخل المرء لا من خارجه ، وعلى كلا من الأمرين ، فالخلاف إنما هو في الإستعمال اللغوي التعبيري ؛ لأن من قال أنها حال قصد المعنى المشترك، ومن قال إنها صفة قصد ذات المعنى المشترك ، والاختلاف في الإستعمال اللغوي لا يدل أبدا على التباين في الآراء[٣]، بقدر ما يدل على كثرة المفاهيم إلى حد الإثراء.

من ثم تبين أن جملة التعريفات السالفة قد ركزت على جانب مهم جدا ، وهو قدرة النفس الإنسانية على ممارسة الأفعال الجميلة والأخرى ، بحيث إذا إنتهت إلى واحدة منها كانت مسئوليتها كاملة بشأنها ، إذ وجود هذه الحال أو الصفة داخل النفس لا يمكن إبرازها إلا في مظهر مدرك يكون السلوك هو المعبر عنه ، أو الناطق الرسمي بإسمه ، كأنه اللغة الشارحة ، أو الوسيلة المعبرة ، ويكون دور الجوارح في هذا الجانب كدور الألفاظ في التعبير عن المعاني ، وقديما قال الأخطل

لا يغرنك من اثير خطبة ∴ حتى يكون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ∴ جعل اللسان على الفؤاد دليلا [٤]

ربما كان الإمام الغزالي أكثر المفكرين وضوحا في التعبير عن هذا الجانب ، الفارق بين اللغة والمعنى . حيث يقول فالخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وكما أن حسن الصورة الظاهر

---

(١) هو شيخ الصوفية الأكبر محي الدين أبو بكر محمد على بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي الشهير بابن عربي ، ولد في مرسية بالأندلس يوم الاثنين ١٧ رمضان ٥٦٠ ، وتوفى ليلة الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨ بدمشق ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، راجع سير أعلام النبلاء ، مجلد ٢٣ ، هامش ٤٨ .

(٢) الإمام الأكبر محي الدين بن عربي : تهذيب الأخلاق ، نقلا عن الأستاذ منصور على رجب ، تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٨٩ .

(٣) ومن مأثورات العلماء ، أن الخلاف اللفظي لا بد من وجوده ، لأنه يمثل ضرورة لغوية ، فليس الناس في اللغة التعبيرية سواء ، ولذلك ، لم يعيروه كثير إهتمام .

(٤) راجع كتابنا : تعليل أفعال الله تعالى بالأغراض بين المثبتين والنافين ، لتعرف محل الشاهد بالبيتين ، وموقف العلماء .

مطلقا ، لا يتم بحسن العينين دون الأنف ، والفم ، والخد ، بل لا بد لـه مـن حسـن الجميـع حتـى يـتم حسن الظاهر ، كذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها ، حتى يتم حسـن الخلـق ، فـإذا استوت الأركان الأربعة وتـناسبت حصل حسن الخلق ، وهو قوة العلم ، وقـوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقـوة العدل بين هذه القوى الثلاث (١) .

لقد كان الغزالي يمثل حركة نقد بناءه للأفكار التي يعرضها في موضوعاتها المختلفة ، ولم يكـن لديه مانع من توجيه النقد لها في صورة من الصور ، وإن لم يعلن عن ذلـك ، وقـد سـار علـى ذات الـدرب الكثيرون ، وكان الفخر الرازي الصورة الواضحة لهذا الإتجاه ، بما يؤكد قدرة المفكر المسلم على إجتـذاب أرض الواقع الفكري إليه ، وجذبها بكل ما لديها ناحيته ، حتى إذا إنتهى مـن الإفضـاء إليهـا بمـا يعتمـل داخل وجدانه ، لم ير تحرجا من إعلان الذي وصل إليه ، مادام عنوانه الحق ، وهدفه بلوغ الحقيقة الـتي هي دليل الحكمة ، وفي الحديث الشريف ، الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أني وجـدها ، لا يبـالي مـن أيـن جاءت (٢) .

يقول الدكتور الشاعر يشير الإمام الغزالي إلى أن هناك أربعة أمور ، هي :

- فعل الجميل والقبيح
- القدرة عليهما
- المعرفة بهما
- الهيئة النفسية التي بها يميل الإنسان إلى أحـد الجـانبين ، الحسـن أو القبـيح ، ويوضـح الإمام الغزالي أن الخلق من هذه الأمور ليس هو الفعل وحده ، أو القدرة عليه ، أو المعرفة به ، وإنمـا هـو الهيئة النفسية التي يصدر عنها الفعل الحسن أو القبيح ،فقد يتحقق أحد هذه الأمور الثلاثة ، ولكن لا يكون صدروه عن هيئة نفسية ، ومن ثم فلا يكون خلقا صادقا وثابتا ، يتصف به الإنسان ، وهذا التحليـل الدقيق يدل على مدى عمق الإمام الغزالي ، ومعرفته بأهواء النفس الإنسانية (٤) .

ويعلق الدكتور مزروعة على التعريفات السابقة بعبارات هادئة متوازنة ، فيقول يتضح أن الخلـق صفة نفسية ، وهذه الصفة ثابتة ودائمة ، ومعنى هذا أن الخلق ليس أمـرا خارجيـا ، وبنـاء عليـه فلـيس

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي ، أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٢ .
(٢) وقد كان هذا الأمر هو ديدن أهل الإسلام من المفكرين الأوائل ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا ما خلفه الأقدمون ، وأدعى كل لنفسه ما لا يستحق ، وقذف غيره بما ليس فيه ، فكانت مناقص الواحد منهم يلقيها على غيره كأنه يهرب منها ، مع أنها لازمة له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .
(٣) الدكتور أحمد الشاعر : مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ، صـ ٢٨٦ .

هناك علاقة ضرورية بين الخلق والفعل ، وفقد يوجد من الشخص فعل معين ، ومع ذلك لا يكون ذلك الفعل خلقا له .

والعكس صحيح ، فقد يسخو شخص ما بقدر من المال مساعدة لفقير ، ومع ذلك لا يكون من خلقه السخاء ، لأن السخاء ليس عادة له ، وإنما سخا هذه المرة ، تحت ظرف معين، وقد يوجد شخص متصف بخلق الخاء ومع ذلك لا يصدر عنه السخاء بالفعل ، نتيجة ظرف خارج عنه ، كأن يكون معسرا لا يجد ما يسخو به [١] .

ولا بد من ملاحظة أن العلاقة بين الخلق والممارسة أو الفعل ليست إضطرادية ، كما أنها استبدالية ، بمعنى أنهما لا يسيران في اتجاه واحد على الدوام ، ولا يعبران عن حالة بذاتها ، لأن إرادة الفعل أو الممارسة لخلق الشجاعة أو الكرم مثلا ، قد لا تنفذ بالنظر إلى الواقع ، بإعتبار العوائق الموجودة ، والحوائل القائمة .

فإذا كان صاحب خلق الشجاعة مقيد الأغلال ، أو حبيس الجدران ، فكيف يظهر خلق الشجاعة عنده [٢] ، لا بد إذن من وجود عنصر آخر يضاف إلى الفعل والإرادة ، وهو الظروف المهيأة ، وإلا كانت الخلق ضربة لازب ، أو خبطة رام في الفراغ ، كما لا بد من إضافة القصد لما هو ناتج عن الفعل والممارسة ، وإلا كانت الخلق عبثًا لا يرتجي من ورائه طائل ، ومن ثم كانت الأعمال بالنيات .

ويعمل الأستاذ منصور على رجب على تقريب فكرة الحال الواردة في تعريف الخلق من ذهن القارئ ، ويبين أنها من الألفاظ المشتركة ، التي يجب أن يتم التعامل معها من خلالها مادام ذلك التعامل مقبولا ، لكن لا على وجه العموم [٣] . وإنما لا بد من استعمالها فيما يخص الموضوع المطروح لدى ذات الطائفة .

ثم ينتهي إلى أن الحال عند أرباب السلوك هي ما يرد على القلب من موهبة الوهاب ، من غير تصنع ولا اجتلاب ، ولا اكتساب من طرب أو حزن ، أو قبض أو بسط ، أو هيئة ، وإنما سمي حالا لتحوله ، فإذا دام وصار ملكة لصاحبه سمي مقاما ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود .

---

(١) الدكتور محمود مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ٣٠ ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م .

(٢) مادامت الإرادة الحرة هي المعيار الذي يتم التعامل معه فيميزان الجزاء الأخلاقي ، فلا بد من وجودها ، وألا وقع الإضطرار والإكراه .

(٣) فكرة الألفاظ المشتركة ما تزال محل بحث في الدوائر العلمية .

أما هي عند الحكماء فصفة راسخة في النفس كالكتابة في الابتداء، وبعد الرسوم تسمى ملكه ، ومهما يكن من شيء فلا بد أن يكون الحال راسخا ثابتا ، وألا فلا يستقيم التعريف [١] .

٥ - ما ذهبت إليه الدراسات الحديثة في كثير من مناحي وجودها وأحاديثها ، بأن الخلق هو سلوك الفرد الذي يتفق مع عادات مجتمعه وثقافته ، وتظهر معه تقاليده ، بحيث يكون مرادفا لمفهوم المواطن الصالح ، الذي يطيع قوانين بلاده ، ويتفق سلوكه مع قيم مجتمعه ، لأن هذا السلوك الصالح إذا ما تحول إلى عادة يمارسها الفرد بإرادته ، كان صاحب خلق [٢] ، وبالتالي ، فكل سلوك يتوافق مع قيم المجتمع ، فإنه يعتبر خلقا إجتماعيا ، وهذا في حد ذاته يمثل وصفا للخلق على طريق الإضافة .

لكن إعتبار السلوك المجتمعي هو الخلق ، فيه قفز على حقائق الدين ونصوصه ، لأن ذلك هو الأصل الذي يجب أن يصار إليه ، ويتم التعامل من خلاله ، إذ أنه متى صارت الخلق مرادفة للسلوك المجتمعي ، لم يعد لعلم الأخلاق أدنى استقلال ، وليس هذا وحده ، وإنما يتحول المجتمع وتقاليده ، إلى بديل يمكن الاستغناء به عن الدين في تعاليمه ونصوصه [٣] ، وهو أمر بعيد ، ويعبر عن ضرابة فكرية .

لقد نظر الدكتور إمام إلى تعريف الخلق الذي ورد في المعاجم العربية ، وهو أن الخلق حال للنفس ، راسخة ، تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية ، بمثابة صورة تجميعية رابطة بين الخلق والعادات الأخلاقية التي رسخت في النفس ، بحيث تصدر عنها الأفعال الحسنة بغير تفكير [٤] .

لكن ماذا عن قيم مجتمع ما فرضت في سوق النخاسة ، ولم تجد حتى من يقبل شراءها ، مهما كان الثمن بخسا ، هل تعتبر من جملة الأخلاق ، وبخاصة أن هناك مجتمعات بات أغلب أفرادها على منطوق الهدى يعيشون ، وتوجيهات العوز النفسي يعملون ، ومن خلال أنماط سلوكية غير سوية يتبادلون [٥] ، هل

---

(١) الأستاذ / منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٩٠ / ٩١ .

(٢) الدكتور إمام عبد الفتاح إمام ، فلسفة الأخلاق ، صـ ١ ، حيث ينقل تعريف المعجم للخلق بأنه حال للنفس راسخة ، تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية ، ثم يعقب عليه بقوله ونجد في هذا التعريف توحيدا بين الخلق والعادات الأخلاقية التي رسخت في النفس حتى تصدر عنها الأفعال الحسنة بغير تفكير .

(٣) اعتبار المجتمع هو البديل الذي يغطي المساحة التي يجب أن تكون السيادة فيها للدين ، مما يسعى للتأكيد عليه أصحاب الوضعية الإجتماعية ، لكن هذا الإتجاه لم ينل القبول من أحد نظرا لإحتوائه على تناقضات لا يتسع لتناولها ، أو حصرها ، المقام .

(٤) الدكتور إمام عبد الفتاح إمام : فلسفة الأخلاق ، صـ ١ ، وعباراته تحمل هذه الأفكار التي تناقلها الوضعية في الزمن الماضي ، وعصر النهضة ، ثم ترسبت إلى الواقع المعاش ، فيبرز دورها خلال القرن المنصرم ، لكن في غياب الوضعية أو في مفردات البراجماتية .

(٥) كالحال مع بوكاسا الزعيم الأفريقي الذي كان يأكل خصومه بعد ذبحهم وشيهم في الأفران التي خصصت لذلك الغرض ، بعد تفريغ أحشائهم ووضع المشهيات بدلا منها ، يستوي في ذلك أن تتم عملية الأكل هذه على الأبناء والبنات بجانب الأمهات ، والأخوة والأخوات .

يمكن إعتبار المتفق مع هذه السلوكيات المجتمعية العدوانية خلقا سليما ، أو قاعدة أخلاقية يمكن متابعتها والاعتناء بها ؟ .

هب أن مجتمعا غلبت على قيمه عمليات الرشوة والخنوع ، واستمرأ أكثر أفراده ممارسة السلبيات الشاذة التي تعتبر الأنا الذاتي هو الظل الذي تحتمي به ، وتستظل تحت جناحيه ، فهل يمكن النظر إلى قيم هذا المجتمع على أنها خلق يمكن تطبيقها ، وتحقق مصالح عديدة لكل من الفرد والجماعة ، أم أنها ستكون بحاجة إلى شيء آخر [1] ، يعيد القطيع الضال من الأفكار الساذجة إلى حظيرة التعاون والتوادد ، ويغذي فيهم روح المحبة ، بل ويعيد شواردهم الإجتماعية إلى قاعدة أصلية ، تكون بمثابة المعطي الدلالي الذي يجب الإلتزام به ، أم سيظل المجتمع في مكانه ؟؟ .

٦ - التعريف الخاص بي :

الخلق هو شعور داخلي يتجول داخل نفس المرء ، ويتحرك بين جنبات فؤاده ، فإذا خرج كان معبرا عن ما في قلبه من إيمان ، أو عقله من معارف ، بحيث يكون الصادر عنه بالإرادة مطابقا لما في داخله ، غير منفصل عنه [2] . أما لماذا ؟ فلأنه يملك الإنفلات من سيطرة قيد التحفظ والكتمان ، كما يستطيع إنفاذ مهام عديدة ، يكون لها الكثير من الصور والمظاهر السلوكية ، إنه الصورة الظاهرية المعبرة عن الحالة الباطنية .

كم أن هذا الخلق ، متى كان قائما على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنه يجيء على الناحية المقبولة عند الله تعالى ، حيث يوصف هذا الخلق بأنه حسن ، داع للخير ، دال عليه ، قائم فيه ، أما إذا كان قائما على غير ما شرع الله تعالى ، فإنه يقع على الصورة المرفوضة شرعا ، المنبوذة عرفا ، الساقطة عقلا ، حيث يوصف بأنه قبيح داع إلى الشرور والآثام ، ويوصف فاعله بذات الأوصاف مهما كثرت .

أضف إلى ما سبق ، أن الخلق هو في حد ذاته وصف ظاهري لما هو مثبت داخل القوى النفسية ، وبالتالي فهو يقوم في الدين و البينة ، ثم الوراثة كعوامل أصلية ، أو منابع رئيسية للبناء الخلقي [3] ،

---

(١) هذه التساؤلات مشروعة من ناحية العقل ، وليس من السهل التخلي عنها ، أو إهمال التعامل معها ، وإلا كنا كمن يردد ولا يفكر .

(٢) هذا التعريف أراه مناسبا من وجهة نظري ، لأنني الذي وضعته ، ومن ثم فإذا لم يرق لغيري، فما عليه إلا أن يقدم الأفضل ، وهي كلها من أقسام الله تعالى ، فمن وفق لشيء فليحمد الله تعالى عليه حيث وفقه ، إذ التسابق في الخيرات من سمات أهل الإيمان ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

(٣) مصادر الأخلاق ، أو المنابع التي تستمد منها عديدة ومتنوعة ، ولكن العبرة بكيفية الوقوف على طبيعة هذه المصادر ، وكيفية توظيفها بالشكل الذي يحقق الفائدة المرجوة ، ونسأل الله تعالى التيسير في الدنيا ، والستر ، ثم النجاة وشفاعة رسول الله ﷺ في الآخرة .

ومصدر ترجيح ذلك عندي ، هو النصوص الشرعية ، والأحكام الفقهية ، بجانب ما صح من آراء تناقلها العلماء الأجلاء ، حيث يذهب الإمام الغزالي إلى أن حسن الخلق يتم بأن يزيل المرء جميع العادات السيئة التي عرض الشرع تفاصيلها ، وجعلها ، بحيث ، يبغضها فيتجنبها ، كما يتجنب المستقذرات ، وأن يتعود العادات الحسنة ، ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها [1] .

لقد كان أبو حامد من ذوي القدرة على تحريك الآراء المطروحة في الجهة التي يريدها ، ويستعمل لها الألفاظ التي يوظفها ، بحيث تكون في خدمتها ، وتؤدي النتائج المرجوة ، أو التي يتوقع لها القبول . كما كان قادرا على دعم النتيجة التي وصل إليها بالأدلة العقلية ، حتى لو كان ظاهرها فقط هو المؤدي إلى ما يطلبه . وهي صورة مهارية شاعت في مؤلفات أبي حامد كثيرا [2] .

وإذا كنت قد ذهبت إلى أن الخلق شعور داخلي ، يعبر عنه سلوك خارجي إرادي ، فقد سبقني إليه الإمام الغزالي من الناحية التقريرية ، حيث ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح . كما أنه ليس القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التميز بين الجميل والقبيح ، وإنما هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الإمساك والبذل[3] ، كل ما في الأمر أن الوسائل التعبيرية أو اللغوية المنقولة ، هي التي تمثل الفارق الصوري بيننا ، وأحسب إني مدين لهؤلاء العلماء الأجلاء في كل ما تعرفت عليه من مجهوداتهم الفكرية والعلمية ، بل والأدبية والأخلاقية .

بيد أني ذاهب إلى ما هو أبعد من كون الخلق مجرد شعور داخلي ، إلى كون هذه الحقائق تمثل مجموعة من التراكيب التي مصدرها البيئة والدين والوراثة ، تجيء أفراد هذه المجموعة متعانقة ، تردف كل منها الأخريات [4] ، أو تجيء هي ردف لها ، فالتعاون بينها سمة مميزة لهذه الأصول التي تقوم عليها الأخلاق ، أو تعبر عنها في صورة استقلالية بعيدة تماما عن الضمير والوجدان .

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي : ميزان العمل ، صـ ٤٧ ، وهو بهذا يضع المنهج العملي ، أو ينتقل من الأخلاق النظرية المجردة إلى الأخلاق العملية التطبيقية .

(٢) هذا لا يقلل من قيمة الإمام الغزالي ، بل يزيدها إلى حد التسامي ، لأنه يستطيع إقناع محدثه بكل من الوجهتين في سهولة ويسر ، حتى لو دفعه ذلك إلى استعمال الأدلة الخطابية في كثير من الأحيان ، وهي صنعة امتاز بها أيضا .

(٣) الدكتور زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي ، صـ ١٥٢ ، ط. دارالشعب ، سنة ١٩٧٠ .

(٤) وعندي أن مكونات الخلق يجب أن تكون لها صورة داخل إطار التعريف ، لأنها إذا لم تفد ذلك الجانب ، أو لم تقم عليه ، وكان هناك نوع من القصور الذي لا يمكن تدارك آثاره .

**ثانيا :إطلاقات كلمة الخلق ، وأحوال استعمالها**

**أ - إطلاقاتها**

تعددت الإطلاقات التي يتم التعامل بالخلق من خلالها ، أو يتم استخدامها على أنها معبرة عن الخلق ، وحيث أن هذا التعدد أو التنوع ، يثمر في البحث متى جاء ذكره من غير إطالة ، فإني سألتقط بعض هذه الإطلاقات ، وألتمس التعليلات لها ، على النحو التالي :

**الأول : القواعد السلوكية**

ويذهب أصحاب هذا الإتجاه ، إلى أن الخلق لفظ يطلق على القواعد السلوكية التي تصدر عن المرء ، وتمثل طريقته في الحياة [١] ، وهذا الإطلاق يجعل الخلق يسير في إتجاهين على سبيل التوازي ، وتعليل ذلك أن قواعد السلوك التي يمارسها المرء في حياته الخاصة أو العامة ، لا يمكن أن ينفصل عنها ، إنها تصير بالنسبة له الميدان الذي يؤدي دوره فيه ، والقوة الكاملة التي تحركه طبقا لما هو متبع [٢] .

ففيها إرادة حرة زائفة ، وجبرية مقنعة ، لكن هذا الإطلاق فضفاض ، يرادف الآداب العامة ، كما يقابل القيم والقواعد المجتمعية بالمعنى الأعم ، بل أن إطلاق الخلق على القواعد السلوكية يمكن فهمه من الناحية الأخرى المقابلة للعامة الفضفاضة[٣] ، وحينئذ يتحتم القول بأن هذا الإطلاق أخص ، ومن هنا يمكن إعتباره عاما تارة ، خاصا أخرى ، بإعتبارين مختلفين ، وهذا ما يجعل الخلق متسمة بالنسبية وعدم الثبات .

**الثاني : الآداب العامة**

ومعناه أنه متى أطلقت كلمة الخلق ، أفادت جملة الآداب العامة التي تحكم المجتمع من خلال العادة الثابتة ، والعرف الموروث ، بجانب الثوابت التي استقرت أطياف المجتمع على قبولها ، حتى وإن لم يكن التعامل بها [٤] ، نظرا لأن كل مجتمع له مقوماته الأساسية، أو طبيعته الذاتية ، بجانب أن كل مجتمع محكوم بقيم موروثة يعتبر الخروج عليها صورة من الكفر بالثوابت الإجتماعية أو إلحاد فيها .

---

(١) راجع للدكتور إمام عبد الفتاح إمام : فلسفة الأخلاق ، صـ ٢ .

(٢) على أساس أن قواعد السلوك داخل هذا المجتمع ، أو ذاك، تكون مقررة في العقول ، ثابتة في الإفهام، يمارسها أفراد المجتمع من غير تكبر أو اعتراض .

(٣) فالمقابلة هنا ليست ذاتية ، وإنما هي صورية دافعة إلى ممارسة كل منهما استقلالا في الوقت الذي تكون الحاجة داعية إليه ، بحيث يصح القول بأن المرء يمارسهما معا ، لكن في وقتين مختلفين أو من خلال جانبين متباعدين .

(٤) كالحال مع حالات الثأر والإغتصاب ، وغيرها من الجرائم التي يحرمها الدين ، ويرفضها العرف ، ويأباها المجتمع ، فليس من الصواب ، أو الحكمة والدين ، ممارسة الإغتصاب مع المغتصب عقوبة له، أو تركه يفعل ما يشاء ، وإنما لا بد من تطبيق العقوبة عليه ، إذ لا يصح إغتصابه قصاصا لأن الفعلة ذاتها مجرمة في الشريعة الإلهية .

فمثلا ، التعبير عن العواطف لا بد من صيغ استخدامية تكون متوافقة تماما مع عادات المجتمع ، فإذا كان هذا المجتمع محافظا غير مسموح فيه بإستخدام الألفاظ المباشرة ، فإن ذلك يعتبر واحدا من الآداب العامة التي لا بد من مراعاتها ، وأي خروج عليها هو في ذات الوقت إسفاف مرفوض ، يدل على ذلك التقدير للآداب العامة عند بث العواطف ، أو

التعبير عنها ، أنقل عن الإعرابي الحكيم :

أشارت لي بطرف العين خيفة أهلها ∴ إشارة محزون ولم تتكلم

فكأن الطرف نابتة فقال أهلا ∴ وسهلا ومرحبا بالحبيب المتيم [١]

لم يكن بث العواطف الصادقة ، النبيلة ، هو الوحيد الذي ترتبط به الآداب العامة ، وإنما يدخل في هذا النطاق كل من الصور العتابية ، والإتجاهات التحذيرية والإغرائية أيضا ، لأن قيم المجتمع غير مسموح بالنيل منها مهما ، كانت الأسباب ، إذ لا يقبل في ذلك إي شيء من التبريرات ، يدل على إحترام الآداب العامة ما يحدث عنه هذه الأبيات :

كم تضاحكت عندما كنت أبكي ∴ وتمنيت أن يطول عذابي

كم حسبت الأيام غير خوال ∴ وهي عمري وصبوتي وشبابي

كم حسبت الأنين بين ضلوعي ∴ رجع لحن من الأغاني العذاب

وأنا أحتسي مدا مع قلبي ∴ حين لم تلقني لتسأل ما بي [٢]

ولما كانت مشاعر ناجي تدفع عواطفه ، لكنه إلتزم الآداب العامة ، وسار خلف عبارات رقيقة

كيف ذاك الحب أمسى خبرا ∴ وحديثا من أحاديث الجوى

وبساطا من ندا مي حلم ∴ هم تواروا أبدا وهو انطوى [٣]

## الثالث : الآداب الإجتماعية

ومعناه أن لفظ الخلق ، متى أطلق دل مباشرة على جملة الآداب الإجتماعية ، المتمثلة في العرف المجتمعي ، بجانب التقاليد التي تمثل ثوابت ينظر إليها دائما في صورة وثائقية، حتى وإن لم تكن

---

(١) فكرة الإنابة في الأدب العربي باب واسع ، يجيء من خلال الرمزية أحيانا ، راجع كتابنا : في النقد الأدبي ، صـ ١٧٣ .

(٢) هذه التساؤلات يرى البعض أنها مقبولة ، ويرى آخرون إمكانية قبول المعنى دون العبارة ، وكل مذهب يقوم عليه .

(٣) الدكتور إبراهيم ناجي : الأطلال ، صـ ١٣ ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٦٦ ، ضمن أجمل ما كتب شاعر الأطلال سلسلة الروائع .

مدونة . طالما كانت داخل زمان بعينه . أما إذا تخطت فكـرة الزمـان المحـدد إلى المعنـى العـام ، فـإن الوضـع يختلف ، كما أن الصورة يقع لها التبديل الأفقي والرأسي معا [١] .

وعلة هذا الإطلاق ، أن الإنسان ابن البيئـة الـتي نمـا فيهـا ، والمجتمـع الـذي درج علـي قيمـه وعاداتـه ، وارتضع ثقافته وأفكاره وإتجاهاتـه ، ومن ثم ، فلا عجب إذا ما قلنـا أن الخلـق هـي هـذه الآداب التي يأخذها الفرد من مجتمعه ، بحيث تكون هي رصيده الذي لا يؤثر في معتقده [٢] ، مهما كان اعتـزازه بـه ، وتقديره له .

لكن ، هذا الإطلاق إن أفاد في التعريف بالأخلاق المجتمعية على ناحيـة خاصـة ، فإنـه لا يكفـي لحمل عبء نقل الأفكار الأخرى ، لأنه سيتحول مـن شـخص إرادي ، يملـك التعـبير عـن نفسـه ، إلى آخـر إنقيادي ملزم بتبليـغ رسالة المجتمـع إلى ذاتـه أولا [٣] ، ثـم إلى مـن يتعـاملون معـه إذا كـانوا مـن ذوي الإتجاهات المجتمعية الأخرى ، وهذا في حد ذاته لا يعطي المرء مساحة للإبتكار ، أو توجيه نقد موضـوعي لقيم هذا المجتمع ، وآدابه من الناحية التي تستلزم الإصـلاح ، وهنـا يفقـد الشـعور بوجـوده ، وتتحـول حياته إلى سجن تشقى فيه الروح ، ويصطلي الوجدان ، فيتمنى الهلاك ، وبخاصة إذا استولى عليه شـعور باليأس والإحباط [٤] ، يقول إبراهيم ناجي :

| | | |
|---|---|---|
| قد رأيت الكون قبرا ضيقا | ∴ | خيم اليأس عليه والسكوت |
| ورأت عيني أكاذيب الهوى | ∴ | واهيات كـخيوط العنكبوت |
| كنت ترثي لي وتدري ألمي | ∴ | لو رثى للدمع تمثال صموت |
| عند أقدامك دنيا تنتـهي | ∴ | وعـلى بـابـك أمـال تمـوت [٥] |

---

(١) لأن العرف يختلف من مجتمع إلى آخر ، فقد اعتبر المعيار في العرف راجعا إلى ما تعارفت عليه الفطر الصحيحة ، والعقول السليمة ، وليس العرف بالمعنى الضيق الذي يجري داخل مؤلفات بذاتها .

(٢) الفرق بين الرصيد المعرفي والآخر الإجتماعي ، أن الأول يتمثل فيه معارف الإنسان وعلومه، بينما الثاني تقع فيه التعاملات المجتمعية ذات الصلة القيادية تارة ، والاستقلالية أخرى .

(٣) يتحول الخلق هنا إلى صورة شبيهة برجل البريد ، مهمته حمل رسائل بذاتها إلى أصحابها دون أن يكون قادرا على تفهم ما فيها ، أو يملك الوقوف على حقيقة مضمونها ، وتلك مشكلة كبرى مجتمعية لا بريدية .

(٤) وأغلب الذين وقعت عليهم عمليات اليأس ، ربما وصلوا إلى الإنتحار ، هم من أولئم الذين لا هم له سوى السير في الإتجاه الذي يدفعهم إليه الآخرون ، فإذا تخلوا عنهم شعروا كأنهم فقدوا ذويهم ، ولم يعد لهم من حق في الحياة .

(٥) الدكتور / إبراهيم ناجي : الأطلال ، صـ ٢٠ .

الرابع : القيم المجتمعية

ومعناه أن الخلق هو الذي تتمثل فيه قيم ذات المجتمع ، بحيث تكون هي المرآة العاكسة لها ، أو المصورة الكاشفة ، التي من خلالها تتم قراءة ما بين السطور ، وما يمكن أن يكون مختبئا خلف جملة من الأغشية الرقيقة ، أو الأغطية ذات الكثافة العالية ، حتى لو كانت المختبئات من أكاذيب المنى ، أو عفاف الضمير [١] ، كل يأخذ بالآخر من ناحية ، ويقبض عليه من منحره ، ويتمنى لو تغلب غيره إلى الأبد .

والعلاقة التعليلية قائمة في أن الخلق هي التي ترسم صورة القيم المجتمعية في الواقع المعاش على ناحية الممارسة ، فما من قيمة مجتمعية إيجابية كانت أو سلبية إلا وهي ذات أثر داخل المنظومة الخلقية ، سواء أكان هذا الأثر سطحيا ، أم عميقا ، وسواء أكان ممتدا متطاولا أم منحصرا ضيقا [٢]، إنها التي تحصر القيم في إطار جملة من السلوكيات أو الممارسات الكاشفة عن طبيعة هذه القيمة أو ذاك ، وليس وراء ذلك شيء آخر .

ب - أحوال استعمالاتها

المراد بالإستعمال هو الصورة التي تجيء عليها من الناحية اللغوية ، لأن معرفة هذه الجوانب تقدم إيضاحات ، بحيث تضاف إلى الإطلاقات التي ترد على الكلمة ، بما يحقق العديد من الفوائد لكل من القارئ والمستمع ، أو المطالع للفكرة والذي ينتظر النتائج المترتبة عليها [٣] ، ومن أبرز هذه الإستعمالات ما يلي :

الأول : الإستعمال الإفرادي

ومعناه أن ترد الكلمة مفردة معرفة بالألف ، واللام هكذا " الخلق " ، وحينئذ يتم التعامل معها في المعنى اللغوي أو الإصطلاحي، على أن المراد بها ما سبق ذكره أثناء التعريف [٤] ، بل يدخل في ذات الإتجاه ما يتعلق بالخلق بالمعنى العام ، من غير إضافة أو تخصيص ، ويسمى الإطلاق العام أيضا [٥]، فمتى ذكرت كلمة الخلق ، فهم المراد مباشرة ، دون الحاجة لشيء وراء ذلك .

---

(١) أكاذيب المنى كثيرا ما تفرض نفسها على بعض المجتمعات التي تعاني الهزيمة ، وتأمل الإنتصار من غير أن تعمل له ، أو تأخذ بأسبابه .

(٢) لما كانت الخلق هي التي تقوم بهذا كله، فقد صار الإطلاق عليها مقبولا من ناحية القائلين به على أقل تقدير .

(٣) طرائق الإستعمال تتنوع ، وتتعدد طبقا لطبيعة الموضوع المطروح ، لأن الإستعمال يمثل نوعا من التوظيف أو الإستخدام لذات اللفظ ، وهي مسألة مهمة ، لها قيمة واضحة بالنسبة للبحث العلمي من الناحية المعرفية .

(٤) راجع التعريفات التي أوردتها للخلق في كل من اللغة والإصطلاح ، طبقا لما سبق الحديث عنه

(٥) الإطلاق العام يمثل قاعدة متفق عليها عند الجمهور ، إنما الإطلاق الخاص فلا يمثل سوى إتجاه طائفة بذاتها ، ومن ثم كان لكل منهما الإستعمال الخاص به .

**الثاني : التركيب التوصيفي**

**ومعناه أن نذكر كلمة الخلق ، ثم نصفها بالجميل أو الحسن ، أو ما شابه ذلك من الصفات ، مما يتعلق بالمركب التوصيفي ، وحينئذ يكون المراد هو التخصيص ، سواء أكان ذلك للتعليم ، أم التحقير، المدح أو القدح ، فإذا قلنا الخلق الجميل كان تركيبا توصيفيا يفيد تميز هذا النوع من الخلق ، حتى يكون في مقابله الآخر[1] ، وهو القبيح ، وكذلك الحال إذا قلنا الخلق الحسن ، أو الخير ، إلى غير ذلك ، مما يجيء على ذات الناحية ، والفرق بين الأول والثاني من وجوه عديدة :**

**أحدها : طبيعة الاستعمال اللغوي ، وهذا يحسم المسألة من ذات الجهة ، إذ ما دامت اللغة هي الإستعمال الحقيقي ، فإن كلا منهما يخالف الثاني في الوضع والدلالة ، وهذا يتضح بكثير من الأمثلة التي يحتاجها الطالب المبتدئ، ويستغني عنها الباحث المتميز، نظرا لوضوح العلاقة من النواحي الكثيرة.**

**ثانيها : أن الأول فيه عموم ، بحيث يشمل المعنى العام ، لأن القاعدة اللغوية قاضية بأن اللفظ المفرد إذا كان معرفا بحرف ألـ ، انصرف إلى أكمل معانيه ما لم تكن هناك قرينة تحدد معنى بذاته[2] ، وبالتالي فالإستعمال الأول يشمل الخلق الإنساني والملائكي ، بل والحيواني ، عند من يقول أن الحيوانات لها خلق، بل يشمل أيضا ما عرف من الأخلاق ، وما لم يعرف منها ، نظرا لعموم اللفظ في الإستعمال .**

**ثالثها : أن الثاني فيه قصور المعنى ، لأنه لا ينطبق إلا على الموصوف به وحده ، فكان التركيب التوصيفي بمثابة تحديد دقيق للفظ الخلق ، بحيث لا ينصرف إلى غيره بحال من الأحوال ، لأنك إذا قلت الخلق الجميل ، فهم من التعبير أنه المقصود بذاته[3] في هذه الحال بعينها ، بغض النظر عن كونك استبعدت من عقل السامع، أو ذاكرته الخلق القبيح، أو المذموم ، حتى لو كان ذلك من باب التعريف به .**

**رابعها : أن اللفظ الثاني يعطي في المعنى المدلول المخالف ، بحيث يكون كالإشارة إليه ، على طريق المفهوم الموافق ، والمفهوم المخالف[4] ، فالموافق للجميل مثلا الحسن والممدوح ، ولا بد فيه من**

---

(١) المركبات الأساسية في لغة العرب ثلاثة ، هي : أ - التوصيفي : ويقع بين المبتدأ والخبر كما نقول الخلق الجميل ، ب - الإضافي : ويقع بين النكرة والمعرفة ، كقولنا خلق الأنبياء ، خلق العلماء ، علم الأخلاق ، جـ - المزجي : ويقع فيه التداخل بين جزءين مفردين كان لهما استقلال قبل المزج ،كقولنا بورسعيد ، بعلبك ، حضرموت ، راجع أحوال هذه المركبات في شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل .

(٢) راجع لقطة العجلان وبلة الظمآن ، صـ ١٧٢ ، ففي ذلك بيان لطيف ، وللشيخ محمد البرماوي ، قواعد النحو والعرف ، صـ ٢٣ .

(٣) فكرة القصدية في التراث العربي تحتاج مراجعة من ذوي الإختصاص لأنها تكون بمثابة القرارات الكاشفة في الأحكام القضائية .

(٤) المنطوق المخالف مسألة مهمة في الفكر الأخلاقي واللغوي والمنطقي بل والقانوني ، لأنها تجعل الإشارة واضحة ، والعبارة فاصلة بين ما هو متاح فكريا وما هو غير متاح ، وتلك في حد ذاتها مسألة على قدر كبير من الأهمية .

النطق به ، حيث لا تكون الإشارة إليه إلا ضمنية ، أما المخالف فهو غير منطوق به ، لكنه محمول في معنى العبارة بطريقة مباشرة على سبيل السلب ، كأنك إذا قلت عرفت الخلق الجميل ، أو مارست السلوك الجميل ، فقد نفيت في ذات العبارة السلوك القبيح ، والخلق الذميم [1]، وهو ما يعرف بنفي المفهوم المخالف .

**الثالث : التركيب الإضافي**

ومعناه أن تجيء كلمة الخلق واقعة في نطاق التركيب الإضافي ، فيكون المراد هو المزيد من الحصر ، كأن تقول طبيعة الخلق ، أو حقيقة الخلق ، أو موضوع الخلق [2]، فهذا الإستعمال يركز على جزئية بذاتها لا يمكن النظر إليها إلا على ذات الوضع ، والتعامل معها من خلال ذات الصورة ، أما إذا جاءت كلمة الخلق منكرة ، فإن المعنى يتغير مع الصورة التي تجيء عليها ، كأن نقول خلق العالم ، أو خلق الصدق ، أو خلق الوفاء ، لأن هذه المركبات وقع لها تبديل في الصور عن الوجه الذي قبله [3] ، وبالتالي فإفادة كل منهما الإستعمالية غير إفادة الصورة الثانية ، ولا مناقضة في ذلك .

قد يجد غيري صورا إستعمالية أخرى غير التي ذكرت ، وتجيء على ناحية من النواحي ، لكن هذا لا يمنع من حث العقل على بذل إمكانياته في الموضوع الذي يتناوله ، والضغط على المفكر بغية استخراج ما لديه من طاقات ، وإستعمال كل ما يملك من طرق إبداع تختزن في ملكاته ، لأن هذا الدور من أولى الواجبات على كل إنسان الذي منحه الله ذات القدرات [4] ، وطالبه بإستخدامها ، وكلفه الإستفادة منها .

**ثالثا : طبيعة الخلق**

يتساءل الكثيرون أسئلة تجيء فيها البراءة حينا ، والقلق والضغط الفكري والأدبي تارة أخرى ، لكنها قد تجيء في أطوار شكية ، وتعبر عنها رغبات انحلالية أو مندفعة نحو التكاسل ، راغبة فيه ،

---

(١) هذا مترتب علي المفهوم الذي ينطوي خلف الحروف المنطوق بها، ولذا يقول العلماء أنه مخالف المنطوق ، ومتى فهم على وجه يقيني صار كالمنطوق من الناحية الأخرى .

(٢) فالإضافة هنا بقدر ما تفيد التخصص ، فإنها مفيدة أيضا في نطاق الاستعمال التميزي على ما هو قائم في أعراف البلاغيين ، ويتحدث عنه كل من النحاة ، والمناطقة ، لكن مع الإختلاف في العبارة ، وطريقة الصياغة .

(٣) الصورة الأولى طبيعة الخلق ، فيها ذكر المعنى القائم من غير متابعة لشيء آخر، لأن لفظ الخلق يكون هو الأعم لكونه المضاف إليه ، أما في الصورة الثانية خلق الوفاء مثلا فإن الخلق هو المضاف وليس المضاف إليه ، وبالتالي فالمعنى ليس واحدا .

(٤) بذل الجهود نعمة يوفق الله تعالى إليها من شاء ، أما من يقنع من الشمس بالإياب ومن الغيمة بالأهاب، فماذا يفعل له ألف مثلي ، إنها إمكانياته التي برزت من خلالها ملكاته ، وكل منهما تحتاج الاسترحام .

رافضة للجهد والإجتهاد ، مبتعدة عنه ، منصرفة لغيره ، مجمل هذه الأسئلة يمكن أن يقع في تساؤلات ثلاثة أصلية ، هي :

**الأول :** هل كل الأخلاق فطرية ، جبلية لأنها لا تقبل التعديل ولا التطوير أو التغيير ، كأنها لون بشرة الجسم ؟ بحيث أن من حاول القيام فيها بتعديل أو تغيير فإنما يمارس أمرا حرمه الله تعالى ، لأن حقائق الأشياء ثابتة[1] ، ويترتب عليه عدم الحاجة إلى علم الأخلاق أصلا ، نظرا لأن هذه الموضوعات تدرس فيه .

**الثاني:** هل كل الأخلاق مكتسبة ، تقبل الزيادة إليها ، والنقصان منها، كما تصلح للتعديل فيها، بحيث يكون مدركا لكافة الأبعاد الأخلاقية ؟ ثم يقبل على الجيد الفاضل منها فيأخذ به ، ولا يبتعد عنه[2]. ويرى القبائح هي المعبر عن الرذائل فينفر منها ولا يقترب ، لأن كل شيء قابل للتعديل ؟

**الثالث :** هل بعض الأخلاق فطرية ، والبعض الآخر مكتسب ، وكل منهما له طبيعته ، ويمكن في الدراسات الأخلاقية التعامل مع كل منهما استقلالا ، بحيث لا يقع المرء في أحد الطرفين المتباعدين ، أو يلجأ إلى صف فريق من المتطرفين ، ومن ثم يكون بعض الأخلاق قابلا للتعديل ، وبعضها غير قابل للتعديل [3] .

هذه الظواهر الثلاثة ، هي التي تحمل ملخصا لمشكلة طبيعة الأخلاق ، وأصحاب كل رأي دعموه بما اعتبروه أدلة ، ثم نظر كل منهم إلى أدلة الآخر نظرة استهجان ونكاره ، أو تجاهل وغرابة ، فاستحروا قتلهم بليل، وتصارعوا في ظلام ، وراح كل منهم يقاتل في ثلاث جبهات ، الأولى في مواجهة أحد الخصمين، والثانية في مواجهة الخصم الثالث ، ثم الثالثة في تدعيم وجهة نظره[4] ، ومحاولة إيجاد أدلة جديدة لصالحة ،وكل سعى لإشقاء غيره، ولا عاصم لهذا كله إلا في الإلتفات لأمر الله تعالى ، وسأعرض لك جملة الآراء حتى تكون على بينة منها .

---

(١) هذا الفريق له كثير من الأتباع في الغرب بصفة خاصة ، لأنهم يعتمدون في أبحاثهم على الجانب المادي غالبا ، وإذا كانت هناك جوانب أخرى فإنها تكون تبعية ، وقد لا يلتفت إليها .

(٢) هذا الفريق ينظر للإنسان في الجانب الذي يقبل استخدام ملكاته ، ويسعى لتدريبها ، بحيث تغطي على باقي الأمور ، كأنه في عالم وحده يتعامل معه بذاته ، ولهم كثير من الأتباع في الشرق والغرب من القدماء والمحدثين على السواء ،الذين يعنون بنوع من علمي الأخلاق .

(٣) هذا الفريق ليس وسطا ، ولكنه جمع الطرفين ، فكان أعم منهما ، إذا كان وسطا لكان قد أخذ من كل فريق بعض أدلته ، أو عبر عن هذا الإتجاه أو ذاك ، وحينئذ تكون المسألة واقعة في نطاق الوسط ، مع أن الأمر ليس كذلك .

(٤) يدرك ذلك من يتعرض لوجهات نظر كل منهم على سبيل الاستقلال ، ولا شك أنه يجد ذلك قائما في أدلتهم التي صاغوها أو حكيت عندهم .

**الفريق الأول : أصحاب القول بأن الخلق مطبوعة جبلية**

بذهب أصحاب هذا الإتجاه إلى أن الخلق يتم توارثها ، كما تورث المنظومة الجينية ، فهي صورة واضحة لعلاقات قائمة من آدم إلى آخر الدهر ، ولذا قالوا أنها لا تقبل التعديل فيها ولا التغير ، واستدلوا على ذلك بما يلي :

**الدليل الأول :** أن الخلق كالخلق من لون البشرة ، وطول القامة وكمال الأطراف، وما دامت هذه الملامح الجسدية الخلقية لا يمكن التعديل فيها أو التغير فإن الخلق هو الآخر لا يقبل التعديل مهما كانت صورته[١]، ونحن نرى أن المقايسة على غير بابها ، ومع هذا ، فهم ساقوها وتمسكوا بها ، مما دفع الإمام الغزالي لبيان فسادها من وجوه عديدة .

**الدليل الثاني :** ما نقله المؤرخون من أن الأعرابي القديم وجد ذئبا صغيرا قد ولدته أمه ، وماتت من فورها ، فأخذه الإعرابي وأرضعه من شاة كانت تدر لبنا ، وظل الذئب يكبر في وسط الأغنام ويحاكيها ، حتى كان لا يعرف من بينها ، وبعد فترة طويلة ، خلى الذئب بالشاة التي رضع منها ، فتحركت فيه طبيعته الإفتراسية، وتوجه للشاة ، فبقرها ، وأكلها[٢]، فقال الإعرابي

بقرت شويهتي[٣]، وفجعت قلبي ∴ وكنت لشاتنا الولد الربيب
غذيت بدرها وربيت فينا ∴ من أنبأك أن أباك ذيب
إذ كان الطباع طباع سوء ∴ فلا أدب يفيد ولا أديب [٤]

**الثالث :** أن الخلق هو الصورة الظاهرة ، والخلق هو الصورة الباطنة ، ولا يمكن التعديل في الصورة الباطنة أبدا ، لأنها الأصل الذي تكون الصورة ظاهرة معبرة عنه ، وإذا حدث تعديل في الباطن فيجب تعديل الظاهر ، وما لم يحدث ذلك في الظاهر ، وهو التبع ، فلا يكون في الباطن الذي هو في حد ذاته الأصل [٥] .

---

(١) من أنصار هذا الدليل في الماضي كثير من مفكري اليونان الأقدمين ، وفي الوقت المعاصر كثيرون في فرنسا وإنجلترا والبعض الآخر في ألمانيا ، وكلها مدارس يدعي أصحابها الحيدة والموضوعية ، وما فيها شيء من ذلك .

(٢) هذه القصة العربية تكررت حكايتها في كثير من المؤلفات لا لبيان أن الأخلاق لا تقبل التعديل، وإنما لبيان أن الحيوان إذا تمكنت منه غرائزه تصرف طبقا لها .

(٣) شويهة تصغير شاه ، ولكنها هنا للتحقير ، لأن الشاة كانت كبيرة مسنة ، وليس فيها مطمع ، فلما فعل الذئب بها ذلك .

(٤) هذا يدخل في نطاق أشعار الحكمة ، ولذا يصح استعماله في الأمثال الشعرية ، والحكم الشعرية ، والفرق يكون في الصياغة ، وكل يأخذ بقدر التوفيق إليه واستعادته .

(٥) لقد ظن الكثيرون أن هؤلاء يقايسون الباطن على الظاهر ، ولكن المسألة عندي بالعكس من ذلك ، لأن التشبيه يكون بما هو أوضح في ذهن السامع وعقله، لا بما هو أكثر غموضا ، وأبعد عن معرفته .

يقول الدكتور الشاعر مصورا أدلة هذا الفريق انه يقولون : أن الخلق كالخلق ، وكما أن الصورة الظاهرة لا يمكن تغييرها ، فكذلك الصورة الباطنة لا يمكن تغييرها[١]، فمرجع الرفض للواقع المعاش، أو قاعدة ثابتة ، وإنما لمجرد محاولة تقريب وجه شبه ، أو إيجاده بين مثالين بينهما غاية التباعد .

وهي نفس الفكرة الرأسية لدى الدكتور مزروعة ، القائمة على أن الخلق الذي هو الصورة الظاهرة من الإنسان، غير قابلة للتغيير أبدا ، فالقصير لا يتغير إلى طويل ، ولا الدميم يتحول إلى جميل، فكذلك الخلق الذي هو الصورة الباطنة من الإنسان غير قابلة للتغيير ، ومن ثم فالشرير لا يتغير إلى خير. وسيء الخلق لا يتحول إلى حسن الخلق . ومهما تعلم الإنسان . بل، ومهما قرأ عن الأخلاق والفضائل، ومهما بلغت مكانته العلمية ، فلا يمكن أن يكون لذلك أدنى تأثير في خلقه[٢]، مادام أمرا مفطورا فيه ، مجبولا عليه .

وقد سبق إلى عرض هذا الدليل الأستاذ رجب منصور ، حيث يعرض اتجاه أصحاب هذا الرأي ، فيقول إن الخلق صورة الباطن ، كما أن الخلق صورة الظاهر ، والخليقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته و فكذلك القبيح الباطن يجري هذا المجرى [٣] ، ولا شك أن هذه الفكرة التي تسيطر على الدليل الثالث واحدة لدى الجميع ،. مما يوحي بأنهم قد استفادوا وأفادوا .

وينقل الأستاذ رجب منصور عن هر بارت سبنسر [٤]، قوله كيف يرجي من العلم تهذيب الأخلاق ، وإصلاح النفوس ، بينما نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم ، واتسعت مداركهم ، أفرادا لا أخلاق له ، ووعاظا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم [٥] ، وسياسيين عظماء قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، يعملون على خراب الدنيا ، والحاق أكبر الشرور بالنوع الإنساني ، وأطباء من اكبر العلماء يلدسون السم لمرضاهم ، فما أغنى العلم ولا نهي التعليم [٦] .

---

(١) الدكتور أحمد عبيد الحميد الشاعر : مناهج البحث الخلقي ، صـ ٢٨٨ .
(٢) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٠ .
(٣) الأستاذ رجب على منصور : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣١ .
(٤) ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ، لمعرفة ترجمته ومؤلفاته ، راجع للأستاذ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، صـ ٣٥٦ / ٣٦٤ ، الطبعة السادسة ، دار المعارف .
(٥) هو هنا يتكلم عن السلوك لا عن الأخلاق ، أو أن الأخلاق والسلوك عنده معناها واحد ، من قبيل المترادفات ، ولذا فكم تمنيت أن يتم تناول هذه المسألة بصفة دقيقة في كل من التصوف والأخلاق والسلوك ، نظرا للعلاقات القائمة بين هذه العلوم المختلفة .
(٦) الأستاذ رجب على منصور : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣٤ .

**الرابع** : أثبتت التجارب التي تم القيام بها ، أن تغيير الخلق غير ممكن ، مهما كانت التجارب طويلة وقوية وعميقة أيضا ، وأن التعديل الذي تم إنما كان صوريا ، بدليل أنه عندما ينفرد المرء مع نفسه ، ويخلو إلى طبيعته ، فإنه يتصرف كما كان ، وكل ما أدعاه في الماضي كان صورة تمثيلية أداها على مسرح الحياة ، حتى قيل :

ومنهم من تلقاه في زي عابد ... وفي جوفه عقارب تسعى

وما دامت العقارب هي التي تسعى في داخله ، فلا يمكن القول أبدا ، بأن هذه العقارب التي تسعى يمكن تحويلها إلى حملان وديعة ، أو أسماك يمكن التهامها ، بناء عليه فلا يمكن أبدا القول بأن الأخلاق تقبل التعديل ، أو يمكن أن يقع عليها شيء من التغيير ، بحيث يكون له وجود حقيقي في المسألة.

صحيح ، قد يقع تعديل صوري في الأخلاق ، أو تغيير وقتي تكون مهمته مجرد قمع الشهوة غير المنظمة حتى تتم في صورة منظمة ، لكن إلى حين ، أما أن يتم إقتلاع ذلك من داخل النفس الإنسانية التي جبلت عليه ، فهذا أمر لا يمكن قبوله ، وفي نفس الوقت ، فإن كل الدلائل تنهض في مواجهته ، ولهذا الرأي الكثيرون من الأتباع الذين مازالوا يعتقدونه [1] ، ويقدمون العديد من الدلائل عليه ، وفي نفس الوقت يتشككون ، ويجادلون قضايا وأدلة الآخرين .

وقد جمع الإمام الغزالي أدلة أصحاب هذا الإتجاه في أمرين ، ذكرهما ثم تولى مناقشتهما ، أو بيان أوجه فسادهما ،وها أنذا أنقل رأيه ، نظرا لما فيه من سبق ، وما يتمتع به من جدة وجوده معا ، يقول أبو حامد رحمة الله ، واستدل فيه بأمرين :

أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن ، كما أن الخلق هو صورة الظاهر ، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته [2]، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى .

الثاني : أنهم قالوا حسن القبح بقمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع ، فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي ، فإشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة ، فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة ، وذلك محال وجوده .

---

(١) اعتقاد الرأي معناه اعتباره صحيحا ، ليس من الصواب ، أو السهل التخلي عنه ، وهذا بخلاف الصدق المعرفي ، لأن الصدق المعرفي يسمح لصاحبه بمواجهة الرأي ، فإذا تبين عدم صحته مثلا أو عدم صدقه ، تراجع عنه ولم يجد في ذلك أدنى غضاضة .

(٢) لاحظ دقة الإمام الغزالي ، عندما يسعى لتحرير الدليل ، إنه يعتبر نفسه موضع أصحاب الدليل أنفسهم ، بحيث يكون على أتم الوجوه ، ومن ثم فلا يهتم بالتعصب ضد الرأي ، وهي من سمات أبي حامد الذي درب نفسه عليها .

من الواضح أن الإمام الغزالي لم يكن يقصد أصحاب الأخلاق بالإصطلاح الحديث ، وإنما كان ينازع طائفة من منكري الرياضة الروحية ، وإمكانية تغيير الممارسات السلوكية ، حيث زعموا أنها صارت طبيعية لهم ، وعادة قائمة فيهم ، ومن ثم كان حديثه معهم حديث الذي يعرف علة قوم فيحاول مساعدتهم في الإبراء منها ، وهي من مهام المفكر المسلم [١] ، وكيف لا والإمام الغزالي قد وضع نفسه موضع الطبيب الذي يسر الله تعالى له الأسباب في معرفة بعض أمراض القلوب ، وعلل النفوس ، وكيفية معالجتها ، وبالتالي قدم أبو حامد جملة إجابات واضحة محددة ،لبيان أن الخلق يقبل التعديل والتغيير ، وقد جاءت هذه الإجابات في شكل أدلة معلبة من خلال صور وأدلة ، منها :

الأول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله ﷺ حسنوا أخلاقكم ، وكيف ينكر هذا في حق الآدمى وتغيير حلق البهيمة ممكن [٢] ، إذ ينقل البازي من الإستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة ، والإنقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق ، وتعديل فيها ، ويشهد بإمكان إستمرار ذلك .

الثاني : النظر في طبيعة الموجودات حيث أن منها ما لا مدخل للأدمي وإختياره في أصله ، وتفصيله ، كالسماء والكواكب ، وأعضاء البدن داخلا وخارجا ، وكل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ هو وجوده وكماله ، ومن الموجودات ما وجد ناقصا ، وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط بإختيار العبد [٣].

ثم ينتهي إلى ضرب مثال بالنواة التي خلقها الله تعالى ، وفيها قابلية للكمال ، حيث تتحول ، إلى نخلة أو تفاحة ، إذ صارت متأثرة بالإختيار ، حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة ، لو أردنا قمعهما وقهرهما ، بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة ، قدرنا عليه ، وقد أمرنا بذلك ، وصار سبب نجاتنا ، ووصولنا إلى الله تعالى [٤].

---

(١) إذ لا يكفي الإنسان مجرد أن يصف الدواء ، أو يعرف العلة ، ويخبر بها وإنما ، لا بد مع ذلك أن يوجه إلى قيمة الدواء في الإبراء من العلة ، كما يعرض طبيعة العلة إن صاحبها أهمل في علاجها ، أو قصر عن مواجهتها .

(٢) هو يقصد بالخلق هنا ما يكون من ممارسات مألوفة ، وعادات متكررة ، وذلك ملحظ جميل ، و تفكير دقيق بجانب أنه يحمل علامة على نضج المفكر المسلم ، ومن كأبي حامد الغزالي؟،

(٣) هذه الأمثلة التي ضربها الإمام الغزالي قد حقق بها أمرين ، الأول دلل على صدق دعواه ، الثاني أنه رد أقوال الآخرين ، من ذوات الباب الذي جاءت عنه ، وتلك ميزة تمتع بها الإمام الغزالي

(٤) الإمام أبو حامد الغزالي : أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٤ .

فالغزالي يؤكد أن الأخلاق من الموجودات الناقصة ، التي فيها قوة لقبول الكمال مادام قد توفر الشرط الذي يستطيع العبد القيام به ، ومن ثم ، فالقول بأن الأخلاق غير قابلة للتغيير أمر غير مقبول ، بل أن الأخلاق غير جبلية ، وأنها قابلة للتعديل ، والطريق إلى ذلك مجاهدة النفس ، والتخلق بالكريم من الأخلاق ، بجانب الجميل من الصفات بإصلاح القوى النفسية وتهذيبها ، ثم معرفة عيوب النفس وإصلاحها •

وعندي أن هذا الرأي القائل بجبلية الأخلاق وعدم قابليتها للتعديل ، غير مقبول لما يلي :

١ ـ لو كانت الأخلاق كلها مطبوعة جبلية ، لما كانت هناك حاجة لمعرفة الفضائل ، حتى يتحلى بها الإنسان ، والرذائل بحيث يتخلى عنها ، بل ما كانت هناك حاجة إلى قوانين أخلاقية ، لأنها ستكون بمثابة بيانات إحصائية حول الممارسات الأخلاقية دون قدرة على إجراء أي تعديل فيها ، أو تغيير في اتجاهاتها [1]، ولبات البحث في علم الأخلاق صورة من العبث واللهو الذي لا تقبل عليه الهمم العالية ، ولا تسعى إليه النفوس أو العقول الكريمة •

٢ ـ لو كانت الأخلاق جبلية ، لما كانت هناك حاجة لإخبار السماء ، تلزم المرء باتخاذ الأخلاق الفاضلة سلوكا لها ، وحتى إذا قامت بذلك لم يكن هناك من داع ، فبان أن الأخلاق قابلة للتعديل ، وأنه يتحتم التغيير فيها على الدوام [2]، وأنه من الممكن أن يحدث فيها تردد ،فيصير الخير شريرا ، والشرير خيرا ، لأن التعليم كثيرا ما غير في الإتجاهات الأخلاقية لدى الكثيرين ، حتى صاروا فاضلين ، وكانوا قبل ذلك من مردة الشياطين •

٣ ـ أن رفض تعديل الأخلاق فكرة تعبر عن نظرة تشاؤمية ، تقود أصحابها إلى اليأس ، وتدفعهم للإنتحار [3]، بل إنها في ذات الوقت ، تفضي إلى ضرورة التخلص من الأشرار بعد التعرف عليهم مباشرة ، إذ في القضاء عليهم والتخلص منهم مصالح عديدة ، ومن هنا يحتاج الناس إلى معايير يمكن أن تدل على ذوي الأخلاق السلبية منذ ولادتهم ، بحيث يتم القضاء عليهم في المهد ، قبل أن يصير كل

---

(١) والشواهد على ذلك كثيرة ، ومن يراجع المؤلفات في الفعل الإنساني يجد ذلك غاية الوضوح •

(٢) أنا أحاول هنا إبراز جانب في الإجابة عليهم ، أراه جديدا من ناحية ، ويمكنه التصدي لأتباع هذا الرأي في الوقت الحالي ، من جهة ثانية ، إذ يجب أن يعيش الباحث ظروف عصره بجانب ما سبق ، ولا مانع من أن تكون لديه تطلعات جديدة •

(٣) وأصحاب النظرات التشاؤمية قانطون من رحمة الله تعالى ، أو مرضى فقدوا القدرة على متابعة الأحداث الواقعة في صورتها الحقيقية ، وهذا في حد ذاته داخل في نطاق المشكلات التي يعاني منها الكثيرون ، الآن ، ونحن منهم ، إذ كثيرا ما ترد علينا أسئلة يرغب أصحابها في الإنسحاب من الدنيا عن طريق الإنتحار الذي يظنون فيه الخلاص ، وما هو إلا استعجال لعذاب الله تعالى ، وإعلان الإفلاس الشرعي ، والكفر بالله تعالى •

واحد منهم شجرة كبيرة الحجم ، كثيرة الأغصان ، متعددة الفروع ، كثيرة الأشواك ، وهو ما يمثل العديد من الجنايات على الأبرياء ، بما ترفضه شريعة رب العالمين .

٤ ـ أن أصحاب الأخلاق الشريرة ، سوف يبقون على حالهم ،بل ربما عاندوا شريعة الله تعالى ، إذ ما دامت أمورهم هكذا ستظل ، فما القيمة التي يرجونها من أي عمل مفيد ، بل ، ما هو الثواب الذي يرجونه إذا كانت جرائمهم سوف تدفع بهم إلى المضي قدما في طريق المعصية [١]، ولا مكان للتوبة والخروج عن المعاصي ، وهذا في حد ذاته كفيل بإشاعة الفوضى بين الناس، وتحويلهم إلى هجم متقاتلين، بدل أن يكونوا إخوة في طريق الحق متحابين ، وعليه متقابلين .

٥ ـ يقول الدكتور مزروعة أن أصحاب هذا الرأي يهدمون بنيان الأديان ، وينقضون الشرائع ، وينكرون الحكمة من إرسال الرسل ، فالرسل ما بعثوا بالأديان والشرائع إلا للارتفاع بأخلاق الناس ، والسمو بها ، وتغييرها من واقع الوراثة ، إلى مستوى أرقى ، بحيث يتحقق فيه الخير والبر [٢]، وينتفي منه الشر ، ثم كيف تنكر تغير الأخلاق ، والله تبارك وتعالى ، بعث رسوله ليتمم مكارم الأخلاق ، وقال له : وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وقال ﷺ حسنوا أخلاقكم .

ثم يقول : فالأخلاق إذن قابلة للتغيير ما في ذلك شك ، ولكن ليس معنى هذا أن كل من درس علم الأخلاق ، وقرأ فيه ، واطلع على مسائله وموضوعاته ، وعرف ما يكتب عن الفضائل ، أو الرذائل ، يصبح على خلق فاضل ، لمجرد هذه القراءة ، أو هذا الإطلاع [٣].

على كل ، فإن أدلة هذا الفريق لم تكن مقبولة ، لا من الناحية الشرعية ، لأنها تخالف ظواهر النصوص الدينية ، كما أنها غير مقبولة واقعا ، وتجربة ، لأن الحقائق العملية والوقائع التجريبية قد بينت إمكانية تغير الأخلاق في كافة صورها ، ومظاهرها ، وهي أيضا غير مقبولة أخلاقيا ، وألا ما كانت هناك حاجة لعلم الأخلاق، ولا لوجوده ، فضلا عن فوائده، ولما كان وجوده قائما إلا من الناحية العشية [٤]، ومع أن الحاجة ماسة إليه ، وفوائده مدركة ، فقد تحقق فساد هذا الرأي .

---

(١) لذلك ، جاءت رسالات السماء لتفتح الباب أمام هؤلاء وأولئك للتوبة ، وحثهم عليها ، منها قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ سورة الزمر : الآية ٥٣ .

(٢) ويؤكد هذا الإتجاه أن رسالات الله كلها كانت لمصالح العباد ، حتى صار الأصوليون يرددون عبارة أن المصلحة هي مقصد الشريعة ، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله ، وكان صاحب الموافقات يكرر ذلك كثيرا، راجع للشيخ الشاطبي : المرافعات في أصول الشريعة ، جـ ٢، صـ ٥ / ٩ .

(٣) الدكتور محمود محمد المزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١١ .

(٤) من ثم ، فإن وجود علم الأخلاق ، بجانب كثرة المدارس الأخلاقية ، من الأدلة على وجود منافع وفوائد له ، ويبطل مزاعم القائلين بأن الأخلاق لا تقبل التغيير .

**الرأي الثاني :** وهو الفريق أصحاب الإكتساب القائل بأن جميع الأخلاق مكتسبة قابلة للتغيير . فما من خلق إلا وهو صورة ظاهرة لدى القائم به ، قابلة للتبديل الكلي ، أو النوعي ، فالكريم اكتسب الكرم حتى لو كان قد تربى في بيئة أو أسرة بخيلة ، والجبان يكتسب الشجاعة متى تربى في أسرة مغامرة ، ومن ثم ، فكل الأخلاق مكتسبة ، تقبل التعديل ، ولذا كانت الحاجة ماسة لعلم الأخلاق ، وأدلتهم على قبول الأخلاق للتغيير عديدة ، منها :

**الدليل الأول :** أن العلم منبع الخير ، وأساس الصلاح ، ولا يولد الإنسان مزودا به ، وإنما يكتسبه من البيئة المحيطة به ، وبالتالي ، فالأخلاق التي يتمثل فيها العلم يستطيع المرء أن يكتسبها ، ومهما كانت لديه من صور وجدانية قائمة في الجهل والتوحش، فإنه يستطيع تعديلها من خلال العلم . وكان سقراط يعتقد أن الجهل مصدر الشر ، وأصل الفساد ، وأن العلم منبع الخير ، وأس الصلاح ، وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان [١].

ولقد كان أفلاطون واضحا حين أكد على قابلية الأخلاق للتغيير ، وذلك في محاورته ، حيث طالب أن يفرق بين الناس بالأوصاف الأخلاقية وقدرتهم على امتحان أنفسهم امام السلوكيات الإيجابية تارة ، والسلبية أخرى ، حيث يسأل سقراط أوطيفرون عن التقوى والفجور ، فيجيبه أوطيفرون بأن التقوى أن تفعل كما أفعل أنا ، حين أقيم الدعوى على كل من يقترف جريمة القتل ، أو الزنا ، أو غير ذلك من الجرائم [٢].

فهو لا ينظر للأخلاق على أنها ثابتة ، ولكنه يوجه أيضا إلى ضرورة أن تكون هذه الأخلاق في أكمل صورة ، حيث لا نفاق ولا خداع ، ولا كذب أو فجور ، لا قتل ولا سرقة ، ولا عبارات يتم ترديدها دون أن تكون غنية بمعانيها ، ففي محاورة الدفاع [٣]، يتحدث عن المبادئ الأولى للأخلاق ، ويخص منها العدل والظلم ، والجميل والقبيح ، والخير والشر، ويؤكد أن الإنسان الكامل هو الذي تكون أخلاقه كاملة، وأن الشرير الناقص هو الذي تكون أخلاقه شريرة ، ثم يؤكد أن متابعة الأشرار قد تفرض على المرء أن يكون شريرا ، حينئذ يقع معهم في الفساد .

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣ .

(٢) أفلاطون، محاورات أفلاطون أوطيفرون ، صـ ٢٥ / ٢٦ ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، سنة ١٩٤٥ .

(٣) هي المحاورة الثالثة في محاورات أفلاطون الأربعة ، إذ تبدأ هذه المحاورات بأوطيفرون ، ثم الدفاع ، وبعدها أقريطون وأخيرا تأتى الرابعة وهي فيدون .

يقول على لسان سقراط ، هبنا إتنصحنا بما ينصح به هؤلاء الذين لا يفقهون ، فأفسدنا من انفسنا جانبا ، تصلحه الصحة ، ويتلفه المرض ، أفتكون الحياة جديرة بالبقاء، إذا ما فسد ذاك[1]، ومن ثم تصير الأخلاق قابلة للتغير على العديد من النواحي ، وألا ما كانت هناك حاجة لمعرفة الحق من الباطل، والظلم من العدل، والخير من الشر، ومن هنا تكون الأخلاق مكتسبة ، وطريق تغييرها هو العلم .

**الدليل الثاني : الموازنة بين اللذائذ والآلام**

أن كل لذة تمثل أمرا ما تسعى إليه النفس ، وتحاول تحصيله ، لكن هذه اللذة بعد الحصول عليها ، ووقوع التمتع أو التلذذ بها يحدث عليها التبدل والضعف، ثم التلاشي ، وقد يأتيها النسيان [2]، وبالتالي فهي بحاجة إلى تكرار واستمرار ، وهذا في حد ذاته يكفي للتدليل على أن خلق الخير يحقق لذة، فإذا جاء بعد هذه اللذة ما ينقص مقدارها، أو يقلله، حدث تعديل في الأخلاق التي قادت إليها ، وبخاصة إذا كانت هذه اللذة مشروعة الأسباب والمقدمات ، مشروعة النتائج .

لقد كان أرسطو يطلق المركب التوصيفي - الفلسفة العملية - على المطالب الأخلاقية ، والإجتماعية ، ولم يكن غرضه إلقاء محاضرة ، أو مناظرة عن الخير ومعناه و وكيفية تحصيله ، والشر ومعناه ، وطرائق الإبتعاد عنه و أو تعديله ، وإنما كان يسعى بجانب ذلك كله إلى أن يكونوا أخيارا بالفعل ، ثم يطالب بضرورة وضع مقياس ثابت يتم من خلاله تعديل الأخلاق ، وأن يستهدف منها ما يحتاج إلى التغيير والإنقلاب [3].

ولما كان هذا الدليل في قابلية الأخلاق للتغيير يقوم على الموازنة بين الفوائد والآلام ، فمعنى هذا أنه متى غلبت اللذائذ الآلام ، استمر المرء في هذا الطريق ، لكن شريطة أن تكون اللذائذ مشروعة في ذاتها ، والنتائج المترتبة عليها ، وهذا التعديل القائم في تغليب اللذائذ لا يمكن إنكاره ، أو تجاوزه ، أضف إلى ما سبق أنه متى غلبت الآلام اللذائذ ، فإن من المفروض سرعة القيام بعملية تعديل في الأسباب التي قامت عليها[4]، وهذا يؤكد أن طبيعة الأخلاق تقبل التعديل ، وطريق التغيير يقوم في السلوك المنظم ، والذوق الرفيع ، بجانب الوسائل الفعالة .

---

(١) محاورات أفلاطون – الدفاع ، صـ ١٣١ .

(٢) وهذا الحكم يشمل كافة اللذائذ الحسية ، لأنها وقتية ، ومن ثم كانت سريعة الزوال ، قد تجيء معها سعادة ، وقد لا تجيء ، المهم أنها تبلغ الدرجة التي يشعر صاحبها بأنه حقق اللذة ، سواء أعقبها منفعة أو لا .

(٣) أ . أ . طيلر ، المعلم الأول أرسطو وفلسفته المنطقية والطبيعية ، صـ ١٣٢ ، ترجمة محمد زكي حسن نوفل ، ط. الخانجي ، سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

(٤) وهذا يؤكد إمكانية التعديل في الأخلاق ، ويضيف إليها جانب اللذة والألم ، ثم يجعل كلا منهما بمثابة المقياس أو المعيار لها ، راجع كتابنا : السعادة في الفكر الإنساني ، جـ ٢ ، صـ ٧٣ .

**الثالث : التميز بين الصواب والخطأ**

حيث أن عملية التميز هذه في الأصل ، قائمة على جوانب معرفية عقلية ، لكن الضابط لها هو جملة القيم الأخلاقية ، وقد كان سقراط يمكنه الهرب من السجن بعد أن أتاح له تلاميذه هذا الهروب ، لكنه رفض ، أما لماذا ؟ فلأنه لا ينبغي إتيان الشر بأية حجة كانت [١]، ومما يؤثر عنه في وصف الرجل الذي يتمسك بالفضيلة أبدا قوله ، لو أن لسانا صادقا أمر جبلا أن يزول لزال ، ويرى أنه متى كسبت النفس السيئة ، بعامل الجهل أو الضعف ، فأول ما يجب الإهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها ، والذي يمكن أن تشفى منه [٢] .

ثم أن كل عملية تمييز إنما هي لصالح الأخلاق ذاتها ، بدليل أن المرء قد يقع في الخطأ على أية ناحية كانت ، ثم تبدأ معه عملية المحاسبة الذاتية التي يقوم بها الضمير من داخل نفسه ، حيث يلومه ، وقد يؤدبه ، أو يعذبه ، للتعديل في المواقف [٣]، ويقلل من المغالطات ، وكم من طاغية لما نزلت عليه صور العقاب ، أرتدع [٤]، وكم من قاسي القلب ، غليظ الأخلاق ، لما تليت عليه آيات القرآن الكريم، تحول إلى حان كريم [٥].

أضف إلى ما سبق ، أن العلم يقبل الزيادة والنقصان ، وهو من صميم الأخلاق ، كما يقبل الزيادة والنسيان ، ويقبل في ذات الوقت الصواب والخطأ ، مع انه الذي يميز بين هذه الأمور كلها من خلال قواعد وقوانين معيارية ، متى إلتزم بها صح وقوفه على الصواب، وكان سقراط يقول أن الأخلاق متغيره كلها ، والطريق إلى تغييرها هو العلم الذي هو طريق الدليل القاطع ، والحجة الدامغة .

**الرابع : التجارب الحياتية**

من المعلوم أن الحياة مدرسة متميزة الأدوار والأطوار ، وكل شيء فيها يتم على الكمال والتمام من الناحية العملية ، والإنسان في الحياة يأخذ ويعطي ، يفيد ويستفيد ، والكثيرون يعدلون من

---

(١) أصحاب الحجج التبريرية لا يعنيهم سوى إشباع رغبات أنفسهم ، ولذلك ، ترى الواحد منهم فقيرا قد لا يملك قوت يومه حينها ، تكون أنت له الملاذ والملجأ ، نظرا لحاجته إليك ، فإذا استغنى بحث عن أسباب للإختلاف معك ، ولو كان سبيله سرقتك في كل ما يخلصك أنه إنسان تبريري ، خاضع لشيطان الهوى .

(٢) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، ص ٣٢ .

(٣) هذا إذا كان ممن تاب الله تعالى عليهم ، وقبل منهم التوبة ، فإنه سبحانه وتعالى قد يزيدهم من فضله ، ويبدلهم السيئات حسنات ، لقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ سورة الفرقان : الآية ٧٠ .

(٤) راجع مؤلفات الصوفية ، ففيها صور تحويلية كثيرة ، كانت في الأساس تعبر عن عنف وشر، ثم انتقلت إلى الخير كله .

(٥) كالحال مع سيدنا عمر بين الخطاب ﷺ قبل الإسلام ، فلما أذن الله تعالى له بنور الإسلام ، بكى ، وتحول من فظ غليظ إلى شيء آخر فيه كل الحكم ، والرحمة والتواضع ، ويكفي ان رسول الله ﷺ قال فيه إن يكن في أمتي محدثون ففيهم عمر .

سلوكياتهم حتى تكون متوافقة مع النمط الحياتي الذي يعيشون فيه، فالذي يعيش بين جماعة مثقفة فترة من الزمان يكتسب ثقافتهم[1].

يقول هيدل أن التجارب الحياتية علمتني أن ما لا أستطيع الوقوف عليه بنفسي، يمكنني الرجوع إليه من خلال الحياة التي أنا واحد من المساهمين فيها، كما يقول، لقد وطنت نفسي على الاستفادة من الآخرين، مهما كانت صورة الاستفادة، المهم أنني أشارك في هذه الحياة، وأستطيع التأثير فيها[2].

من الصواب القول، بأن أدلة القائلين بكسبية الأخلاق وقبولها للتعديل يمكن أن تتساوى مع القائلين بفطرية الأخلاق، وعدم قابليتها للتعديل، من حيث الأعداد المطروحة، وكما أمكن تجميع أدلة الفطريين، أو الجبليين، فكذلك يصح تركيز أدلة الآخرين، ومناقشتها على الجوانب المختلفة، لأن كل منها فريق قد اعتمد أدلة، نالت الكثير من الرفض الهادئ أو الضعيف لدى الآخر.

ويطيب لي أن أنقل عبارة الأستاذ منصور رجب، حيث يقول أن المسألة كما ينبغي أن نفهمها وهي أن الأخلاق تتغير، وأن الفضيلة ميسورة للذى يجمع بين عقل مستنير وشهوات هادئة، وإلا بطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات[3]، ولما قال الله تعالي ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]، وسأرجئ مناقشة أدلة هذا الفريق إلى بعد، إن شاء الله تعالى.

## الفريق الثالث: أصحاب الأخلاق الجبلية مكتسبة

وهم يذهبون إلى أن الأخلاق ليست جبية كلها، كما أنها جميعها مكتسبة، بل بعضها فطري جبلي، قائم في الوجدان لا يبرحه، مستقر بالضمير يتحرك معه، فالله تعالى فطر الإنسان على ترك القبيح مهما كانت صورته[5]، ولكن قد يكون بحاجة إلى طريقة تؤكد له أن هذا فعلا حسن، وذاك قبيح، وهنا تأتي عملية الإكتساب التي يحصل عليها من المجتمع الذي يعيش فيه، والبيئة التي نما بين أفرادها، وكان ابن مسكويه من أوائل الذين نبهوا إلى هذا الجانب، وأسسوا لذلك الطريق، ولهم على ذلك أدلة:

---

(١) وكان بعض العوام في مصر أبان الإحتلال الإنجليزي يتحدثون الإنجليزية، ويتعاملون بها، خاصة أولئك الذين كانت لهم صلات بالاستعمار، كعمال الكنب، وغيرهم. وكثيرا ما كان البعض يكتسب منهم بعض الأخلاق السلبية، وقد ظهرت آثارها في المجتمع المصري بعد الجلاء، وما تزال آثاره باقية إلى يومنا هذا.

(٢) جورج هيدل: الفكر الفلسفي والجوانب الأخلاقية، صـ ١٤١، ترجمة هناء ظافر، ط. أولى، سنة ١٩٨٥.

(٣) الأستاذ منصور على رجب: تأملات في فلسفة الأخلاق، صـ ٣٧.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٥٥.

(٥) وهذا قائم في الطبيعة، ثابت في الفطرة، ليس من السهل التخلي عنه، أو تجاوز ملامحه، وإلا كنا واقعين في العديد من المغالطات، كما صح الاتهام بالجدل والسفسطة.

**الأول : الممارسة والتكلف**

حيث يعتقدون أن الإنسان الطبيعي ، صاحب الخلق السليم ، يمارس الفضائل العملية ، حتى من غير معرفته أنها فضائل ، ثم تأتي بعد ذلك عملية تقنين الفضيلة ، وتقعيدها ، حينئذ يحمل نفسه عليها ، طبقا لما هو مستقر في وجدانه ، فالقاعدة الثابتة هي الموازنة بين ما هو طبيعي ، وما هو مكتسب .

يقول ابن مسكويه بعد تعريفه للخلق ، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين ، منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج [١] ، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ، ويهيج من أقل سبب [٢] ، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ، ثم يستمر عليه ، أولا فأول ، حتى يصير ملكه له وخلقا [٣] .

ويحلق الإمام الغزالي بقارئه في أجواء روحانية عالية التركيز ، حين يؤكد أن بعض الأخلاق لها أصل في الجبلات التي قد تكون سريعة القبول ، أو بطيئيه ، وأن هذا موجود في أصل الفطرة ، ثم تأتي عملية الرياضة والإكتساب فيقع للفعل الأخلاقي التأكيد ، ومن ثم تكون الأخلاق جامعة بين الجبلية والكسبية .

يقول أبو حامد نعم الجبلات مختلفة ، بعضها سريع القبول ، وبعضها بطيء القبول ، ولإختلافهما سببان ، أحدهما الغريزة في أصل الجبلة ، وإمتداده مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتفكير ، موجودة في الإنسان الثاني ، إن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له ، وبإعتقاد كونه حسنا ومرضيا [٤] ،وذلك لا يتم التعرف عليه إلا من خلال الممارسة والتكلف معا .

**الثاني : الواقع المشاهد**

ومعناه أن كل إنسان يدرك في واقعه الطبيعي ، انه مطبوع على قبول الخلق ، ثم تأتي عملية التأكيد على هذه الخلق عن طريق التأديب بالمواعظ والإعتبار ، بجانب الإحتكاك المباشر ، وفي الأمثال من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم [٥] ، وما ذلك إلا لكونه يقبل هذا التعديل في الأخلاق ، بيد أنه لما كان الواقع في المشاهد يحكم بأن بعض الناس يتخلصون من سلوكياتهم وأخلاقياتهم السلبية إلى غيرها ،

---

(١) ويقدم ابن مسكويه على ذلك بأمثلة عديدة ، منها الإنسان الذي يجبن من أيسر شيء ، والذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله .

(٢) وهذه كلها داخلة في نطاق الأخلاق الفطرية ، أو الطبيعية ، والجبلية على ما ذهب إليه أبن مسكويه في مؤلفه تهذيب الأخلاق .

(٣) فالصيرورة التي قلم عليها هذا الإتجاه تؤكد أن ما تم إكتسابه، إنما هو خلق أيضا ، وإن لم يكن مستقلا، ألا أنه رسم الصورة لما يجب أن يكون عليه الأمر في المسألة ، راجع لأبن مسكويه : تهذيب الأخلاق ، صـ ٤١ .

(٤) الإمام أبو حامد الغزالي : أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٤ / ٥٥ .

(٥) راجع كتابنا : حكم وأمثال ، باب الميم ، صـ ٢٧٢ .

وقد يحدث العكس[١]، فقد دل الأمر على أن الخلق منها ما يقبل التغيير ، وهو الذي وقع بالإكتساب ٠

ويعترف ابن مسكويه بهذه النتيجة ، حيث يقرر أن الأخلاق تقبل التعديل في بعضها ، نظرا لكونها فطرية ، ومكتسبة معا ، فيقول ، قال آخرون ليس شيء من الأخلاق طبيعيا للإنسان ، ولا نقول أنه غير طبيعي ، وذلك أننا مطبوعون على قبول الخلق ، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ ، أما سريعا ، أو بطيئا ، وهذا الرأي الأخير الذي نختاره لأنا نشاهده عيانا [٢] ، وهذا أمر واقع على جهة واضحة ٠

وبناء عليه ، يذهب أصحاب هذا الفريق إلى أن الأخلاق بعضها يقبل التعديل ، وهو المكتسب ، وبعضها ثابت . لا يقبل التغيير لكونه قائما في أصل الخلقة ، وهذا إتجاه يوازن بين الطرفين ، ويحاول تقريب وجهات المتحاورين ، وكان أبو حامد من أكثر أصحاب هذا الإتجاه تدليلا واستنتاجا ، وإن كانت وسيلة التعبير عنه قائمة على الرياضة الروحية والبدنية ، والتأمل العقلي [٣]، ويؤكد في ذات الوقت أن قابلية الأخلاق للتعديل تشهد له العديد من النصوص الشرعية ، كما يشهد له الواقع ، والممارسات العملية ٠

## الدليل الثالث : النصوص الشرعية

ومعناه لو أن الأخلاق كانت كلها جبلية طبيعية ، ما كانت هناك حاجة إلى بعثة الأنبياء والمرسلين، إذ كيف لهم أن يغيروا ما هو ثابت [٤]، وما كانت هناك فائدة لمجيء الترغيب والترهيب ، بل ، وما كانت هناك أدنى حاجة لذكر النعيم المقيم ، أو العذاب الأليم ، أما وقد جاء الأنبياء ، وبعث الله المرسلين ، وظهر في الناس المصلحون ، وتكررت آيات الترغيب والترهيب ،وتكاثرت صور النعيم والعذاب الأليم ، فقد دل الأمر على أن الأخلاق ليست كلها طبيعية ، جبلية ٠

ولو كانت كلها مكتسبة ، وليس فيها شيء جبلي ، لكانت بحاجة إلى قاعدة سبقية ، تكون بمثابة

---

(١) والقرآن الكريم قص خبر الذي عدل من الصواب للخطأ ، فقال تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورةالأعراف، الآيتان ١٧٥ / ١٧٦

(٢) العلامة ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، صـ ٤١ ٠

(٣) كثيرا ما رسم الإمام الغزالي المنهج الذي يقترحه ، سواء في العقليات أو الوجدانيات ، بل كثيرا ما قدم صورا منهجية كثيرة في القضايا التي يتعرض لها ، فقدم بذلك العديد من الخدمات العلمية لطلاب البحث العلمي٠

(٤) راجع كتابنا : الغزاليات في النبوات ، لمعرفة فوائد بعثة الرسل ، حيث استغرق الحديث عنها قرابة المائه صفحة ٠

التمهيد لها ، وحينئذ يتسلسل الأمر إلى ما لانهاية له في الماضي[1]، ومن ثم تسقط التكاليف، ولا يكون هناك مبرر لوجود شيء منها ، وقد جاءت التكاليف ، وبأن صحة فوائدها، واستقر في الإفهام الصحيحة دورها المؤثر ، فقد بان أن النصوص الشرعية دالة على كون بعض الأخلاق الإنسانية طبيعية ، والبعض الآخر يقع لها الإكتساب .

من ذلك ، قوله تعالى ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2]، ومحل الإستشهاد هو أن ممسكي الغيظ على الإمضاء هم الكاظمون الغيظ ، حيث يمسك المرء على ما في نفسه منه بالصبر ،ولا يظهر له أثر ، إذ الغيظ توقد حرارة القلب من الغضب ، وعن النبي ﷺ أنه قال من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ، ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ، والعافين عن الناس الذين إذا جنى عليهم أحد يؤاخذوه، وروى ينادي مناد يوم القيامة أن الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا [3] .

## الدليل الرابع : تربية المريدين

ومعناه ، أن المريد إذا قبل السير في الطريق ،فإنه يكون في الغالب الأعم ، قد جاء للطريق بأمر عارض ، من غير أن يكون له سبق معرفة به ، أو تدريب عليه ، فتكون معه حظوظ نفسه وشهوات قلبه ، فإذا نخيف إلى شيخ أو تخلف ، وأمكنه الإصغاء الجيد له [4]، ثم سلم نفسه ، فإن حظوظ النفس تبدأ في التآكل حتى تنتهي ، وربما وقع له التحول السريع ، لأن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون بإعتبار الأفعال الجميلة ، وتارة تكون بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ، ومصاحبتهم ، إذ هم قرناء الخير ، وأخوان الصلاح ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث ، صار ذا فضيلة طبعا ، واعتبارا وتعلما [5].

مما سلف بيانه ،أتضح أن الآراء في طبيعة الخلق ثلاثة ، وأن أولاها بالقبول هو الأخير ، لجمعه بين أفضل ما لدى الفرقين ، وتدعيم موقفه بالأدلة المقبولة ،كما أنه يفتح الباب أمام العصاة والمذنبين ، حتى يتوبوا ، وفي نفس الوقت ، فإنه يشد أزر الأخلاقيين حتى ينشطوا في القيام بواجباتهم على الناحية التي شرعها الله رب العالمين .

---

(١) التسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية ، وأنواعه أربعة ، راجع كتابنا : حبو الوليد في علم التوحيد ، لتعرف التسلسل وأنواعه ، وكيفية إبطال هذه الأنواع ، وكلها أو بعضها ، وموقف المتكلمين والحكماء منها .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٣) العلامة الشيخ أبو البركات النسفي: تفسير النسفي ، جـ ١ ، صـ ١٧٩ ، ط. صبيح .

(٤) من شروط المتابعة الإصغاء الجيد ، الذي يكون من المريد للشيخ ، بحيث يستفيد منه بأعلى طاقة ، وكلما كان المرء متابعا لشيخ عالم، عامل فإنه يتقن أعلى قدر من العلم ، والمعرفة ، والقيم والأخلاق.

(٥) الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٨ / ٥٩ .



# الفصل الثاني

## موضوع علم الأخلاق وفائدته

الأول : تعريفه

الثاني : موضوعه

الثالث : فائدته

## أولا : تعريفه

لا شك أن هذا من المركبات الإضافية على الناحية اللغوية ، والوقوف على هذا الجانب ، يحتاج فصل كل من كلمتي ـ علم الأخلاق ـ عن بعضهما ، والتعرض لكل منهما استقلالا ، وحيث قد تعرضت لكلمة ـ خلق ـ في اللغة ، والإصطلاح على النحو الذي سلف [١]، فقد بقيت كلمة علم ، من غير تعريف ، لكني أقول أن هذه الكلمة مطروحة في غالبية المؤلفات ، وموجودة في إفهام الدارسين ، فسأعمل هنا على تعريف المركب مباشرة ـ علم الأخلاق ـ توفير لكل من الوقت والجهد ، فأقرر أن علم الأخلاق عرف بتعريفات كثيرة . ألتقط منها :

١ ـ هو علم بالفضائل ، وكيفية إقتنائها ، ليتحلى الإنسان بها ، وبالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها[٢]، وهو تعريف مرتبط بالغاية ، أكثر من ارتباطه بالجزئيات ، أو الموضوعات ، ولذا ، فهو داخل في نطاق التعريف بالرسم لقيامه على جزء الخاصة والمناطقة ، يقولون عن التعريف ، وبخاصة ترسم .

٢ ـ علم موضوعه إحكام قيميه تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن ، أو القبح[٣]، وهذا التعريف مبني على بعض الجزئيات التي تتعلق بها الأحكام القيمة ، كما عني بذكر الموضوع وليس الماهية ، ولذا فهو تعريف بالموضوع ، بناء على أن الخلق حال للنفس ، راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر دون حاجة إلى فكر وروية ، لكن العلاقة بين كل منهما فيها شيء من البعد ، والغرابة .

وإذا حمل هذا التعرف الثاني على أن الأخلاقي هو ما يتفق مع قواعد الأخلاق ، أو قواعد السلوك المقررة في المجتمع ، فهو بعيد أيضا[٤]، لأن الأحكام القيمية تنشأ عن مقدمات سبقية ، وشأن التعريفات القيام على الجنس والفصل متى كانت حدية[٥]، لأن معرفة ذلك تكون بالذاتيات ، وإذا قامت على غير الذاتيات كانت تعريفات خاصة ، أو بالخاصة على ما يقول به المناطقة ، وهو التعريف بالرسم .

---

(١) الأخلاق جمع ، مفرده خلق ، ومتى تعرض البحث لكلمة خلق ، في المنطوق اللغوي والإصطلاحي فإن كلمة الأخلاق ، التي تمثل الجمع ، لا تخرج عن هذا المعنى على طريقة المجموع من اسم الجنس النوعي ، أو جمع تكسير .

(٢) المعلم بطرس البستاني : دائرة المعارف ، باب الخاء ، وهو تعريف معجمي قاموسي .

(٣) المعجم الوجيز : باب الخاء ، صـ ٢٠٩ .

(٤) وصف هذه التعريفات بالبعد لا لكونها بعيدة من حيث هي منطوق لغوي ، وإنما بعدها في المعنى ، لأن التعريفات التي تذكرها قائمة على مفهوم سبقي حول الخلق لا مفهوم لاحق يمكن الإستناد فيه إلى نتائج بحثية ، أو مقدمات يمكن إرجاعها إلى أصول لغوية .

(٥) التعريفات الحدية ، سواء أكان ذلك بالحد التام ، أم بالحد الناقص ، لا تكون إلا فيما له جنس وفصل ، أما إن لم يكن هناك جنس ولا فصل ، فإن هذه التعريفات تكون تقريبية ، قائمة على الرسم ، أو الخاصة في صورة من الصور التي عالجها المناطقة في مؤلفاتهم العلمية .

٣ - هو علم السلوك الإنساني الذي يسعى صاحبه إلى تحقيق الغاية التي ينشدها ، ويحقق فيها القدر الأعلى[١] ، فإذا كانت غايته تحقيق العلم ، فإن علم الأخلاق هو الذي يسعى بصاحبه إلى سلوك طريق العلم والبحث فيه ، وتحمل التبعات بجانب عدم التبرم من المشكلات مع ضرورة تخطي العوائق التي تكون في بداية الطريق ٠

إنه يندفع إلى العلم الذي اعتبره غايته التي لا يتخلى عنها ، حتى يكون متميزا فيه ، ولا مانع من أن يكون هو الرأس الأول ، حينئذ يكون سائرا في طريق علم الأخلاق ، وإذا كانت غايته جمع المال ، وتكوين ثروة ، فإن علم الأخلاق يدفع المرء حتى يبحث عن أسباب جمع المال ، ويكثر من إختيار الوسائل التي تبلغ به ذات الغاية أو القيمة بغض النظر عن كونه حسنا ، أو قبيحا ، خيرا أو شرا ، وتلك مشكلة وقع فيها أصحاب الفكر الأخلاقي في الغرب[٢] ، نظرا لقيام الأخلاق عندهم على الغايات النهائية ، حتى وإن ارتبطت بالمقدمات التبريرية ٠

فمثلا ، الفقير يحتاج إلى ما يكفي حاجته ، أو يسد جوعه ، ويرد عنه غائلة العوادي ، ومن لا يملك مسكنا يأوي إليه ، يجد في حصوله على مسكن خاص مملوك له حقا من الحقوق المشروعة ، وليس مجرد أمنية يرويها بأحلامه ، ويغذيها بأطياف خياله [٣] ، فإذا سعى كل منهما في تحقيق تلك الغاية من خلال الصورة الأعلى ، كان قائما على نمط واضح لدى علماء الأخلاق في الغرب ، أما إذا سعى إليها من غير تدن ، أو تعجل لقضاء الله ، فإن أمره يكون قائما في الجانب الأخلاقي الذي استنار بشرع الله تعالى ، وأنعم بها من استنارة ٠

٤ - هو علم يحقق الرغبات القائمة في الطبيعة البشرية ، والتعامل معها على نحو يتناول هذه المشكلات ، ويقدم لها الحلول الممكنة ، والمعالجات التي بها يستقر الإنسان على شاطئ الأمان [٤] ، فهو علم يقوم بعملتين في وقت واحد ، أحداهما تناول الرغبات والمشكلات الناجمة عنها ، ثم كيفية مواجهتها من خلال إختيار الحلول المناسبة لها ، وبهذا يشترك علم الأخلاق ، مع الأصول التي يجيء بها الدين في جانب من الجوانب ٠

---

(١) إدوارد فوكر : المشكلات الخلقية ، صـ ٧٣ ، ترجمة هاني فوزي ، والواضح أنه يتحدث عن المشكلات الأخلاقية ، فجاء تعريفه لعلم الأخلاق من جانب سقط المتاع ، ومن ثم لم يحقق في المجال تقدما ملحوظا ٠

(٢) وكلما تجرد المرء عن شرع الله ، فإن عملية التدني تحيط به من النواحي المختلفة ، والإستقامة هي أقرب طريق يبلغ به صاحبه غايته التي ينشدها ، ويحط عندها رحاله التي لا مناص إلا إليها ٠

(٣) الأحلام مشروعة حتى لو كانت خيالية ، لأنها تنمي في صاحبها الرغبة الإبداعية ، كما تقوده إلى ما يشبه التنبؤات ، بشرط ألا تتجاوز ما هو مسموح به بالنسبة للأوامر الإلهية ، والفرق كبير لمن تأمله ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ سورة ق الآية ٣٧ ٠

(٤) جورج فودين: فلسفة الأخلاق ، صـ ٦١ / ٦٢ ترجمة هاني فوزي، ط. أولى ، سنة ١٩٩٧ ٠

٥ - وينقل الأستاذ منصور على رجب جملة من التعريفات لعلم الأخلاق ، منها أنه علم الإنسان [١]، ومنها أنه علم الخير والشر [٢]، ومنها انه علم الواجب والواجبات ، ثم يعقب عليها قائلا كل هؤلاء لم يحددوا المقصود بما يحصره ويحيط به إحاطة تمنع أن يدخل فيه ما ليس منه،أو يخرج عنه ما هو منه.

فمثلا ، تعريف علم الأخلاق بأنه علم الإنسان ، هذا التعريف يدخل فيه كل العلوم المتعلقة بالإنسان ، سواء من الناحية الجسمانية ، أم من الناحية المعنوية ، فيدخل علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الكيمياء الحيوية ، ويدخل علم النفس ، كما يدخل علم المنطق ، وعلم الجمال ، وفلسفة التاريخ ، وفلسفة القانون ،إلى غير ذلك من العلوم التي تبحث في الإنسان، فهو تعريف غير مانع ، وإذا كان هذا التعريف يدخل في المقصود ما ليس منه ، فإن هذه التعاريف الأخرى المذكورة تخرج من المقصود ما هو منه [٣].

٦ - علم السلوك الإنساني ، الذي يعبر عن رغبات الفرد وغرائزه ، وكيفية الوصول بها إلى مراتب الكمال حيث يتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل فهو علم تخلية وتحلية، أو تكيف وتجلية [٤].

من الواضح أن تعريفات علم الأخلاق متعددة ، بعضها مقبول من الناحية التي جاء عليها . وبعضها غير مقبول لكونه غير موافق لناحية التي تراد منه ، أو يطلب إليه القيام بها ، وهذا في حد ذاته يكفي للقول بأن التعاريف التي ليست حدية ، توجد حولها وجهات نظر عديدة ، وتكمن المشكلة عندما يزعم صاحب ،كل صاحب ،تعريف منها بأنه وحده على صواب ، وأن باقي التعاريف الأخرى في ضلال مبين ، بل تصير ذات المسألة مشكلة أخلاقية لم يصبح فيها حكم فنان ، كما لا يعالجها قضاء أديب .

٧ - التعريف الذي أراه

علم الأخلاق هو الذي يبحث في الشعور الداخلي ، الذي يتمدد داخل الإنسان ، وتصدر عنه سلوكيات تظهر في صور تعبيرية ، بحيث يقوّم النفس على المنهج الذي ينظر للفضائل، فيسعى لإكتسابها، ويحقق الغاية من وجوده [٥]، أما لماذا ؟ فلما يلي :

---

(١) وعلم الإنسان لا يختص بعلم الأخلاق وحده ، لأن الإنسان يشترك في دراسة العديد من العلوم، بحيث يكون مجرد موضوع مشترك ، كل يتناوله من زاوية بذاتها ، وجانب بعينه .

(٢) علم الخير والشر قد يطلق على علم الأخلاق ، من باب أن الأخلاق الحاكم فيها هو السلوك المرتبط بالخير والشر ، لكن هذه العلاقة ليست طردية ، وبالتالي فهي تحتاج الكثير من المعالجة .

(٣) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ١٦ ، ط. القاهرة ، سنة ١٩٥٣ .

(٤) الشيخ محمد صابر الزفتاوي: الأخلاق الإسلامية، صـ ٢١، ط. الدار الميمنية، سنة ١٣٠٥هـ .

(٥) هذا التعريف الذي نسجته إن لم يرق لغيري على مشرب ، فما عليه إلا أن يستر عورتي ، ويغفر زلتي، ويعمل على إنهاضي من كبوتي ، ويسعى هو لتقديم غيره ، يكون أفضل منه ، وأكثر شمولا .

أ - أن في النفس أحوالا مشتركة طبيعية من أهل المزاج والخلقة ، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ، ويهيج من أقل سبب ، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه ، أو يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه ، أو كالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله [١]، ولا يصلح تعريف علم الأخلاق على هذا الجانب الطبيعي وحده ، وإلا كان تعريفا فيه لكثير من القصور .

ب - أن في النفس أحوالا مستفادة بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤها الروية والفكر ، لكن المرء قد يستمر على ما كان مستفادا من العادة ، حتى يصير ملكه له ، وخلقا ثابتا فيه ، ولا يصلح تعريف علم الأخلاق على الجانب العادي المكتسب وحده [٢]، ومن ثم فقد صار من الضروري الإلتفات إلى أحوال النفس الإنسانية ، في الجبلي الفطري ، أو المكتسب العادي .

جـ - أن علم الأخلاق لا يختص بالنفس الإنسانية من حيث هي ، ولا بما يصدر عنها من حيث هو صادر عنها ، وإنما يعني بما هو قائم في النفس ، وما هو صادر عنها معا ، وتلك مسألة مهمة تحتاج المزيد من المراجعة على ناحية دقيقة [٣].

د - أن القاعدة العامة في التحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل فيها قلب الأوضاع من الناحية الصورية ، أو المكانية ، لأن عملية التخلي يجب أن تسبق عملية التحلي ، وإلا ما كان للتحلي وجود حقيقي ، لأن التحلي مرحلة ختامية [٤]، حيث يكون المرء قد ؟ أوفي على التخلي من كل ناحية ، حتى صار خاليا من كل الشوائب ، بعيدا عن جميع الرذائل ، فإذا لم يكن كذلك ، لم يقم له أي من التحلي أو التخلي أصلا .

هـ - أن مهمة الخلق محدودة ، أما مهمة علم الأخلاق من الناحية الوظيفية ، فهي أن ينظر المرء إلى سلوكياته ويضبطها ، بميزان لا يخيس شعرة ، ثم يعيد تقييم حساباته بالفضائل والرذائل [٥]، أنه يقوم بعمل مقاصة ذاتية ، جاء بها الحديث الشريف من قوله ﷺ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، فالتخلية لا بد أن تكون سابقة على التحلية من هذه الناحية على أقل تقدير .

---

(١) العلامة ابن مسكوية : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، صـ ٤١ .

(٢) لأن التعريف حينئذ يكون قائما على جزء من أجزاء النفس الإنسانية ، وهي مشكلة بحثية يمكن الوقوف علي وقائعها بمزيد من الدراسة .

(٣) علم الأخلاق يجب أن يكون جامعا بين نتائج علم النفس وعلم السلوك ، بحيث يكون هو كاللسان الناطق بهما ، أو المعبر عنهما .

(٤) راجع للشيخ محمد عبد العظيم زهران ، قواعد السلوك الإنساني ، صـ ٧١ ، ط. أولى ، دار الإيمان .

(٥) علم الأخلاق معياري، من حيث القواعد التي يجب تطبيقها ، لكنه نسبي بالنسبة للأشخاص الذين ينطبق فيهم ، وهي مسألة تحتاج لمزيد من المراجعة ، لما هو واضح في الدراسات الأخلاقية والنفسية، بل والإجتماعية أيضا .

و - أن الرذائل صور سلبية لا يعترف بها المرء ، حتى لو صدرت عنه ذاته ، إنها تحمل المذمة كما هي تحمل النقائص، وبالتالي فهي تلهبه بسياطها الممدودة ، وتقسوا عليه حتى تفسد حياته، فكيف يقع التحلي ما لم يكن قد اندفع في طريق سبقي ، لا احتثاث التخلي وما يستوجبه ، أو ما يترتب عليه •

ي - أن طبيعة علم الأخلاق طبيعة منعية ، يجب أن تعقبها طبائع قمعية ، لأن المنع يوجب على المرء التخلي عن هذه النقائص ، بحيث لا يزيد رصيدها عن ما هو قائم في النفس الإنسانية ، ثم تجيء الطبيعة القمعية ، حيث ترد الغرائز والشهوات إلى مناطق الكمون ،و هنا يأتي دور الترهيب الذي يظل آخذا بها حتى يقتلعها ، بل ويجتثها من جذورها •

## ثانيا : موضوعه

موضوع كل علم هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية ، التي هي جزئياته البحثية ، من خلالها يتم التعرف عليه ، وبدونها لا يكون له أدنى وجود أو تصور ذهني ، أو واقعي ، ذلك أن كل علم لا بد فيه من ثلاثة أمور ، مقدمات تكون بمثابة التمهيدات التي لا غنى عنها [١] ، ثم أواسط تتمثل في مسائل العلم ومباحثه ، وتعرف بأنها موضوعاته ، ثم تأتي في النهاية النتائج والخواتيم التي يقع فيها تلخيص أهم النتائج التي أمكن للباحث الوقوف عليها •

وقد تشترك جملة من العلوم في موضوع واحد ، لكنها لا تتناوله من ناحية واحدة، وإلا كانت علما واحدا[٢] ، وما حسبت جملة من العلوم أبدا ، فمثلا ، الإنسان يمكن أن يكون موضوعا لجملة من العلوم، كل واحدة منها يعالج جانبا من جوانبه ، أو يتناول زاوية من زواياه، ثم تتكامل جميعا في النهاية•

بدليل أن علم الطب الجسدي ، يتناول دراسة الإنسان من ناحية هيكله الجسماني، على ناحية التشخيص تارة ، والعلاج تارة أخرى ، كما يتناول باقي أجزاء هذا الهيكل الجسماني من خلال جزئيات بحثية ، أمكن في الوقت الحاضر إطلاق أسماء وعلوم عديدة عليها ، واستقلال تام عنها [٣] •

فظهر علم الفسيولوجيا الذي هو علم وظائف الأعضاء ، وعلم الهستولوجيا الذي هو علم الأنسجة والخلايا ، بجانب علم التشريح [٤] ، بل أن كل علم من هذه العلوم الفرعية ظهرت له جزئيات بحثية أطلق عليها فيما بعد اسم علم خاص بها ، ومازالت عملية الإطلاق والتسمية متواصلة •

---

(١) ولذلك ذهب العلماء إلى أن المقدمة جزء من ذات البحث ، لأنها تتعلق بمكوناته الأساسية ، على سبيل الذكر ، كما أنها ملخص لأبوابه وفصوله ومباحثه ، وقد تتناول الجوانب المتعلقة بالمفاهيم التي لا غنى عنها ، بل الحاجة ماسة إليها•

(٢) ومن هنا ذهب العلماء إلى أن التمايز في الموضوعات يكون أمر ذاتيا لا عرضيا ، وهذا التمايز هو المعول عليه عند المقارنة ، أما العنوان فليس مميزا ذاتيا ولا عرضيا ، انه مجرد وصف عنواني فقط

(٣) ولذلك يعتبر هذا العصر عصر ثورة العلوم، كما هو ثورة المناهج ، راجع كتابنا: مناهج البحث بين التقليد والتجديد •

(٤) هذه العلوم في المجال الطبي الجسدي تسمى العلوم الأصلية ، أو الأساسية ، ثم تجيء معها علوم تبعية ، كعلم الكيمياء الحيوية مثلا ، بحيث تؤدي جميعها خدمات بحثية •متكاملة

كما أن علم الطب النفسي هو الآخر يتناول دراسة الإنسان ليس من الناحية الهيكلية الجسمانية كالحال مع سابقة ، وإنما يعني بالإنسان من داخله ، أنه يهتم بدراسة الجزء الخفي ، غير المرئي ، من هذا الكائن الحي الذي يحمل اسم الإنسان ، أو وصفه [١]، بل ظهرت دراسات عديدة متعلقة بهذا النوع من العلوم الطبية ، فظهرت مدارس الطب النفسي التي تطورت وتفرعت من دواني إلى وقاني ، كما أفرزت علوم الطب النفسي النظري ، والآخر الطبي النفسي التجريبي ، وأخيرا الطب النفسي التفريغي ، أو الشحني [٢]، وكل ذلك قد كان موضوعه الأساسي واحد ، هو الإنسان .

كما ظهرت علوم استقلالية تماما عن الطب الجسدي والنفسي ، عرفت باسم الفارماكولوجي ، أو علم الأدوية التي تحولت هي الأخرى إلى دراسات متعددة في علم الأدوية المفردة ، وعلم الأدوية ، أو المركبة ، وهي كلها تجعل من الإنسان مادتها الموضوعية ، مع الإختلاف في التناول ، وطريقة التعامل ، بجانب الناحية التي تتم دراسة الإنسان منها والغاية المترتبة عليها .

يقول الأستاذ منصور علي رجب ، موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية ، كبدن الإنسان ، لعلم الطب ، فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض وكالكلمات لعلم النحو ، فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء ، وكالمعلوم لعلم الكلام من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا ، وبالموضوع تتمايز العلوم ، نعم تتمايز العلوم أيضا بالتعريف ، لكن الإمتياز الحاصل بالموضوع تمييز بحسب الذات والحاصل بالتعريف تميز بحسب الذات راجع زائد في نفسه على التميز بحسب المفهوم [٣] .

لكن ، ما هو موضوع علم الأخلاق بالمعنى الفني ؟

ظهرت مدارس عديدة حاولت الإجابة على هذا التساؤل قديما وحديثا ،لكن الفارق في الإجابة بين القديم والحديث ، هو ذاته الفارق بين طبيعة الخلق وإشكاليات الشروع في دراسته [٤] وذلك يستلزم تقديم الماحة حول موضوع علم الأخلاق داخل الأورقة الفكرية لدى أصحاب هذه الإتجاهات ، وكأني بكل واحدة منها يطلب النجدة ، ويسعى للنجاة ، ويستحثني حتى آخذ بيديه ، أو بأحداهما ، وكأن لسان حاله يقول :

---

(١) مدارس الطب النفسي عديدة وفروع هذا الجانب كثيرة و راجع الطب النفسي لإدوارد فيشر ، الطب المبسط للدكتور خليل زكي .

(٢) راجع هذه الجوانب لدى سبنسر كولز : أعرف نفسك ، صـ ٧٣ / ١٠٥ ، ولهيلين سوفيت : الطب النفسي ومشكلاته الأساسية ، صـ ٨١ .

(٣) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ١٨ .

(٤) لمعرفة هذا الفارق ، راجع ما كتب عن الأخلاق ، وعلم الأخلاق ، ستجد أن القوم مازالوا مختلفين حول هذه المفاهيم والموضوعات التي يتناولونها ، وكذلك الفوائد المترتبة عليها ، والصعوبات التي تواجه الباحثين فيها .

ويد تمتد نحوي كيد ∴ من خلال الموج مدّت الغريق

آه يا قبلة أقدامي إذا ∴ شكت الأقدام أشواك الطريق

وبريقا يظمأ الساري له ∴ أين في عينيك ذياك البريق

ومن ثم ، فسأذكر أبرز الآراء في موضوع علم الأخلاق ، قديما وحديثا ،حسب توفيق الله تعالى ، وسيكون ذلك على النحو التالي :

## أ - في القديم

١ - ذهب أرسطو إلى أن علم الأخلاق هو الذي يهتم بالسلوك الإنساني ، وبالتالي فموضوعه هو الفضائل والرذائل التي يهتم بها الإنسان نظرا لإرتباط الأخلاق لديه بالسياسة ، وكان يعتقد أن العلوم العقلية والخلقية إنما تنشأ من رجوع النفس إلى ذاتها ، وتعرف أحوالها [١] ، وكان منطلق أرسطو في تحديد موضوع الأخلاق قائما على وجود ثنائية في الإنسان هي النفس والجسم ، وأن الفضائل تصدر عنهما معا ، وأن الإنفعالات كالغضب والخوف والحب والبغض ، إنما تصدر عنهما كذلك ، وحين يتحكم العقل في هذه الإنفعالات تكون الفضيلة[٢] ، وحين لا يتمكن من ذلك تكون الرذيلة

بل أن موضوع علم الأخلاق لدى أرسطو شمل الجانب الطبيعي الجبلي ، والآخر المستفاد بالتدريب الواقع في نطاق الإكتساب ، ويسعى أرسطو في نفس الوقت لإتاحة الفرصة الكاملة للإنسان ، حتى يعدل في سلوكياته ، أو يقلل من حجم إعتماده على المصادفة ، كما يدفع الإنسان صاحب الخلق إلى استفادة الفضائل عن طريق العقل والتجربة ، والممارسة مع التدريب المستمر ، كما يرى أن الفضيلة ليست قاصرة على العلم ، وإنما لا بد مع ذلك من العقل ، وأرقى الفضائل عنده ما أطلق عليه أسم الفضائل العقلية[٣] ، وعلى هذا ، فموضوع الأخلاق عنده هو الفضائل العقلية .

٢ - ذهب العلامة أبو نصر الفارابي ، ٢٥٩ / ٣٣٩ هـ ، إلى أن موضوع علم الأخلاق هو قوي الإنسان البدنية والنفسية ، ودور العقل فيها ، لأن الأخلاق لديه إرتبطت بالسعادة القائمة على الخير الأعلى ، يقول الفارابي ، إن السعادة هي آخر الخيرات ، وأعظمها وأكملها [٤] ، ولما كانت السعادة التي يظفر بها هو ذات الإنسان ، فقد حاول الفارابي تقديم هذا الإنسان لعلم الأخلاق ، من خلال جملة من الإعتبارات ، إذا صحت كان عظيم الأخلاق ، أوعلى الأقل بلغ درجة السعادة التي ترضيه .

---

(١) أرسطو : كتاب النفس ، صـ ٤٥ ، ترجمة الدكتور الأهواني ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٢ .

(٢) راجع للدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر : مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ، صـ ١٥٧ .

(٣) الفضيلة العقلية عنده إنما تقوم أساسا على قدرة العقل في توجيه الإنفعالات ، والتحكم فيها إلى الحد الذي يجعلها مضبوطة على ناحية دقيقة .

(٤) المعلم الثاني أبو نصر الفارابي : التنبيه على سبيل السعادة ، صـ ٣، ط. حيدرأباد، ١٣٤٦هـ .

ويذكر الفارابي أن الفضائل صنفان ، خلقية ونطقية ، فالنطقية هي فضائل الجزء الناطق ، مثل الحكمة ، والعقل ، والكياسة ، والذكاء ، بجانب جودة الفهم ، والخلقية هي فضائل الجزء النزوعي ، مثل العفة والشجاعة والسخاء والعدالة ، وكذلك الرذائل تنقسم هذه القسمة ، وفي حيز كل قسم منها إمتداد هذه التي عدت وأغراضها [١] .

من ثم فإن موضوع علم الأخلاق لديه ، هو جملة الفضائل والرذائل التي تقع من الإنسان بإرادته الحرة [٢]، فإذا حللنا هذه العبارات بأن لنا أن الرجل جعل من السلوك الإنساني الإرادي والمترتب النغلف في الصادر عنه ، موضوع علم الأخلاق ، وهي وجهة و نظر صوفية خالصة ، إذ كان الرجل فيلسوفا زاهدا ، وموسيقيا شاعرا [٣] ، غايتة أن يتحمل المرء كل ما يصدر عنه ، ويحاسب عليه .

ويعمل الفارابي على الزج بقارئه إلى ميدان فسيح رحب ، حيث يذهب إلى أن السعادة هي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود ، إلى حيث لا يحتاج في قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائما أبدا ، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال ، وإنما تبلغ ذلك بأفعال ما إرادية ، بعضها أفعال فكرية ، وبعضها أفعال بدنية [٤] .

أجل ، إستطاع الفارابي إختراق الحواجز الفكرية ، كما يمكن من تجاوز السدود التي كانت تحول دون بلوغ الأقدمين غاياتهم ، وأستطاع بتوفيق من الله تعالى أن يقدم صورة وثائقية لموضوع علم الأخلاق بمجهود فكري خالص ، ينسب إليه بعيدا عن أمال التراجمة [٥] ، وطموحات الذين تستهويهم أفكار فجة ، فيسارعون إليها على أنها غضة ، وما هي إلا ثمرات مجهولة النسب بعيدة تماما عن القبول .

---

(١) أبو نصر الفارابي : فصول منتزعة ، صـ ٣٠ ، تحقيق الدكتور فوزي متري نجار ، طبعة ثانية ، دار المشرق ، بيروت .

(٢) فكرة الإرادة الحرة شائعة في مؤلفات الفارابي ، حتى ظن البعض أنه يميل إلى الإتجاه الإعتزالي ، مع أن الرجل كان مفكرا صوفيا ، عاش زاهدا رغم قدرته على التمتع بمظاهر الحياة الدنيا ، لكنه أثر الآخرة فما عند الله خير وأبقى .

(٣) راجع للإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، صـ ٩٤ ، ط. سنة ١٩٤٥ .

(٤) أبو نصر الفارابي : كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة ، صـ ١٠٥ / ١٠٦ ، تحقيق الدكتور البير نصري نادر ، ط. دار المشرق ، بيروت .

(٥) كثيرا ما وقع الإتهام على المفكرين المسلمين بأنهم نقلة لفكر اليونان ، وكأن القصور الذهني هو من نصيب المسلمين وحدهم ، والمؤسف له أن يردد هذه الافتراءات بعض من أبناء المسلمين، وكأنهم ببغاوات عقولهم في آذانهم أو أن آذانهم هي عقولهم ، مع أن تراث الرجل شاهد بأنه مفكر إسلامي أصيل مستقل ، له العديد من الجهود الإبتكارية .

لقد جعل الفارابي موضوع علم الأخلاق قائما في قابلية الإنسان إلى الفضائل والرذائل ، وهذه العملية هي التي يسعى علم الأخلاق إليها حتى يملك زمامها ، ولا يخلي عناقها ، يقول الفارابي الفضائل والرذائل الخلقية إنما تحصل وتتمكن في النفس بتكرير الأفعال الكائنة عن ذلك الخلق مرارا كثيرة في زمان ما ، واعتيادنا لها ، فإن كانت تلك الأفعال خيرات كان الذي يحصل لنا هو الفضيلة ، وإن كانت شرورا كان الذي يحصل لنا هو الرزيلة [(١)] ، ومن مالترتب على واقعة التكيف هو المحكوم عليه .

ويستطيع الفارابي إنتزاع الإعجاب من قارئه ، حين يؤكد مرات عديدة أن موضوع علم الأخلاق متعدد بتعدد الجوانب التي يتناولها في الإنسان نفسه ، وأن الموضوع الأكثر دقة في وقت قد يكون في المرتبة التالية أبان وقت آخر ، ويركز على حرية الإرادة الإنسانية حتى لا يهمل المرء الوقوف مع نفسه ، بحيث يضبطها على ميزان دقيق قوامه الشرع الشريف .

يقول الفارابي أن التي تنال بها السعادة القصوى من الأفعال ، والسير ، والأخلاق والشيم والملكات الإرادية هي الفاضلة وحدها ، وهي الخيرات وحدها ،و هي الجميلة في الحقيقة ، وما عداها من الأفعال والملكات فهي المظنون بها أنها خيرات أو فضائل ، أو جميلة ، من غير أن تكون كذلك ، بل هي في الحقيقة شرور [(٢)] ، من ثم يكون موضوع علم الأخلاق عنده هو قابلية الإنسان للخيرات أو الشرور ، والفضائل أو الرذائل ، وهي مسألة فنية دقيقة تبين عن فكر متميز .

بل مازالت أوجه دعوتي أبناء الإسلام إلى قراءة المفكرين المسلمين من غير إصدار أحكام سبقية عليهم ، وبخاصة تلك التي أصدرها خصومهم في وقت كانت التعبئة اللا شعورية عليهم شديدة جدا ، إذ ليس من المعقول أن نظل سائرين في الغي دون أن نلتمس طريق النجاة ، مع أنه واضح في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [(٣)]، وقوله ﷺ ﴿ كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ﴾ [(٤)] .

---

(١) أبو نصر الفارابي : فصول منتزعة ، صـ ٣٠ ، والأمثلة التي ذكرها كافية لإثبات أنه صاحب رؤية مستقلة ، وفكر متميز .

(٢) أبو نصر الفارابي : كتاب الملة ونصوص أخرى ، صـ ٥٤ ، تحقيق محسن مهدي ، ط. دار المشرق .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٤) والغريب أن الكثيرين ممن ينقلون ولا يفكرون ، مازالوا يرددون إتهام هؤلاء الأجلاء بالكفر والإلحاد ، ويتعاونون عليهم من كل جانب ، لا لشيء سوى أنهم كانوا أصحاب فكر متميز ، وأن خصومهم لم يستوعبوا هذا الفكر ، وبدل المقارعة بالحجة ، لجأوا إلى المخاصمة الانفرادية ، وبنوا عليها ما سمحت لهم به نفوسهم ، بما فيها من قصور ، وعقولهم بما فيها من رغبة في الإتهام ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

٣ - ذهب ابن مسكويه إلى أن موضوع علم الأخلاق، هو الواقع في ميدان العمل الإنساني، من غير فكر ولا روية، ذلك لأن الخلق عنده هي حال للنفس، داعية لها إلى أفعالها، من غير فكر ولا روية[١]، يقول الدكتور الشاعر وكأنه يعني بذلك أن يكون الخلق سجية وملكة نفسية، تدفع صاحبها إلى العمل بمقتضاها، بغير تكلف أو تعمل [٢].

وبناء عليه يكون موضوع علم الأخلاق هو هذه الملكة الذاتية التي تمثل صورة أو فكرة القابلية لدى الفارابي، أو أن فكرهما في المسألة وقع فيه ما يعرف بإسم تبادل الخواطر، أو توارد خواطر[٣]، نظرا لما يتمتع به كل منهما من معرفة واسعة.

بل أن ابن مسكويه يضع حدودا دقيقة لموضوع الأخلاق، فلم يقف عند مسمى الملكة التي تجري بها الخلق، أو تتحصل من خلالها، وإنما توسع في نطاق عمل هذه الملكة، بحيث تجمع ما لديها بالفطرة، أو الذي يأتيها عن طريق الجبلة، ثم تضمه كله إلى ما يأتي عن طريق التدريب والتعود، بحيث يكون ذلك كله داخل إطار يمكن تسميته الموضوع الأساسي لعلم الأخلاق.

يقول ابن مسكويه أننا مطبوعون على قبول الخلق، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ، أما سريعا، أو بطيئا، وهذا الرأي هو الذي نختاره، لأننا نشاهده عيانا[٤]، لقد حرص الرجل على تحريك المسئولية في النفوس، وسعى لإيقاظ ذوي الضمائر من غفوتها، ونبه إلى أن ما يصدر عنا يجب أن يكون هو الميدان الذي يقع التلاقي فيه، أو الحساب عليه، سواء من الناحية الأخلاقية، أم من الناحية العادية، وقد وضع في أول أمره ضرورة الإلتفات إلى الأحكام الشرعية، فهي ذاتها الأصل والمعيار السليم.

٤ - الإمام الغزالي، ٤٠٥ / ٥٠٥ هـ، فقد ذهب إلى أن موضوع علم الأخلاق الذي يجب أن يكون هو هيئة النفس وصورتها الباطنة [٥]، التي هي في الأصل عبارة عن الخلق، أما لماذا؟ فلأن أبا حامد لم ينظر للفضائل والرذائل بقدر نظره إلى هذه الهيئة أو القابلية لكل من الفضائل أو الرذائل، لكنه في

---

(١) ابن مسكوية : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، صـ ٤١ .
(٢) الدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر : مناهج البحث الخلقي في الإسلام، صـ ٢٢٣ / ٢٢٤ .
(٣) فكرة الخواطر المتواردة يستغلها البعض من ذوي الضمائر التي تحتاج الخروج من الدوائر السوداوية المظلمة إلى رحابة نور الإيمان واليقين، حيث يسرقون جهود غيرهم، وينسبونها لأنفسهم، وإذا ضبطوا متلبسين هرعوا إلى سقف توارد الخواطر، فاختبأوا تحته، وظلوا يرتعشون، على أنهم يطعمون أنفسهم وأهليهم حراما، ولن يبارك الله فيه.
(٤) الإمام ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق، صـ ٤١ .
(٥) الإمام ابو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، جـ ٣، صـ ٥٢ .

ذات الوقت دفع القارئ بعيدا عن توهم وقوعه في أن الخلق هو موضوع علم الأخلاق ، لأن الخلق وصف لصاحبه [١]، أما علم الأخلاق فمعياري يمكن الرجوع به إلي الكثيرين الذين تنطبق عليهم هذه المعايير الأخلاقية .

يدل ذلك على تصنيف الغزالي نفسه للهيئة التي تحدث عنها ، لا من حيث هي ، فذلك ليس من شأنه ههنا ، إنما بإعتبار الصادر عنها ، نظرا لكونها راسخة في النفس ، متمكنة منها ، حيث يقول فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا[٢] ، أيضا عقلا وشرعا ، لأن القاعدة واحدة .

لكن الذي يجب الإلتفات إليه ، هو إدخال أبي حامد الغزالي فكرة المحمود عقلا وشرعا ، وذلك ليس بمستبعد منه ، نظرا لكونه فقيها أصوليا ، ألف أصدر الأحكام الفقهية المتعلقة بالشريعة الإلهية ، لكنه في ذات الوقت يبين أن المعيار في الحكم على موضوع علم الأخلاق ليس هو العقل وحده ، وإلا صارت الأحكام نسبية[٣] ، فما يقبله فرد يرفضه آخر ، وما يحوز موافقة جماعة ، قد يحرم من ذلك مع الآخرين ، إنما الحكم الشرعي قائم على الجميع ، وبالتالي صارت الأحكام الصادرة في علم الأخلاق مكتسبة لهذه الشرعية .

صحيح لم يكن السابقون على الغزالي من أهل الإسلام ، قد وضعوا قيد المحمود شرعا في موضوع علم الأخلاق ، لكنه مفترض من جانبهم[٤] ، ثم إنهم لم ينصوا عليه ، لأنه مؤكد لديهم ، وليس من محل التنازع في شيء ، أما الغزالي فأراد أن يؤكد على ما فيه صناعته ، وكلا الفريقين كان على وعي تام بموضوع البحث ، كما كان دقيقا في إختيار الألفاظ المؤدية به إلى غرضه ، وأنعم به من فكر إسلامي متميز في كافة الجوانب التي يتعرض لها .

---

(١) ربما يقال إذا كانت الخلق وصفا لصاحب فعلي ، أي أساس تجيء المعيارية، والجواب أن المعيارية في علم الأخلاق كما هي في الأحكام الأخلاقية ، أما ذات الخلق فإنه أمر متعلق بصاحبه على ناحية لا يمكن إنكارها .

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٢ .

(٣) وإذا وقعت النسبية فيها إنتهت إلى الطعن عليها من حيث أن فريقا يقبلها ، بينما يأتي آخر فيولي ظهره تماما لها ، وكأنه لم يعلم بها ، ولا مانع من الطعن عليها ، فقد بما قيل من جهل شيئا عاداه .

(٤) هذا الإفتراض من جانبنا نحن له مبرراته الواقعية ، لأن الفارابي كان رجلا مؤمنا زاهدا ، وكذلك الحال مع ابن مسكوية ، ولا يمكن أن ينظر واحد من هؤلاء إلى نصوص الدين الإلهي دون أن يحتكم إليها في كل حالاته .

إن أبا حامد سبق عصره ، وقفز إلى الزمن الذي نعيش فيه ، حينما ضرب بسهم وافر في موضوع علم الأخلاق ، وجعل هذه القابلية القائمة في الصورة الباطنة للنفس هي صلب الموضوع ، أو هي لحمته وسداه ، يقول الإمام الغزالي فإن قلت أني أعرف نفسي ، فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل ، والرأس والجثة ، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة ، وإذا اشتهيت طلبت النكاح ، وإذا جعت طلبت الأكل ، وإذا عطشت طلبت الشرب ، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة، حتى تدري أي شيء أنت ، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت ، وبأي شيء سعادتك ، وبأي شيء شقاؤك [١] .

إن الغزالي يوقظ الغافلين من أحلامهم المفزعة ، حتى يأخذ بأيديهم إلى تراث الإسلام الصحيح، حين يدفع في وجه الخصوم جملة من العبارات تكشف عن فكر مستنير ، هو في ذاته يصلح معيارا لموضوع علم الأخلاق ، حيث يضرب الأمثال ، ويذكر الأشباه والنظائر ، ثم يخرج من ذلك كله إلى حقيقة واحدة ، مفادها أن القابلية القائمة في النفس هي المعول عليه عند دراسة نشاط الإنسان الأخلاقي ، ويقدم النصائح المتوالية لمحدثه وقارنه، كأنه يستحلفهم بالله حتى لا يضلوا ، أو يقع عليهم شيء من الشقاوة .

نقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ،قوله

لا تصحب أخا الجهل ∴ وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى ∴ حليما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء ∴ إذا ما المرء ما شاه

وللشيء على الشيء ∴ مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب ∴ دليل حين يلقاه [٢]

ومن أقوال الإمام على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه أيضا

بقدر الكد تكتسب المعالي ∴ ومن طلب العلا سهر الليالي [٣]

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي : كيمياء السعادة ، صـ ٤٢٠ ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط. دار الفكر ، بيروت .

(٢) نقلا عن الإمام الغزالي ، سر العالمين وسعادة ما في الدارين ، صـ ٤٥٦ ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي

(٣) الكد المراد : هو المشروع الذي يكون في رضوان الله تعالى ، وطاعته ، لا في أغراض الدنيا الفانية ، وزينتها الخادعة ، فالعمر يمضي مسرعا إلى النهاية .

| | |
|---|---|
| تروم العز ثم تنام ليلا ∴ | يخوض البحر من طلب اللآلي |
| لنقل الصخر من قلل الجبال ∴ | أحب إلى من منن الرجال [1] |
| وقالوا للفتى في الكسب عار ∴ | فقلت العار في ذل السؤال |
| إذا عاش الفتى ستين عاما ∴ | فنصف العمر تمحقه الليالي |
| وربع العمر يمضي ليس من يدري ∴ | انقضى في يمين أو شمال |
| وربع العمر أمراض وشيب ∴ | وشغل بالتفكر والعيال |
| فحب المرء طول العمر قبح ∴ | وقسمته على هذه المثال [2] |

سوف اكتفي بما ذكرت في موضوع علم الأخلاق في القديم . لأن متابعة هذا الجانب من كافة الرؤوس ، أو من جميع الجهات ، يمثل عبثا بحثيا ، كما قد يحول بين الإستفادة من الجزيئات التي تم طرحها ، لأنها قد ينسى بعضها بعضا.

ب ـ موضوع علم الأخلاق في الفكر الحديث والمعاصر :

١ـ ذهب جود { C. E. M. Joad } إلى أن موضوع علم الأخلاق ، إنما يرجع إلى الجهة التي يأخذ بها المرء ، والمذهب الأخلاقي الذي يؤمن به ، ومن ثم ، أعتبره المحدثون إحدى المشكلات التي أطلت برأسها في فلسفة الأخلاق ، ولا يصدق ذلك على تحديد موضوع علم الأخلاق فقط ، بل يصدق أيضا على أهم مشكلاته ، إذ هي بدورها تتوقف على الموقف الأخلاقي الذي نأخذ به [3] .

لم يعد موضوع الأخلاق مرتبطا بالإنسان ، أو السلوك الإنساني ، بل ولا الحالة أو الشعور الداخلي ، إنه فقط مرتبط بالمشكلات التي تثار ، فكل مشكلة إنما هي جزء من موضوع علم الأخلاق الذي لم تتحدد جزيئاته على سبيل الحصر [4].

فمثلا كيفية معرفة الخير من الشر ، لم تعتبر موضوعا لعلم الأخلاق ، وأساس الإلزام الخلقي[5]، ومصدر الإلزام الخلقي ، وما هو المقصود بالضمير الأخلاقي ، ما المقصود بالفعل الخير أو السلوك الصواب [6]، هذه الأسئلة أو المشكلات الأخلاقية هي التي تمثل موضوع علم الأخلاق .

---

(١) وقديما قيل لا يدق أعناق الرجال سوى منن الرجال ،حتى قالوا لا الأعناق ولا الأرزاق .

(٢) نقلا عن الإمام الغزالي : سر العالمين ، صـ ٤٦٠، وهو كتاب جميل في السياسة بالذات،وفي غيرها بالعرض .

(٣) الدكتور إمام عبد الفتاح ، فلسفة الأخلاق ، صـ ١١ / ١٢ .

(٤) فكرة تحديد موضوعات البحث وجزيئاته ،أمر مسلم به ، بل لا بد من الوفاء به ، وأي بحث علمي لا تكون جزيئاته البحثية محددة ، فإنه يكون لغوا ، لا قيمة له .

(٥) أساس الإلزام الخلقي غير مصدر الإلزام الخلقي ، على إعتبار وجود فارق واضح بين المصدر والأساس في المنطوق والمفهوم .

(٦) المقصود بالفعل الخير أمر بعيد تماما عن فكرة السلوك والصواب ، بل أن السلوك غير الصواب ، وهكذا ، تبدوا الأشياء متقاربة بينما هي في الأصل بعيدة تماما في المفاهيم والموضوعات .

ولا شك أن هذا الإتجاه يمثل خطورة كبيرة ، صحيح ظاهره التيسير على بعض الباحثين في إتخاذ خطوات وتدابير مقبولة ، عندما يراد الحديث عن موضوع علم الأخلاق من خلال أمر مقبول ، أو بعبارة أخرى هم الذين يختارون هذه الجزيئات الموضوعية ، لكنها في الوقت ذاته تدمر فكرة الجماعية في البحث ، كما توقع في التداخل المتواصل ، إذ ما قيمة فكرة تعرض في علم الأخلاق كموضوع ، ثم هي ذاتها تكون موضوعه مرة أخرى في علم الفلسفة مثلا [١] أو علم السلوك ، أو علم التصوف ، إن هذا الخلط له أضرار كثيرة ومخاطر عديدة ، وليس يسلم منها علم من العلوم ·

٢ - الأستاذ منصور على رجب ، يتناول الموضوع في هدوء شديد ، فيقدم ذات التساؤل ، ما موضوع علم الأخلاق ، ثم يقول : نقدم لذلك بكلمة عن الأخلاقية ، أو الحكم الأدبي على العقل الإنساني بالخير والشر ، وذلك يستلزم أن نقول هناك :

١ - قاض يحكم

٢ - دستور يحكم به

٣ - محل يقع عليه أو يتعلق به هذا الحكم

فما هو هذا الدستور ، أو هذه المبادئ [٢]·

ثم ينقل من بار تلمي سانتهلير قوله من النادر أن يقع إجماع على طريقة بسط مذهب بعينه ، مهما أجيدت ، ومهما بلغت من الحق ، ولكن من الأفعال ما هو مقر عليه عند جميع الناس [٣]·

ويبين أن هذا الإقرار العام سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادئ مسلمة عند الجميع ، وتقع الأفعال على مقتضاها ، من حيث لا يشعر الفاعل لها في أغلب الأحيان [٤]، فالبحث عن هذه المبادئ وترتيبها واستنباطها ، وتبين كل حقيقتها ،وكل أهميتها العملية ، وبيان الواجبات التي توجبها على الإنسان بجميع النتائج التي ترتبت عليها ، هذا هو موضوع علم الأخلاق [٥] ·

---

(١) كالحال مع موضوع القيم الإنسانية ، فإنها موضوع فلسفي مكمل للمباحث الأساسية ، الوجود والمعرفة والأخلاق ، وكذلك يدخل في علم الأخلاق نظرا لإرتباطه به على ناحية أخرى ·

(٢) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ١٨ / ١٩ ·

(٣) هنا يفرق سانتهلير بين المذهب وطريقة بسطة ، وبين الفعل الذي تتم ممارسته أمام الجميع، فالفعل واضح ، ولذا فإن عملية الإجماع على الإعتراف به تكون حقيقة واقعة ·

(٤) وهذا يفضي إلى القول بالآلية ، أو يفترض وقوع الإنسان في دائرة الوعي تارة ، واللاوعي تارة أخرى، من غير تحديد فاصل بين المرحلتين ·

(٥) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ١٩ ·

من ثم يمكن القول بأن موضوع علم الأخلاق لدي بارتلمي سانتهلير هو جملة من المبادئ العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتي تقع أفعال الإنسان على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها في أغلب الأحيان ، ولكن هل هذه المبادئ العامة مفاهيم محددة يمكن الوقوف عليها في سهولة ويسر ، أم أنها غير واضحة ، حيث يأتيها الغموض من كل ناحية ؟

٣ - ما ذهب إليه هولمز من أن موضوع علم الأخلاق هو جملة القواعد الأساسية التي يحتكم الناس إليها في سلوكياتهم الشخصية ، وعليها تنتظم أمورهم الحياتية[١]، فهي التي عليها مدار علم الأخلاق ، وهي أيضا التي لا تخرج القواعد الأخلاقية عليها ، لأن الغالبية العظمى من الناس يكون لديهم ميل لتطبيقها ، كما تكون لديهم الرغبة في الإنطواء تحت سلطانها .

بيد أن موضوع علم الأخلاق ، على هذا الرأي ، لا يخرج عن القانون الأساسي في الدولة ، أو ما يمثل دستورها ، بحيث يتم وضعه بالإتفاق بين هؤلاء الناس الذين يعيشون داخل نطاق مجتمع ما[٢]، ويحكم من خلالها دولة ذات نظام دستوري ، ولا علاقة لشيء من هذا بعلم الأخلاق ، لأن الدستور نظام سياسي يعبر عن إتجاه شعب ما توافرت لديه أركان إقامة الدولة بالمعنى القانوني [٣]، كما يحمل ملامح الحكم في نظامه، ويمثل في ذات الوقت نوعان من العقد غير المكتوب بين السلطات القانونية وأفرادالأمة.

٤ - يعتقد هيكر أن موضوع علم الأخلاق هو السلوك الإنساني بالمعنى العام طبقا لما هو قائم في السنن [٤]، وهنا نتساءل ، ماذا يقصد بالسنن ؟ ، أهي الكونية التي أجراها الله في الكون ، وأقام نظامه عليها ، وهي خارجة عن إرادة الإنسان ، وتجري طبقا لما هو قائم في علم لله تعالى ؟ أم هي السنن الطبيعية كالجاذبية والكهرباء والمغناطيسية والضوء والحرارة والنور ، إلى غير ذلك مما هو جزء من علمك الفيزياء [٥]، أم هي السنن التي جعلها الله تعالى شاملة الأرض والسماء من حيث الحفظ الوكول فيها ، بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [٦].

---

(١) إدوارد هولمز:المشكلات الأخلاقية وطريقة تقديم الحلول لها ، صـ ١٧١، ترجمة هناء فوزي، أمل المركابي .

(٢) هذا الدستور يرسم صورة الحكم في البلد ، كما يعبر عن الصورة التعاقدية التي يجب إمضاؤها بين الراعي وأفراد الأمه .

(٣) يذهب لبعض إلى أنها ثلاثة : ١ - شعب ، ٢ - أرض ، ٣ - دستور ، ويذهب بعض آخر إلى أنها خمسة، راجع للدكتور سليمان محمد الطحاوي : النظام الدستوري ، صـ ١٧ ، وللدكتور عبد الحميد متولي : القانون الدولي والنظام الدستوري ، جـ ١ ، صـ ١٣٧ .

(٤) جورج هيكر : المدارس الأخلاقية ، صـ ١٤٥ ، ترجمة صابر على .

(٥) إن هذه المشكلات الفيزيائية بعيدة تماما عن مراد علم الأخلاق ، وبالتالي ، فليس من الصواب القول بأنها متعددة أو مرادة إلى ناحية على النواحي .

(٦) سورة فاطر : الآية ٤١ .

يقول الأستاذ منصور رجب كلا ، فهذه السنن الطبيعية ، وإن كانت عامة ثابتة مسلمة عند الناس جميعهم ، ألا أنها خارجة عن إرادتنا ،فليس في وسعك أن تبدل الصيف بالشتاء ، ولا أن تجعل التفاحة حين تنفصل من الشجرة ، ترتفع إلى أعلى ، بدل أن تسقط إلى أسفل .

إذن ، فما هو موضوع علم الأخلاق ؟ ، أهي هذه القوانين التي تفرضها الدولة لمصلحة المواطنين ، حيث تنظم بها علاقات الناس المشتركة المتبادلة بينهم في الحياة ، كلا، فهذه القوانين و إن تعلقت إرادتنا بها ، إلا أنها غير عامة لدى جميع النّاس ، لأنها تخص بلدا بذاتها ، أو مجتمعا معينا ، كما أنها غير مسلمة عند جميع الناس ، وإنما تختلف بإختلاف الزمان والمكان ، وهي في بلاد غيرها في الأخرى، وهي اليوم غيرها بالأمس[١] .

٥ـ ذهب الأستاذ الشيتوي إلى أن موضوع علم الأخلاق هو المبادئ العامة الفطرية التي تدفع للفضائل ،كما تنهي عن الرذائل [٢]، ولكن هل هذه المبادئ العامة الفطرية محل اتفاق بين الناس ، إن النزاع مازال قائما في تحديد الأفكار الفطرية ، والتسليم بها ، ونحن المسلمين نعتقد أن الفطرة السليمة قائمة على العقيدة الإلهية الصحيحة ، لقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣] .

وإذا كان النزاع مازال قائما حول وجود هذه المبادئ من عدمه ، فهل يمكن إعتبارها موضوعا لعلم الأخلاق ، وهي التي لم يسلم بوجودها بعد ، ألا يعتبر ذلك استخفافا بالعقول ،ويمثل نوعا من السخرية بالقدرات الفكرية ، وفوق ذلك ، فإنه يهدم المبادئ والقواعد الأخلاقية مهما كانت صورتها البينية، إذن موضوع علم الأخلاق لا يخرج عن شريعة الحق والواجب .

يقول الأستاذ رجب منصور ، إنها شريعة الحق والواجب ، وهي شريعة عامة ، ثابتة ، صالحة لكل زمان ومكان ، فالحق واحد لا يختلف فيه إثنان ، وأن حصل خلاف بين الناس ، فإنما هو خلاف في فهم الحق ، لا في الحق ذاته[٤].

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ١٩ / ٢٠ .
(٢) الأستاذ محمد على الشيتوي: فلسفة الأخلاق ، صـ ٥٣ ، ط. اولى ، سنة ١٩٦٤ .
(٣) سورة الروم : الآية ٣٠ .
(٤) قد يقع من بعض المجادلين إنكار للحق ، أو تجاهل له من غير جهل به ، وإنما على سبيل القصد والعمد، وهؤلاء إنما ينطلقون من قلوب سوداء ، وضمائر خربة ، ويعبرون عن نفوس امتلأت بالحقد والحسد ، وما هم في دنيا الناس إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا ، قال تعالى ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ سورة الأنفال : الآية ٦ .

ومعنى كونها عامة أنها موجودة في كل الضمائر ، وإن اختلفت قوة وضعفا ، فالإنسان قادر بفطرته أن يميز بضميره صواب الأمر من خطئه مباشرة ، بلا ملاحظة ، ولا خبرة ، ولا تعليم ، وعلى هذا تكون قواعد السلوك ، أو دستور الأخلاق ظاهرة الصدق ، والصواب ظهورا مباشرا ، ومن العمل عليها تكون الفضيلة [١] .

٦ - يعتقد لافوازيه ، أن موضوع علم الأخلاق هو الخير والجمال ، والحكم عليها من خلال مفهوم الإلزام الخلقي ، بحيث تبلغ الخير الأقصى [٢]، وهو كما ترى كن يجمع جزئيات ، يحاول لملمة أطرافها ، حتى يكون منها موضوعا واحدا ، مع أن ذلك ليس بمستطاع، ولا هو مقبول ، لأن الخير والجمال من موضوعات علم الأخلاق وليس واحدا منهما ،إلا وله علاقة بينية بالقيم ذات الإتجاه السلوكي تارة ، أو القيم ذات الارتباط الميتافيزقي تارة أخرى ، ومن ثم فالمحاولة مازالت في طور التجربة .

٧ - الأستاذ منصور رجب ، مرة أخرى [٣]، يذكر أن موضوع الأخلاق هو أفعال الإنسان الإختيارية ، أما لماذا ؟ فلأن الضمير الأخلاقي قد ركز على الفضيلة التي هي من الفطرة ، وشريعة الإسلام تشير إلى هذا ، فقد ورد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال لوابصة بن معبد جئت تسأل عن البر ، قال البر ما أطمأنت إليه النفس ، وأطمأن إليه القلب ، والإثم ما حال في النفس وتردد في الصدر ، وأن أفتاك الناس ، وأفتوك [٤].

ثم يقول أن هذا المبدأ ، وهذا القانون ، ليس من وضعنا ، بل هو قانون في ضمائرنا ، يناجي عقولنا ، ولكنه ليس أيانا ، أنت لا تستطيع أن تنكره ، ولا أن تلزمه الصمت، ولكنك فقط تستطيع أن تخالف نصائحه الحقة القوية،مادامت لك إرادة حرة [٥].

ومن هنا نشأت المسئولية ،فأنت بمقتضى هذه الشريعة ، شريعة الحق والواجب ، مسئول أخلاقيا عن أعمالك جميعها ، من ألفها إلى يائها ، مسئول لا أمام القضاء في دور المحاكم ، بل أمام ضميرك ،

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٠ .

(٢) لافوازيه : الحكمة الأخلاقية ، صـ ٢١ ، ترجمة أمل المراكبي .

(٣) ذكرته في مرة سابقة لبيان كيف يعرض بضاعته الأخلاقية في طريقة ومنهج جدير بالإحترام ، ثم ذكرته هنا لأدلل على أنه كان قد خطط لهذا الهدف منذ فترة بعيدة ، ومن ثم فعرضه لموضوع علم الأخلاق إنما يتم بطريقة منهجية وفنية معا .

(٤) وكان وابصة رضى الله عنه يسأل عن الشر مخافة الوقوع فيه ، وهذا يظهر أن سلطان الضمير متى تمكن من المرء قاده إلى الخير في أعلى صوره .

(٥) مخالفة الإرادة قد لا تكون بحاجة إلى القدرة على المخالفة ، لأن الإرادة فعل داخلي يمكن أن تظهر آثاره الخارجية ، ويمكن أن لا تظهر ، ومن ثم ، فالمعيار هو الإرادة الحرة في كل من الموافقة والمخالفة .

وفي قرارة نفسك ، لكن متى تكون مسئولا ؟ إنك تكون مسئولا ما دمت حرا مختارا ، ومن ثم فموضوع علم الأخلاق ، هو الأفعال الإنسانية الإختيارية [١] .

على أن الأفعال الإنسانية الإرادية قد تتعلق بالخير وما هو قائم في الفضائل ، حينئذ يكون الموضوع الأساسي هو الفضائل والخيرات ، وقد يحدث أن تلتزم الشرور والآثام ، حينئذ يكون الطريق الأساسي هو الرذائل ، ولا بد من إكتساب الفضائل والتحلي بها ، بعد معرفة الرذائل والتخلي عنها ، ومن هنا يظهر أن موضوع علم الأخلاق فيه جانب فطري وجداني ، وآخر يقوم على الإكتساب الذي يجب أن يكون المرء فيه مسئولا عن كل ما يصدر عنه ، وأن تتم عملية محاسبته ، ثم يأتي بعد ذلك الثواب فضلا، أو العقاب عدلا .

ويذهب الدكتور محمود مزروعة إلى أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال من حيث صلاحيتها للحكم عليها بالخير والشر [٢] ، فما هي الأعمال التي تصلح لأن نحكم عليها بهذا أو بذاك ؟ ، لو تصورنا حيوانا وطيء طفلا فقتله ، أو نطح ثور رجلا فبقره ، أو إفترس أسد إنسانا ، أكله ،لأسرع إلينا الإحساس بأن هذه الأعمال كلها شر .

و لكننا إذا تروينا في الحكم ، وأخذنا في الإعتبار أن الحيوان مجرد عن العقل والإدراك ، وأنه قاصر عن إدراك ما يترتب على فعله هذا من آثار سيئة ، لرجعنا إلى أنفسنا وأدركنا أن هذه الأفعال لا يمكن أن توصف بالشر ، لأن ذلك الوصف لا يلحق الفعل لذاته ، وإنما بالنظر إلى فاعله [٣] .

ثم يقول ، ومادام فاعله قاصرا عن فهم معنى الخير والشر ، فلا معنى إذن لوصف الفعل بالشر ، ومثل الحيوان في هذا ما تقوم به الطبيعة الصماء والحشرات ، وفاقدوا الإدراك والتميز من بني الإنسان ، فكل هؤلاء لا تندرج أعمالهم تحت علم الأخلاق ، ولا تدخل في نطاق موضوعه ، لأنها لا تصلح لأن يحكم عليها بالخير والشر [٤] .

صحيح ، تعلق أمر الحكم على الفعل بالخير أو الشر ، بكون الفاعل مدركا أثار ما يقوم به من عدمه ، لكن ماذا عن القصد والنية [٥] ، أليس هو الآخر مما تتحدد به المسئولية ، ويقع من خلاله أمر

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٠ / ٢١ .
(٢) إذن المعيار هو صلاحية هذه الأعمال للحكم عليها بالخير أو الشر ، فإذا لم تصلح لأي منهما ، فإنها لا تكون داخلة في نطاق ، أو جزئيات ، موضوع علم الأخلاق .
(٣) فكرة ذم الأفعال بالنسبة لفاعلها نالت معالجة كثيرة في القضايا الكلامية داخل مباحث الحسن والقبح ، وداخل نطاق الأفعال الإنسانية ، راجع كتابنا : حبو الوليد في علم التوحيد ، لترى صورة هذه المعالجة البسيطة بالنسبة لنا ، وكتابنا : تأملات غزالية في القضايا الكلامية .
(٤) الدكتور محمود محمد مزروعة ، دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٤ / ١٥ .
(٥) مسألة القصد تمثل أمرا مهما في الفكر الإنساني عندما يتم التحاكم فيه إلى الشريعة الإلهية ، لأن القصد يأتي من خلال عقد القلب على الفعل أو الترك ، والله تعالى يقول ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة الآية ٢٢٥ .

الثواب إن كان خيرا ، أمر العقاب أن كان شرا ، أم أن الإدراك هو ذاته القصد والنية ، مع أن والفرق بينهما يحتاج إلى تمييز .

كما أن الآيات القرآنية جعلت الأمر المقصود هو محل الثواب ، أو العقاب ، أما أن يقع بدون قصد إلى النتائج المترتبة ، فهو داخل في نطاق قوله تعالى﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

على أن فكرة كل من الأستاذ منصور رجب والدكتور مزروعة ، مأخذهما واحد ، ومنهجهما يقوم على النظر في الصادر عن الإنسان ، باعتبار وصفه بالخير أو الشر ، بجانب مسئوليته عنه (٢) ، فمتى صدر عنه ذلك الفعل مدركا له ، واقعا بإرادته الحرة واختياره الكامل ، فإن ذلك وحده هو الذي يكون موضوع علم الأخلاق ، أما إذا كان الفعل غير مراد منه، أو غير مدرك بآثاره ، أو بعيدا عن قصده واختياره ، فإنه لا يدخل في نطاق موضوع علم الأخلاق لفقدانه لشروط الأساسية .

أخلص مما سلف إلى أن تحديد موضوع علم الأخلاق يمثل مشكلة بحثية متى أراد باحث الوقوف علي هذه المسألة من الناحية الدقيقة ، أما إذا اكتفى بما ذكره السابقون ، أو اقتنع بجهود الآخرين ، فقد كفاه ، لكن ستظل في وجدانه منطقة تدعوه منها إقترابا ، ولسان حالها يعاتبه وتيستفتيه :

| | | |
|---|---|---|
| يقول الناس أنك خنت عهدي | .·. | ولم تحفظ هواي ولم تصني |
| أجبني إذ سألتك هل صحيح | .·. | حديث الناس خنت أم لم تخن |
| وبي مما يساورني كثير | .·. | من الشجن المورق لا تدعني |
| على إني أغالط فيك سمعي | .·. | وتبصر فيك غير الشك عيني |
| وما أنا بالمصدق فيك قولا | .·. | ولكني شقيت بحسن ظني (٣) |

أما أنا فذاهب إلى أن موضوع علم الأخلاق هو الأفعال الإنسانية الإرادية ، بإعتبار ما يترتب عليها ، لأن الأفعال الإرادية منها ما يكون على محبة الله تعالى ، فيكون ممثلا لعماد الأخلاق لا لموضوعها وحدة ، ففي الحديث القدسي يقول رب العزة جل شأنه وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبنه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصره (٤) ، وحينئذ يكون الفعل خيسرا ،و ينال الجزاء الأوفى عليه .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٧ .

(٢) راجع للأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٠ / ٢١ .

(٣) راجع للشاعر الكبير الأمير عبد الله الفيصل ، ثورة الشك .

(٤) الحديث فيه تفاصيل كثيرة تؤكد عليها كل قاعدة عامة ، وهي أن العمل الإرادي الذي يقوم به الإنسان على ناحية مشروعة يكون مقبولا عند الله تعالى .

كما أن الفعل الإرادي يرتبط بالمترتب عليه في الثواب والعقاب ، وبناء عليه تكون قاعدة الخير والشر متضمنة في الثواب والعقاب ، بدليل مجيء الأمرين - الفعل والمترتب - في الآية الواحدة ، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [١] ، وإذا اتخذ الفعل صورة العمل الإرادي من حيث توفر فيه كل من الإرادة الحرة ، والقصد مع النية ، كان موضوعا لعلم الأخلاق ، وتحمل صاحبه المسئولية الأخلاقية التي يترتب عليها كل من الإلزام والجزاء الأخلاقي أيضا .

## ثالثا : علاقة الفعل الإنساني بموضوع علم الأخلاق

ما دمنا قد عرفنا أن موضوع علم الأخلاق هو الأفعال الإنسانية الإرادية الإختيارية [٢] ، بإعتبار المرتب عليها ، فأيها الذي يكون هو المنطبق عليه هذا الوصف ، أو أيها الذي يسوغ لنا وصفه بأنه الداخل في نطاق موضوع علم الأخلاق دخولا أوليا ، و أساسيا أو أصليا ، هذا يقتضي منا تقديم نبذه عن أنواع الفعل الإنساني على وجه العموم .

### الأول : الأفعال الإرادية الكاملة

ونعني بها تلك التي تصدر عن الإنسان الواعي بإرادته الحرة التي لم يقع عليه ضغط فيها أو إكراه عليها ، وتم تنفيذ ذلك من غير دفع عليه ، أو معارضه عنه ، لإن صاحبه قام به كما يقوم الملك في شئون مملكته ، لا مانع ، ولا دافع عليه [٣] ، فالذي يكتب بالقلم الحبر ويترك الرصاص ، أو الحبر الجاف بدل غيره ، والذي يذهب لمسكين حتى يربت على كتفه ، ويمسح رأسه ، والذي يذهب للمسجد فيصلي تحية المسجد[٤] ، ثم يعتكف كل هؤلاء أفعالهم إرادية كاملة ،لم يتدخل أحد فيها، لا ابتداء ، ولا إتماما لها ، ولا منعا عنها .

بل أننا غالبا نمارس الأفعال الإرادية الكاملة بإرادتنا الحرة ، وقدرتنا المستمدة من إعانة الله تعالى [٥] ، دون أن يشعر أحدنا أنه يجبر على شيء منها ، أو أنه مندفع إليها ، وبالتالي ، ففكرة الأفعال الإرادية الكاملة بعيدة تماما عن الجبرية والإكراه ، وما كان من هذا القبيل ، فنحن نأكل ونشرب ، متى

---

(١) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ / ٨ .
(٢) هذه القيود – الإرادية الإختيارية ، أراها ضرورية لأنها في ذات الوقت معبرة عن الفكرة القائمة في النفس من كون الأفعال الإنسانية الإرادية هي ذاتها موضوع علم الأخلاق.
(٣) فكرتا الدفع والمنع يمكن أن تكونا في الأفعال الإضطرارية ، ولذلك نبهت على أنها لا تكون داخلة في نطاق الموضوع المطروح ، داخل موضوع علم الأخلاق .
(٤) تحية المسجد سنة ، إلا المسجد الحرام ، فإن تحيته الطواف بالبيت الحرام ، وهي من خصائص هذا البيت ، شرفنا الله بالصلاة فيه ، وأكرمنا بالحج إليه .
(٥) لأننا نرى أن العبد يقوم بأفعاله الإختيارية بإعانة الله تعالى له ، ومن ثم فإنه جل شأنه يحاسبه عليها ،لا لكونها جارية له ، أو عليه ، وإنما بإعتباره الذي أعانه الله تعالى إليها .

رأينا من أنفسنا رغبة في ذلك ، ومع هذا نختار نوع المأكول وطريقته ، مادامت لنا إرادة كاملة ، وإختيار مطلق .

كما أننا نفكر في موضوعات نجد من أنفسنا رغبة لمعرفتها ،حتى وإن لم تكن ملحة[١] ، حيث نسعى لمعرفة الأخبار المحيطة بها ، ونحاول بذل المجهود حتى نظفر بما هو قائم في صدورنا من خلال حرية التفكير[٢]، ثم نعمل على إخراج ذلك الذي وقع لنا التفكير فيه من خلال لغة معبرة ، أو إشارة مفهمة ، وهو ما يعرف بإسم حرية التعبير ، إذن هذه المسائل داخلة في نطاق الأفعال الإرادية الكاملة .

يقول الدكتور مزروعة أن العمل الإرادي هو ذلك العمل الذي يصدر عن الإنسان بإرادته وإختياره ، دون أن يكرهه عليه أحد ، وذلك كالطالب الذي يذاكر دروسه فينجح ، والآخر الذي يهمل في المذاكرة فيرسب ، فهذا مسئول عن نجاحه ، وذاك مسئول عن رسوبه ، فهذا يوصف علمه بأنه خير ، والآخر يوصف عمله بأنه شر ، وقد لحق هذا الوصف أو ذاك عمل كل واحد منهما ، بناء على أنه عمل إرادي حرا[٣] .

وهذا المثال في جانبه الأول يمثل الإرادة الكاملة والإختيار الأمثل ، لأن الطالب عندما يلتحق بالدراسة يكون مطاردا بعدة قيود . ومن ثم فهو مضطر للمذاكرة ، حتى يفك أسره من بعض هذه القيود ، أو جميعها [٤] ، أما الذي رسب ، فقد لا يقصد الفشل ، ولكنه وقع فيه ، وقد يكون رسوب لأمر خارج عن إرادته ، حيث يكون على سبيل الأمثال ، ومسألة النجاح في الإمتحان تعتمد أساسا على التوفيق الإلهي ، ثم يأتي بعده مجهود العبد .

وقد ضرب الإمام الغزالي مثالا للفعل الإرادي الكامل ، بمن وضع بين يديه قدحان من الماء تساويا في كل شيء حتى في المسافة التي يمكن ليده أن تقطعها ، ثم مال إلى أحدها فإختاره ، فأن هذا الإختيار قائم على الإرادة الحرة ، لا على الحاجة الملحة [٥] .

---

(١) لأن الأفكار الملحة قد تخرج بنا عن الإختيار في الفعل وإرادته ، وهي مسألة تفترق كثيرا عن الأفكار غير الملحة ، لأنها إرادية كاملة .

(٢) حرية التفكير أحد الحقوق التي منحها الله تعالى لنبي لبشر ، ومن ثم فلا يمكن لأحد أن يتسلط عليها أو يمنع صاحبها من القيام بها ، أما حرية التعبير فهي من الحقوق المشتركة بين الإنسان الذي سيعبر والمجتمع الذي يسمع ، ومن ثم فلا بد من حدود تنضبط بها ولا تخرج عنها .

(٣) الدكتور محمود محمد مزروعة ، دارسات في علم الأخلاق ، صـ ١٦ .

(٤) والواقع يشهد بهذا الإستنتاج ، بدليل أن الكثيرين من الطلاب قد تحدث لهم شكاوى عديدة قبل الإمتحان بأيام قلائل، كالصداع والزغللة في العين ، ورعشة اليدين ، وبرودة الأطراف ، وكلها أعراض سيكوسوماتية ، لأن الفحصالطبي الدقيق لصاحبها يكشف عن وجود قلق يسيطر على هذا الإنسان قبل الإمتحان .

(٥) راجع كتابنا : حصاء الإقتصاد ، جـ ١ ، صـ ١٩٨ ، لأن هذا المثال واضح الدلالة في مؤلفات الإمام الغزالي رحمه الله .

ويمكن أيضا النظر إلى هذا الجانب بمثال من خرج من داره ، قاصدا المسجد الذي يصلي فيه ، فكل الطرق تؤدي إليه ، وكلها على نفس المسافة ، ولا يفترق واحد منها عن غيره بفضيلة أو ميزة ، ثم أختار أحدها وسار فيه ، فإنه يكون مسئولا عن هذا المسير ، ويصير فعله واقعا بإرادته الحرة ، وإختياره ، بل قد توفر مع ذلك كل من النية والقصد •

وهذا النوع من الفعل الإنساني ، هو موضوع علم الأخلاق ، لأنه يصدر فيه بإرادته الحرة ، ويمارسه بإختياره القائم ، ويوصف بالأحكام الخلقية [١] ، ثم يتحمل مسئولياته ، بحيث لا يكون هناك مناص في الهروب منها أو التخلي عنها •

**النوع الثاني : الفعل اللاإرادي الكامل**

وهي تلك التي تجري داخل الإنسان من غير أرادة لها و فهو لا يستطيع لها دفعا ، ولا يتمكن منها منعا ، بل أنه في كثير من الأحيان يكون هو الميدان الذي تجري فيه هذه الأفعال ، كحركات القلب والرئتين، والأوعية الدموية ، وأجهزة الإفراز ، ونبض الدم [٢] ، فهذه أعمال آلية لا دخل لإرادة الإنسان فيها ، ولا تفكيره يستطيع التعلق بها ، وبالتالي فلا يكون مسئولا عنها •

صحيح أن هذه الأفعال يمكن وصفها بأنها إنسانية ، لكونها جارية على الإنسان نفسه ، وصادرة عن ذاته ، لكنها غير خاضعة لإختياره ، ولا قائمة في إرادته وقصده ، بل ولا مكان فيها للهم أو العزم والنية ، إنه ليس حرا لا في القيام بها ، ولا في الإمتناع عنها [٣] ، كحركة الهضم داخل المعدة ، ماذا يفعل لها ذلك المسكين ، الذي يتلوى من الجوع أو الشبع ، لكنه لا يملك سلطانا على حركة هذه المعدة ، ومن ثم فكل ما لا يكون المرء حرا في فعله ، أو تركه ، فلا يمكن الحكم علي ذلك الفعل بالخير أو الشر ، ولا يدخل في نطاق الأفعال التي هي موضوع علم الأخلاق [٤] •

يقول الدكتور مزروعة ومادام المرء ليس حرا في فعلها ، فليس مسئولا عنها، وبذلك تخرج هذه الأفعال عن موضوع علم الأخلاق ، لأنه لا يجوز أن تحكم عليها بالخيرية أو بالشرية ، فلا يجوز أن تقول

---

(١) من الأحكام الخلقية : الحسن والقبح ، الخير والشر ، والفضائل والرذائل ، وبالتالي فإذا خلا الفعل الصادر عن العبد من الحرية والإرادة والإختيار بجانب القصد ، فلا يمكن وصفه بشيء من الأحكام الخلقية من حيث يوصف به الفاعل ، فمع أن الفعل في حد ذاته يوصف بالخير أو الشر ، ويوصف بالحسن والقبح ، إلى غير ذلك ، إلا أن الفاعل يظل بعيدا عن ميدان هذه الأحكام نظرا لأن الفاعل وقع فيهل من غير إرادة منه أو إختيار له ، أو قصد لإيقاعه •

(٢) الأستاذ منصور علي رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢١ •

(٣) هذه العمليات تجري على الإنسان ، وربما تجري بداخله ، أو يقوم بها هو نفسه ، لكنه في كل الحالات غير مريد لها ، ولا فاعل بالإختيار ، فضلا عن كونه قاصدا لها ، إذ القصد شرط من شروط صحة الحكم على الفاعل ، وأن لم يكن شرطا لصحة الفعل ، ومع هذا يمكن الحكم على الفعل بعد إستثناء الفاعل •

(٤) وبهذا يتحرر موضوع علم الأخلاق من القيود المحيطة به، أو التي تقيد حركة التعامل معه•

على سبيل المثال أن فلانا من الناس خير لأن قلبه ينبض نبضا ضعيفا أو منتظما ، أو لأن معدته تهضم الطعام جيدا ، كما لا يجوز أن تقول أن فلانا شرير ، لأن قلبه ينبض نبضا ضعيفا ، ولأن معدته سيئة الهضم ، وذلك لأنه لا دخل لإرادة الإنسان في ذلك كله •

يتضح من ذلك أنه ليس كل عمل الإنسان يصلح لأن يكون موضوعا لعلم الأخلاق ، وأن العمل الذي يصدر عن الإنسان حين يكون مضطرا فيه لا يدخل تحت موضوع علم الأخلاق • ، وكل عمله باشره الإنسان ، أو جرى عليه لا يمكن الحكم على الفاعل بالخيرية أو الشرية ، كما لا يكون متحملا المسئولية مادام ذلك بعيدا عن إرادته الحرة ، واختياره التام ، وقصده الترتيبي ، ونيته المؤثرة ، وهذا في حد ذاته يضع حدودا دقيقة ، ويضمن إخلاء طرف الإنسان مما لا دخل له فيه ، مع أن قدرته هي التي تباشر الفعل ، أو يتم بها ، لأن عمل الأخلاق يجري في كل ما وقع بالإرادة الحرة والنية مع القصد ، ولا عمل له في كل ما هو واقع بالقدرة الإنسانية ، فهذا ميدان آخر ، وله أحكام أخرى •

### الثالث : الفعل المنعكس

وهو الذي تجري على الإنسان عن قوة تحول الآثار الواردة عليه إلى الآثار الصادرة عنه ، من غير أن يكون للمخ دخل في شيء منها[1] ، وهي كثيرة منها رمش العين حين تأثرها فجأة بقوة شديدة ، ومنها فزع الإنسان عند سماعه صوتا فجائيا ، ومنها سرعة انقباض الأيدي عند ملامستها جسما ساخنا[2] ، إلى غير ما هنالك من هذه الأعمال ، والنخاع الشوكي والمستطيل كلاهما مركز لتلك الأعمال المنعكسة الكثيرة التي تصدر عنا في كل لحظة من لحظات اليقظة والنوم ، ونحن عنها غافلون[3] .

مما لا شك فيه ، أن الأفعال المنعكسة ليست إرادية ، إنما هي صورة الآثار تنجم عن أسباب غير قصدية ، وبالتالي فلا تدخل في نطاق موضوع علم الأخلاق ، لأنه ليس فعلا إختياريا ، ولا يقع بالإرادة ، صحيح يتم ذلك في حال اليقظة الكاملة ، لكن لا توجد سوى إرادة النزوع الوجدانية[4].

على أساس أن الهرب من مثل هذه المواقف المفاجئة لا تكون الوسيلة هي الهدف ، ولا الغاية ، بل ولا تدخل في نطاق الأسباب أو الوسائل القصدية ، إنه يتصرف لا إراديا ، كل ما في الأمر أن قدرته هي التي قفزت به إلى هذه النتائج •

---

(١) لأنها تمثل الفعل ورد الفعل ، فإن من فوجئ بشعاع يتجه نحو بصره، يعجز عن مقاومته، أو مقابلته، فإنه يجد نفسه مضطرا إلى التعامل الداخلي، فتصدر عنه حركات رد أفعال لا إرادية •

(٢) لأن هذا اللمس يمثل تيارا أشبه بالتيارات الكهربائية العادية ، لكنه أقل تأثيرا ، ولا خطر له ، وهو ما يعرف بكهرباء الجسم العادي ، الذي يتمكن منه عن طريق كهرباء المخ •

(٣) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢١ •

(٤) إرادة النزوع الوجدانية ، ظهرت دراسات عديدة حولها في علم النفس ، كما ظهرت دراسات أيضا بشأنها في الطب النفسي وعلم السلوك ، وعلم الأخلاق ، ومن ثم ، يمكن تقديم دراسة جامعية بشأنها في هذه العلوم على سبيل المقارنة •

ثم أن الأفعال المنعكسة لا تدخل في إطار المسئولية الأخلاقية ، أما لماذا ، فلأن هناك ثلاثة أفكار ، كل منها تأتي مع الأخريات لا تنفصل عنها ، هي فكرة الإلزام ، وفكرة المسئولية، ثم تأتي بعد ذلك فكرة الجزاء .

يقول الدكتور دراز الواقع أن هذه الأفكار الثلاثة يأخذ بعضها بحجز بعض ، ولا تقبل الإنفصام ، فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الأخريات على أثرها ، وإذا اختفت ذهبتا على التوازي في أعقابها ، فالإلزام بلا مسئولية يعني القول بوجود الزام بلا فرد ملزم ، وليس بأقل استحالة من ذلك أن نفترض كائنا ملزما ومسئولا ، بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في جزاء مناسب ، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها[1] .

فإذا نظرنا إلى الأفعال المنعكسة ، أو الأفعال اللاإرادية ، تبين إنعدام المسئولية ، أما لماذا ، فلأن المسئولية تعبر عن علاقة قائمة بين الفاعل ، وهو الإنسان أو الفرد المسئول ، وبين الفعل الصادر عنه [2] ، من ناحية أنه حق ثابت ، إذ المسئولية من حيث هي استعداد فطري مطروح من قبل الفرد ، يقود إلى إعلان قدرته على إلزام نفسه بما يلتزم به ، والوفاء بما تم الإلتزام عليه [3] .

فإذا تم رصد حركة كل من الفعل اللاإرادي والمنعكس لم توجد فرصة لإثبات صورة المسئولية ، ومن هنا فلا تكون تلك الأفعال داخلة في نطاق موضوع علم الأخلاق أبدا، نظرا لإنعدام المسئولية عنها ، والمحاسبة عليها .

**الرابع : الفعل شبه الإرادي**

وهو الذي يصدر عن الإنسان ، فيكون إرادي المقدمات والوسائل ، لكنه إضطراري الخواتم والنتائج ، فهذا الفعل إرادي من حيث المقدمات التي سعى إليها واختارها ، وحاول تقديم تبررات عديدة لهذا الإختيار ، وترجيح ذات الإرادة [4] ، ولو طلبت منه تعليل الإختيار لوجد العديد من المبررات التي

---

(١) الدكتور محمد عبد الله درزار : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٣٦ ، ط. مؤسسة الرسالة الثالثة ، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٢) هذه العلاقة كاشفة عن حق هذا الفرد في التعبير عن قدراته وملكاته ، ثم رغبته في ممارسة هذا الفعل من عدمه، ومن ثم ، فالتبرير فيها موجود ، والغاية فيه إرتباطية قصدية ، وبالتالي ، فكل فعل تجري فيه المسئولية ، ثم المحاسبة عليه ، ، فإنه يوصف بالخير أو الشر ، كما يوصف بالحسن أو القبيح .

(٣) فالمسئولية ليست ألفاظا ينطق بها أو عبارات يتم ضبطها، ولا جمل ومقدمات يمكن تدبيجها أنها شهادة بأن صاحبها قادر على الوفاء بالالتزامات التي تفترض عليه بشأنها .

(٤) ولذلك ، فهذا الفعل له صورتان ، أحدهما شبه الإرادي من ناحية المقدمات ، أو الغايات ، وشبه الإضطراري من ناحية الخواتم أو النتائج ، أو النهايات ، ومن حيث تم التعامل معه ،يجب أن يوضع في الحسبان الجهة التي يراد بحثه عليها والحكم عليها من خلاله .

يمكنه أن يسوقها في صور عديدة ، وما ذلك إلا لأنها تمكنت منه ، ونالت المزيد من عنايته ، ثم هو فعل إضطراري بإعتبار المترتب عليه ، ولذلك يسمى في الفقه الإسلامي بإسم الفعل شبه العمد ، من حيث أنه قصد الفعل ، ولم يقصد النتائج ، كمن رمى السهم ليصطاد طائرا رصده في عشه فوق نخلة قريبة ، لكن السهم وقع على طفل صغير بريء فقتله [١].

ومن قاد سيارة وهو متمكن من قيادتها ، وكان متيقظا إلى أبعد درجة ، وفجأة إنحرف بها عن الطريق ليتفادى حادثة بذاتها من غير أن يقع لها حسبان عنده ، فإنقلبت السيارة ومات من بها ، وصارت كارثة .

من ثم ، فكل من الرامي وقائد السيارة لم يقصد النهاية التي وقعت ، وألا كان كل منهما متعمدا ، ومع هذا ، فإنهما يحاسبان الأول على إهماله [٢] ، والثاني على مخالفته القواعد المعمول بها بالنسبة لآداب وتعليمات المرور [٣] .

يقول الدكتور مزروعة ، العمل شبه الإرادي ، هو عمل إرادي المقدمات ، إضطراري النتائج ، وهذا النوع يدخل في موضوع علم الأخلاق ، لأن نتائجه ، وإن كانت إضطرارية ، إلا أن الإنسان كان مختارا في مقدمات الفعل ، ولذا ، فهو مسئول عن نتائجه [٤] ، وهذه المسئولية هي التي تجعل هذا النوع من الأفعال داخلا في نطاق علم الأخلاق ، لأن المسئولية إلتزام أخلاقي ، كما هي إلتزام شرعي وقانوني أيضا.

ويضرب الدكتور مزروعة مثالين لذلك ، الفعل شبه الإرادي ، منهما ، رجل نام بجوار طفل فإنقلب الرجل على الطفل أثناء نومه فقتله [٥] ، فإنقلاب الرجل أثناء النوم خارج عن إرادته ، ولكنه يحاسب عليه ، لأن مقدمات الفعل ، وهو النوم بجوار الطفل ، كان مرادا منه ، فكان يستطيع أن يمنعه ابتداء ، ولكنه لما نام بجوار الطفل بإرادته ، مع علمه بأنه ربما انقلب عليه فقتله ، فلقد كان مسئولا عن نتائج هذه المقدمات [٦] .

---

(١) لمعرفة المزيد ، راجع في هذا الشأن كتب الفقه المذهبية في كتاب الجنايات ، حيث يظهر ذلك بوضوح عند الحديث عن القتل العمد والخطأ وشبه العمد .

(٢) الإهمال هنا قائم في صورة أن يكون إختيار الهدف قد تم بعيدا عن آية إعتبارات أخرى ، وهذه الإعتبارات هي بمثابة الضوابط التي لا بد من الإلتزام بها في جميع الأحوال والتخلي عنها كلها ، أو بعضها ، يترتب عليه وجود إهمال تتم محاسبة العبد عليه .

(٣) قانون آداب المرور وإلزام قائد المركبة مراعاة ظروف الطريق ، والسرعة ، واحتمال خطأ الغير وتحمل المسئولية الناتجة عن الخطأ ، حتى ولو كان مشتركا ، راجع قانون المرور في المسألة .

(٤) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٦ .

(٥) حركة المرء أثناء النوم لا دخل له فيها ، لأنها تحدث بغير إرادة منه ، ولا قصد ، بدليل أنه قد تنكشف عورته وهو لا يريد ذلك ، ومن ثم ، فإن التوجهات الإلهية تأمر بضرورة بمراعاة ظروف النائم ، وجاء ذلك في باب الاستئذان ، كما جاء في الأثر النوم والأكل عورتان فاستروهما .

(٦) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٦ .

لكن ، هذا المثال على ظاهرة لا يصلح في تصوير الفعل شبه الإرادي ، لأن النائم يرفع عنه التكليف ، والأحداث التي تتم أثناء النوم ، ومهما كانت صوره فلا يحاسب المرء عليها ، مادام هذا النوم في المجال الطبيعي ، الذي تضطر القوى الإدراكية في الإنسان إليه ، لأن النائم في هذه الحال يكون كالميت ، من حيث التكاليف والمسئولية ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال : رفع القلم عن ثلاثة ، النائم حتى يستيقظ . والصبي حتى يبلغ ، والمجنون حتى يشفى [١] .

وكما أن النائم لا تجري عليه التكاليف أثناء النوم ، فإنه أيضا لا يحاسب عليها لإنتفاء المسئولية التي تدور حول الإلتزام ، وتجري في نطاق دائرة الإلزام ، حتى لو كان من طبيعته أثناء النوم الحركة اللاإرادية ، لأنها داخلة في نطاق ما يجري على الجوارح من غير إرادة ، فإنعدام القصد والإختيار لهذه الحركة ، بجانب عدم إرادتها ، ينفي عن الفاعل المسئولية تماما [٢] ، ومن هذا الجانب ، لا يصلح أن يكون الفعل شبه الإرادي داخلا في نطاق موضوع علم الأخلاق .

لكن تبدو صورة أخرى لهذا الفعل شبه الإرادي ، تقع عليه مسئولية الإنسان متى كان ذلك الفعل مرادا ، وصاحبه على يقين من وقوع حركات له ، على غير ما هو معتاد منه القيام في حالة اليقظة ، وقد تأكد ذلك بالتجارب التي تمت معه ، و كمن يمشي وهو نائم ، فتراه يتحرك في غرفة النوم واقفا ، على قدميه ، يحاول فتح باب الغرفة للخروج منها ، فلا هو نائم في فراشه نوما كاملا ، ولا هو مدرك حقيقة أمره إدراكا كاملا [٣] ، وهو في كل أحواله على يقين مما يجري له .

وبالتالي ، فقد كان عليه أن يحتاط لهذا الأمر ، بأن يبعد الطفل عن موضع نومه ، فمسئولية واقعة في نطاق عدم الإحتياط فقط ، أما إذا وقع منه الإحتياط بالشكل الكافي ، ومع ذلك حدث منه فعل جاءت نتائجه على غير مراده ،فإنه لا يكون مسئولا عنها ، ولا تدخل في نطاق موضوع علم الأخلاق ، مهما كانت صورتها ، وإلا كنا نحمله ما لم يأمر به الشرع الشريف ، ونلزمه بما يلزمه به الله جل علاه ، والله لا يكلف الناس إلا ما يطيقونه .

ومسئولية العبد عن هذا الفعل ، من وجهة نظر الدكتور مزروعة ، في عدم احتياطه لا في الفعل ذاته ، وهي وجهة نظر لها إحترامها ، لأنها جاءت على جانب هام فيه إلزام كل فرد ، بأن يأخذ

---

(١) الحديث له روايات عديدة ، وكلها صحيحة في كافة النواحي .

(٢) راجع للدكتور محمد إسماعيل : المسئولية والجزاء في القانون مع دراسة تطبيقية على الجوانب الشرعية ، صـ ٢٥٧ / ٢٥٩ .

(٣) ظاهرة المشي أثناء النوم ، أو في غرفة النوم ، حالة مرضية ، تعبر عن وجود نوع من الإضطراب الهرموني ، كما تمثل صورة من خلل إدراكي في الجانب المخي الذي يفرز مادة الأندرفين ، وهي ليست ظاهرة في كثير من الناس إلا من خلال التجارب .

الأمور التي يتناولها مأخذ الجد والعناية ، والإهتمام البالغ ، حتى لا يقع التسيب المرتبط بالفساد ، وهو إتجاه عقلي يقترب كثيرا مما هو قائم في الفكر الإعتزالي من حيث الصورة ، لكنه ما ترديدي باعتبار الحقيقة .

إذ يرى المعتزلة أن المسئولية عن الفعل إنما هي في الناتج عنه ، بإعتبار أن المقدمات مرادة ، أو واقعة منه يقول القاضي عبد الجبار ، إنما ذممناه على مقدمات ذلك ، ألا ترى أن من وضع صبيا تحت برد فيموت ، فإن ذمنا إياه ليس على الإماتة ، وإنما هو على إلقائه ، أو وضعه تحت البرد [١] .

في نفس الوقت ، فإن صورة الفعل التي تدخل في موضوع علم الأخلاق عند ابن باجة الأندلسي لا تتعدى الفعل الإرادي الذي يطلق عليه اسم الفعل الإنساني ، إذ يقسم ابن باجة الأندلسي الأفعال التي تصدر عن الإنسان إلى ثلاثة :

١ - الأفعال البهيمية ، وهي التي تصدر منه بدافع الغريزة ،من غير فكر ولا رؤية ، كما لا تهدف إلى غاية سليمة[٢] ، كمن يكسر عودا خدشه ، أو حجرا عثر به ، أو يردم بئرا سقط فيه ، فهذه أعمال لا غاية من ورائها ، ولا قيمة لها ، وليست مقصودة بذاتها ، وتشبه فعل الطفل والبهائم ، ولذا سماها أفعالا بهيمية .

٢ - الأفعال الإنسانية ، وهي التي يقصد منها غرض وغاية ، وتقع منه بعد تفكير وروية ، كمن يكسر عودا حتى لا يخدش غيره ، أو حجرا حتى لا يعثر المارون به، أو يردم بئرا نظرا للإكتفاء بغيرها [٣] ، حتى لا يقع الأطفال والعميان وذوو العقول القاصرة ، فيقع لهم الغرق فيها .

٣ - الأفعال الإلهية ، وهي التي يمارسها الإنسان لأجل الصواب الحق ، وتجيء معها الحكمة التامة والعقل الرشيد ، لأنها تتم بعد دراسة متأنية ، ويقوم بها المرء حتى تكتمل قواه العقلية ، وهي أسمى أعمال الإنسان ،و هو بها يصير إلهيا ،ويبلغ السعادة الأزلية ، بل يصير عقلا خالصا ، ونورا لا علاقة له بعالم الأجسام ،و هذه هي الغاية العظمى للمتوحد [٤] ، غير بعيد القول بأن ما يجب الإنتهاء إليه هو :

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد الحمداني : شرح الأصول الخمسة ، صـ ٣٣٣ .

(٢) أبو بكر ابن باجة : تدبير المتوحد ، صـ ٧ ، من الأصل ، وراجع كتابنا : ابن باجة ومذهبه في الأخلاق صـ ١٩٥ .

(٣) يلاحظ أن الغرض والغاية مرتبطان بهذا النوع من الأفعال الإنسانية ارتباطا شرطيا ، كما يجيء معهما التفكير الدقيق القائم على الروية ، فإذا إنعدمت هذه الجوانب لم تكن أفعالا إنسانية ، وإنما تم وضعها بغير ذلك تماما .

(٤) الأستاذ أبو بكر ذكري : تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، صـ ٣٣ ، الطبعة الثالثة ، الكليات الأزهرية ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ .

١ - وقوع الفعل الإختياري الإرادي الكامل داخل في نطاق موضوع علم الأخلاق ، وهذا مما لا نزاع فيه [١] .

٢ - عدم وقوع الفعل الإضطراري الكامل في موضوع علم الأخلاق ، وهذا أيضا لا نزاع فيه [٢] .

٣ - إن الفعل شبه الإرادي قد يقع في نطاق موضوع علم الأخلاق ، بإعتبار المقدمات ، ولا يقع بإعتبار النتائج ، وهو ما يقع النزاع فيه [٣] .

٤ - إن الفعل المنعكس ،قد يقع في نطاق موضوع علم الأخلاق ، بإعتبار النتائج ولا يقع بإعتبار المقدمات ، وهذا مما يقع فيه النزاع [٤] .

وبعد هذه الوجوه الأربعة ، يمكن لك أن تضعها في قوائم ثلاثة :

أحدها للإثبات ، وهي التي لا يكون الفعل الإنساني فيها موضوعا لعلم الأخلاق، وهي الفعل الإرادي الكامل .

ثانيها للنفي ، وهي التي لا يكون الفعل الإنساني فيها موضوعا لعلم الأخلاق ، وهي الفعل الإضطراري الكامل .

ثالثها الإثبات من جهة والنفي من جهة أخرى ، وهي الأفعال شبه الإرادية والمنعكسة ، مع وضع أمثلة تناسب كلا منها ، وأرجو ألا يكون حالي كحال من يقول

وتطل من رأسي الظنون ∴ تلومني وتشد أذني

## رابعا : تقسيمات علم الأخلاق

الذين يعتقدون في وجود علم الأخلاق ، يرون أنه ليس كتلة واحدة ، أو مادة معرفية بذاتها [٥] ، إنهم ينظرون إليه نظرة شاملة تقوم على وجود جانب نظري يتعلق بالموضوعات الدراسية

---

(١) ومن ينازع في وقوع هذا الفعل في نطاق موضوع علم الأخلاق ، فلا يلتفت أحد إليه ، لأنه كمن ينازع في وجود البديهيات ، أو ينكر إثبات الضروريات .

(٢) لأن المنازعة في هذا الفعل تعبر عن جدل سوفسطائي ، أو رغبة إنتقامية تقضي إلى تحميل الإنسان ما لا قبل له به ، وهذا ما ترفضه النظرة السليمة ، والعقول الصحيحة .

(٣) فمن أثبت وجود هذا النوع من الفعل ، وارتضى مسئولية الإنسان عنه ، أدخله في نطاق موضوع علم الأخلاق ،ومن لا يوافق عليه أبعده عنه .

(٤) هذا النوع من الفعل الإنساني عند من أعتبره اضطراريا لم يلتفت إلي القول بتكليف صاحبه ، ومن اعتبره شبه إرادي ضمه إلى موضوع علم الأخلاق .

(٥) أما الذين ينكرون وجود علم الأخلاق ، فلا ينتظر منهم أن يقدموا أدنى حديث عن وجود أقسام له ، أو تنوعات ، أو غصون وتفرعات ، فضلا عن أن تكون له فوائد أو ثمرات ، لأن إنكاره من أصله يترتب عليه عدم الإعتراف بآية أبحاث تقدم بشأنه ، ولسنا معهم .

والنظريات التي يطرحها ، بحيث تكون ممثلا له في الميدان الأخلاقي ، وآخر عملي يقوم على وضع هذه المباحث النظرية في دائرة المحك لعملي التطبيقي ·

يقول الأستاذ منصور على رجب ، العلم ينقسم إلى نظري ، وغايته الحق ، وعملي وغايته الخير ، ولما كان علم الأخلاق يبحث عن الحق ، كما يبحث في الخير ، كان له نسب إليهما معا ، فهو علم نظري حينما يبحث الحق ، وهو علم عملي حينما يوجه إلى الخير ·[١]

ولما كانت أطراف كل منها متنوعة ، فقد صارت هذه التفريعات النوعية بمثابة الأنواع التي تختزل فيها التقسيمات ، وهذا ما يستلزم بيان القسمين وأنواعهما على النحو التالي :

## الأول : علم الأخلاق النظري

وهو ذلك الجانب الذي يراد من دراسته تحصيل اعتقاد يقيني بحال الموضوعات المدروسة ، كالخير والحق والجمال ، وسائر أنواع الفضائل ، فالجانب النظري في علم الأخلاق يعني به دراسة هذه الموضوعات ،وما يتعلق بها ، ويعني كذلك بدراسة نظريات الفلاسفة الأخلاقيين وآرائهم ، والمقاييس الأخلاقية التي وضعوها [٢] .

ونظرية علم الأخلاق قائمة بإعتبار الموضوعات التي يعرضها للدراسة ، فهو يتحدث عن الضمير الإنساني ، ويؤكد أن كل إنسان له ضمير ، وأن هذا الضمير يمثل القانون الخاص الذي يحمله الإنسان في وجدانه ، إنه القاضي الشخصي ، والمرآة الكاشفة ، فإذا مارس المرء عملا ، أو فكر في شيء ما ، أو انصرف عن شيء ما[٣] ، فإن هذا القاضي الشخصي هو الذي يثبت له البراءة من الإتهامات ، أو هو الذي يقوم بتحريك الدعاوى ، ويسجل قائمة الإتهام و ثم يعلن الأدلة بأسبابها التي لا يعرفها إلا صاحبها ·

إن علم الأخلاق يحدد ما هية الضمير الإنساني ، ويؤكد أنه صوت الله القائم في كل إنسان على حده ، فإن استجاب له ، وانصاع لأوامره ، وحفظ وصاياه ، استراح ، وإن أصم أذنيه عن سماع صوته ، وتجاهل صيحات ضميره ، ولم يلتفت إلى تحذيراته ، وتجلد بالخشونة ، فلم يشعر بوخذاته ، تحول من الخير إلى الشر [٤] ، وبعد فترة يجد نفسه مضطرا للإصغاء له ، ولكن بعد فوات الأوان ·

---

(١) الأستاذ منصور على رجب: تأملات في فلسفة الأخلاق، صـ ٢٧ ·
(٢) الدكتور محمود محمد مزروعة: دراسات في علم الأخلاق، صـ ١٣ ·
(٣) هذه الوجوه الثلاثة هي التي يمكن قراءتها داخل هذا الفصل، أو ذاك، وبالتالي تتعدد الجهات في الفعل لصالح الدراسات العديدة في علم الأخلاق ·
(٤) هذه التحولات في صورة الضمير ، وليست في الضمير ذاته ، إن الضمير يكون على هيئة واحدة ، لكن الذي يستعمل الضمير ، ويتعامل معه ، أو به ، يكون هو المسئول·

إن الضمير يملك مفاتيح ذات قوى تأثيرية في سلوكيات المرء ، ويملك القدرة على إحداث تعديلات جوهرية في النظام السلوكي بما له من قوة تنفيذية ، ذات طابع خاص يلزم المرء على الرضا الجميل [١] ، إذا كان ما قدمه من عمل واقع في نطاق الخير المقبول عند الله تعالى .

ويملك كذلك تعذيب الإنسان إلى الحد الذي يجعله في غيبة وهو حاضر، إذ اعمل الشرور والآثام . لأنه يستخدم معه التأديب بعصا الندم ، ونار الكي بالحسرة [٢] ، ويقسو عليه حتى لكأن ذلك الإنسان واقع بين حجري رحى ، أو ساقط بين جناحي برزخ .

علم الأخلاق النظري يساهم في مراجعة المرء لإمكانياته ، وما يتعلق بها من قوى وملكات [٣] ، ثم يسحب هذا البساط السحري من تحت قدمية ،حين يؤكد له أن كل هذه الملكات ، وجميع هذه القوى والإمكانيات إنما هي مضافة إليه ، وهي في ذات الوقت أعراض زائلة ، عوار لا بد أن تسترد [٤] ، وقديما قيل :

ألا إنما الدنيا هبات وعوار مستردة ∴ شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

إن علم الأخلاق النظري يقود الإنسان إلى نفسه التي يسعى لها ، ومهما بذل في سبيلها ، واستجاب لنجوى المنافع ، وهمس المصالح ، وأصغى لوحي العمايات ، وإنغمس في بحار الشهوة[٥] ، فلن يملك بعد ذلك شيئا سوى اجترار الآلام ، وكفكفة دموع الندم ، ومحاولة تخفيف مياه الحزن ، التي تغلي في مراجل الشهوة ، وما تزال تغذي بنيرانها حدة الأيام ومرور الأعوام ، ثم يصرح له

وما المال والأهلون إلا ودائع ∴ ولا بد يوما من أن ترد الودائع [٦]

---

(١) طبيعة هذا الرضا لا بد أن تكون ذاتية بمعنى أنها لا تقوم على الضغط والإكراه في آية صورة من الصور ، ومهما قسا الفرد على ضميره ، واستطاع مغالبته وقتا من الزمان ، فلا يلبث هذا الموقف أن يتغير ، ويتحول الضمير إلى وضعه الذي خلقه الله تعالى عليه ، ومن هنا يثأر لنفسه ويسترد مركزه ، ويرفع أعلامه فوق سواريه معلنا إنتصاره مهما طال الزمن وتكاثرت الأسباب .

(٢) والأسباب التي يسوقها المرء على الناحية التبريرية لا تقدم جديدا في المسألة لدى الضمير .

(٣) هذه المراجعة تتم من خلال قواعد التخلية والتحلية ، ولا يمكن أن تخرج عن هذا النطاق أو يكون لها طريق آخر ، راجع كتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، صـ ١٣٧ .

(٤) راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ٥١٧ وما بعدها

(٥) بعض الناس حينما تكون بهم القوة ، ويجري معهم المال ، لا يفكرون سوى في شهوات أنفسهم ، ظانين أنهم ملكوا الدنيا بأسرها ، وبالتالي ، تضغط غرائزهم على ضمائرهم ، حتى إذا اختفى نشاط هذه القوة بكوا ندما ونزفوا دمعا ودما .

(٦) هذه الحقيقة قرينة الموت ، لا يشك فيها عاقل ، ولا يجادل بشأنها صاحب قلب مستقيم ، لأن معالمها قائمة في الأولين ، بارزة داخل نطاق من نشاهد أحوالهم ، ونعرف أخبارهم ، وتأتي إلينا أنباؤهم

علم الأخلاق النظري يحدث المرء عن هيكله الباطني ، حيث يتناوله بالدراسة من نفس ذات قوى متعددة ، وضمير له سلطان كبير ، وشهوات ذات بأس ، وغايات تسعى في داخله كدبيب النمل ، وتجري في أعماقه جريان الدم [١] في العروق ، وصراع الرغبات الكامن بقوة داخل الهيكل المرئي المشاهد الممتد به من كل ناحية ، كأنه يقول له ، ها أنت أمام نفسك ، وشخصك يواجه شخصك •

وأنت في كل الحالات إما واقع في نطاق الخير فينتظرك الإحسان ، وتظفر بالسعادة ، وإما قابع بين الشرور والآثام فتنتظر الشقاوة ، وأنت على يقين من أن ذلك أمر قائم وحكم ثابت ، وقاعدة أنتهي منذ زمن بعيد بناؤها ، ولك في النهاية ، أما العلو والزلفى ناحية الرضوان ، وإما الهبوط والتدني ، ثم السقوط في غيابة الزمان [٢].

وكما يدرس علم الأخلاق النظري قوى الإنسان بأنه كذلك يتحدث عن حاضر غائب ، إنه الإرادة الذاتية التي تتسم بالحرية في كل ما يأتي به المرء ، أو يدعه ، يملك بالحرية إختيار البذل والعطاء ، أو المنع وعدم الوفاء ، ويستطيع من خلالها الإقبال على ما يري فيه المصلحة ، وبذات المقدار يمكن أن يتوجه إلى المفسدة •

إنها إرادة لولبية تستطيع إقناع المرء بأنه مقبل على الخيرات وإن كان واقعا في الهلاك [٣] ، وتوحي إليه انه على صراط مستقيم ، حتى لو كان على شفا الجحيم يميلها عن إرادة ذات سطوة قاهرة ، أو قدرة باهرة ، في طبيعتها الإقناع والإمتاع ، ومن واجباتها الاهتداء والاستماع ، وهي فوق ذلك تملك تقرير ما يروق لها ، حتى لو كان ما تقرره بخلاف ما يمليه العقل ، ويشهد به الوجدان ، يستلهمه الضمير ، وتدعوا إليه المصلحة ، وتجيء معه المنفعة [٤] .

علم الأخلاق النظري ، يعني بالحق ، وكيفية الوقوف عليه ، من بين هذه القيم العديدة الفضائل المتنوعة ، حتى يكون متميزا عن الباطل ، ويكون للمرء حوله رأي واضح ، وليس المهم فيه التطبيق ، لأن ذلك من طبيعة علم الأخلاق العملي [٥] ، المهم أن تكون قادرا على معرفة هذه القضايا ،

---

(١) راجع كتابنا : الموسوعة الغزالية في الأفكار الصوفية ، صـ ٥٧٣ ، وما بعدها ، وكتابنا : نظرية السعادة في الفكر الإنساني ، صـ ٤٣ •

(٢) مصائر الناس لا تخرج عن هذين الإتجاهين في الدنيا ، ونفس المسألة في الآخرة ، نسأل الله تعالى السلامة في الدنيا ، والنجاة مع الشفاعة في الآخرة •

(٣) هؤلاء ممن إنطمست بصائرهم وأبصارهم ، فلا هم عرفوا الحق ، ولا التزموا به ، ولا عادوا عن الغي، وإنما عاشوا في ضلال مبين •

(٤) راجع كتابنا : أنسام حبية في الأفكار الصوفية ، صـ ١١٧، وكتابنا : السعادة في الفكر الإنساني ، جـ ١ ، صـ ٣٥٣ •

(٥) الفرق بين علم الأخلاق النظري والعملي كبير ، ويمكن الرجوع إلى هذه الفوارق بسهولة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى •

مدركا لأبعادها . بمكن لك الخوض في بحارها ، وأن تسير بقاربك بين شطآنها ، وإياك أن تغرق ، فالموجات العاتيات مقبلات ، وأطياف الهلاك غاديات رائحات .

إن علم الأخلاق النظري يعلم المرء كيف يكون أخلاقيا ، حيث يقدم هو لنفسه كشف حساب عن نفسه ، دائن أو مدين ، له أو عليه ، ومن خلال هذه المفاضلة يستطيع هذا الإنسان حسبان قيمة في شكل طبيعي . سهل المآخذ ، يسير الأداء [١] .

يقول الأستاذ منصور على رجب أنه ليهديك إلى سواء السبيل ، حيث يقول لك أن قانون الأخلاق الذي لا يحرمك من الثروة التي هي ثمرة عادية تستحقها بعملك ، والذي لا يحرمك من اللذة ، وهي حاجة طبيعية لك ، والذي لا يحرمك من السعادة التي هي رائد جميع مجهوداتك ، أنه يهديك حين يقول لك يجب عليك في بعض الأحيان أن تضحي للخير بكل هذا بالثروة وباللذة ، وبالسعادة ، بل بالحياة ذاتها . فما ينبغي أن تضيع الحياة ابتغاء لوسائل الحياة ، فالحياة عدل وكرامة ، وقيمة الكرامة أغلى من قيمة الحياة[٢] .

يقول الدكتور مزروعة فهذه الدراسة النظرية تعطي الإنسان معرفة بالموضوعات المدروسة ، وهذه المعرفة ضرورية لأنها تضيء أمامه الطريق في دروب الحياة ، وتجعله أصدق في الحكم على سلوك الناس وأعمالهم ، وأقرب إلى الصواب في تقديره لأخلاقهم ، وبواعثهم ، وأقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه وتقويمها تقويما مستقلا ، غير متأثر بعاداته ، ومألوفاته ، وما إلى ذلك كله ، إلا لأن الدراسة النظرية في الأخلاق أمدته بالمعرفة الصحيحة التي تجعله نافذ الفكر ، عميق الفهم ، صادق الحكم . فيما يتصل بموضوعات هذا العلم [٣] .

صحيح أن الدراسات النظرية متعددة إلى الحد الذي يجعلها كثيرة حتى في الموضوع الواحد . لكن هذا لا يمنع من القول ، بأن علم الأخلاق النظري ، يعبر عن صورة الفعل الإنساني في حالة من الحالات التي لا تقبل المداراة ، لأنه يعلمه أن الضمير مرآة ، والوجدان عاكس لها ، ومهما حاول أن يظهر أمام المرآة على صورة غير صحيحة ، فإن حركاته حتما تفضحه على جهة من الجهات [٤] ، أو صورة من الصور .

---

(١) وهو الواقع في نطاق القول الثابت : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم .

(٢) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٨ .

(٣) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٣ .

(٤) راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ٢٥٣ ، وكتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، صـ ١٣١ .

إن علم الأخلاق النظري يرسم قواعد للسلوك ، ثم يصوغ هذه القواعد في شكل يعتمد على التلقين ، أكثر مما يلجأ للتمرين ، وهو حين يلجأ إلى فن التلقين ، فما ذلك إلا ليؤسس علما له خواصه الذاتية ، وجزئياته البحثية [١] ، وفوق ذلك ، فهو علم يقرر موضوعات بحثية قابلة للزيادة عليها والنقصان منها ، وكيف لا وهو لم يخرج عن كينونة العلم بما ينطبق عليه اللفظ على كافة النواحي التقريرية .

كما أنه علم معياري ، يقوم في جملة من القواعد التي تم إرساؤها منذ زمن بعيد ، وتتم عليها عمليات الإضافة والتنحية ، شأن العلوم التي تدخل في الإطار النظري الخالص ، بحيث يمكن أن تجري عليها التعديلات الضرورية ، أو التي تستدعيها حاجة فصل العلوم المتقاربة عن بعض [٢] ، كالحال مع علم الأخلاق والسلوك والتصوف أيضا .

وفوق ذلك ، فعلم الأخلاق يأخذ الفرد ذاته ، حتى يوقفه على أمره من ذاته ، وفي النهاية يرسم له خريطة الفضائل التي أمكن لهذا الفرد الإنساني القيام بها ، على سبيل التحلية ، ولا يتم ذلك بدون التخلية ، وكلما تخلى عن أوجه الشرور ، فإنه يتحلى بالخيرات على أساس أن المرء العاقل يمثل مساحة مسطحه واحدة [٣] ، يأتيها الخير أو الشر ، فإذا سيطر عليها الخير تخلى عنها الشر ، وتكون عملية التحلية هي السمة البارزة ، أما إذا سيطر عليها الشر ، فإن المساحة التي تخلو تكون من نصيب الخير ، وهو معنى التخلية على النحو الذي يمكن متابعته .

ثم أن علم الأخلاق إنما هو اللغة التفسيرية ، والفكر الشارح ، لما هو قائم في السلوك ، بدليل أنه حين يفسر لك معنى الإنسان مثلا ، إنما يحدثك عن القانون الذي هو في ضميرك يناجي عقلك [٤] ، ويقول لك أن هذا القانون هو المبدأ الأسمى فوق الإنسان .

وحين يحدثك عن الإرادة الحرة التي تنفذ هذا القانون ، أو تخالفة ، فإنه يقول لك أن هذه الإرادة هي المبدأ الإنساني والتابع ، وأنه حين يحدثك عن هذين المبدأين ، ويقول لك هما مصدر علم الأخلاق ، ومفتاحه ، إنما يحدثك عن الحق [٥] .

---

(١) راجع للشيخ حسن محمد علوان ، علم السلوك وصلته بالأخلاق ، صـ ٥٤ ، المطبعة المنيرية سنة ١٣٨٥ هـ .

(٢) هذه المسائل مما تحكمه مناهج البحث العلمي ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٣١٥ ، وما بعدها .

(٣) هذا التعبير المسطح أراه مقبولا ، نظرا لكون هذا الإنسان يمثل في ذاته مساحة كبيرة بحيث تمثل مجرى الشعور الواعي ، ومن الصواب تحريك هذا الشعور في الإتجاهات البحثية السليمة .

(٤) فكرة مناجاة الضمير والوجدان من الأفكار الجيدة في المجال الأخلاقي ، لكنها لم تنل حظها من الدراسة بالقدر الكافي ولذلك أود أن ينتبه لها طلاب البحث العلمي في المجال الأدبي والصوفي والأخلاقي أيضا .

(٥) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٧ / ٢٨ .

ويعتقد جوفر ، أن علم الأخلاق النظري يمثل حلقة من حلقات البحث العلمي في الجانب السلوكي ، وأنه قد حقق العديد من النجاحات في المجال النفسي ، والسلوكي والوجداني ، وأن ذلك صار من السمات البارزة لهذا النوع من العلوم النظرية[١] ، فهو معياري من الناحية المعرفية النظرية ، وليس معياريا من الناحية التطبيقية ، نظرا لإرتباط التطبيق بكل فرد على حده ، وكل جماعة بذاتها .

كما يقرر اسبايتس أن علم الأخلاق النظري غير متسع سوى لجملة من الفضائل، إن أمكن التعامل معها على الناحية الأخلاقية تحققت منافع كثيرة ، أما إذا حاول الباحثون أن يؤسسوا هذه الجهات الموضوعية والسيادية تحت أي مسمى ، فإن الخطر يتكرر[٢] ، دون أن يكون لذلك أي فائدة أخلاقية من الناحية الفعلية .

من ثم يمكن القول بأن علم الأخلاق من العلوم النظرية التي تعتمد على المعارف العقلية ، فهو علم معرفي معياري ، ولا يمكنه تجاوز هذه الخطوط العامة إلا إذا شاء له أصحابه أن يرسموا له دورا ليس بإمكانياته التصدي له[٣] ، ولا من طبيعة موضوعاته إحتماله .

## الثاني : علم الأخلاق التطبيقي العملي

وهو العلم الذي يكشف طبيعة الأخلاق ، وكيفية ممارستها على النواحي المختلفة، إنه علم يظل مناديا بضرورة أن يعمل المرء ما فيه الخير لنفسه ، ومن حوله ، والناس أجمعين بكل ما لديه من طاقة ، وما وسعه من جهد [٤] .

ومن ثم يعرف بأنه العلم الذي يبحث في تنظيم الإنسان تصرفاته وأعماله ، وسلوكه وأخلاقه ، حتى تكون متفقة مع ما تقتضيه الفضائل ، والمعاني التي يعرضها الجانب النظري من الأخلاق ، ومن هنا ، فالجانب العملي من علم الأخلاق هو الذي يرسم الطريق الإنسان لكي يطبق سلوكه حسب ما يقتضيه الحق ، وحسب ما يحقق الخير والسعادة له ؛ ولبني جنسه .

وهذا الجانب هو الثمرة التي تجنيها طائفة الباحثين ، وغيرهم ، من دراسة علم الأخلاق فلا فائدة في دراسة الأخلاق النظرية ما لم نطبق ما عرفناه على سلوكنا وتصرفاتنا وأعمالنا[٥] ، لأن التطبيق في هذه الأحوال هو إشارة الصريحة بصحة الأفكار من عدمها .

---

(١) إدوارد جوفر : علم النفس والأخلاق من منظور علمي ، صـ ١٧٣ ، ترجمة نادر خيري سنة ١٩٩٧ .

(٢) جورج اسبايتس : علم الأخلاق في القرن العشرين ، صـ ٨١ / ٨٢ ، ترجمة هناء العربي .

(٣) يحدث ذلك في مجال الجدل السوفسطائي كثيرا ، حيث يدعي البعض أن هذا العلم أو ذاك يمكن أن تمتد موضوعاته إلى جزئيات ليست له ، ومع ذلك فهم يصرون عليه كأنها حرب يبتغون الإنتصار فيها مهما كانت النتائج .

(٤) ومن هذه الناحية ، فهو ليس علما معياريا بقدر ما هو علم سلوكي تطبيقي ، قد يتمكن منه الكثيرون ، وقد لا تتمكن منه طائفة ، كما أن الذين يطبقونه لن يكون فيهم على السواء .

(٥) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٣ ، وهذه الأفكار يمكن الوقوف عليها لدى الكثيرين بما يؤكد أن جملة الأفكار مطروحة وقابلة للأخذ بها .

يقول الأستاذ منصور على رجب أن علم الأخلاق ـ بالمعنى العام من غير تقسيم ـ علم من جهة معرفة القواعد [١] ، وفن من جهة تطبيقها ، وهي عبارة فيها الكثير من الدقة والإتقان ، فرغم وجازتها إلا أنها تؤكد وجود علاقة جامعة بين جانبي الأخلاق ، وعلاقة أخرى فاصلة بين هذين الجانبين ، ما في ذلك أدنى شك [٢] ،وبالتالي ، فعلم الأخلاق العملي هو بمثابة الجانب التطبيقي ، أو الميدان الذي تطبق فيه الأفكار التي تم تناولها في علم الأخلاق النظري .

وفي تقديري أن علم الأخلاق النظري في ميدانه ، يشبه المشروعات الدراسية في كلية الطب أو الهندسة ، أو آية دراسة من هذا القبيل ، ثم يأتي دور المشروع التخرجي ، أو الجانب العملي ، فالذي رسم العمارة أو الطائرة، إنما كان يفعل ذلك من خلال معارف ذهنية قائمة في عقله ، وهو الجانب النظري [٣] .

ثم يأتي بعد ذلك إلى تحديد مساحة الأرض التي يقيم عليها العمارة ، ويقدم رسوما عديدة لشكل هذه العمارة . حتى إذا استقر رأي أصحاب الشأن على الصورة التي يريدونها طبقا للإمكانيات المتاحة ، فإنه تأتي بعد ذلك عملية التنفيذ على أرض الواقع ، وهو ـ مع الإحتفاظ بالأصل ـ صورة الأخلاق العملية ، أو علم الأخلاق التطبيقي [٤] .

كما أن أحاد الناس قد يقرأ كتابا عن الطب مثلا ، وربما تخرج من مدارسة النظرية ، فإذا أراد ممارسة المهنة لم يوفق ، لأنه لم يجرب ذلك عمليا ،وكثير من الناس يحفظون العديد من الخطب الدينية ، حتى لكان الواحد منهم جهاز تسجيل ، لكنه لا يستطيع صعود المنبر حيث يقوم في الناس خطيبا . وما ذلك إلا لأنه لم يتم له التدريب العملي ، ولم يتدرب عليه [٥] . فكيف له القيام بشيء لم يتمكن منه ، ولم يبلغ فيه حد الإجادة والإتقان ، إن ذلك يكون بمثابة التكليف بما لا يطاق .

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٦ .

(٢) لمعرفة طبيعة هذه العلاقة ، راجع موضوعات وغايات كل من علم الأخلاق العملي والنظري ، استقلالا، كما إذا راجعت الفوائد تبينت لك أمور أخرى كثيرة ، وإني واثق في ذكائك ، مطمئن لأحكامك ، أشعر بالسعادة لمن تمسك بالدرس والبحث .

(٣) ولذلك فالدراسة الجامعية في أغلبها نظرية ، وليت القائمين على الأمر يدركون خطورة هذا فيسعى المخلصون منهم لإعادة الجانب التطبيقي إلى هذه الدراسات من المراحل الأولى حتى يشب الباحث ، وقد استقر في عقله العديد من المفاهيم البحثية العملية .

(٤) ضرب المثل يمكن أن يستفيد منه كل باحث ، مادام لا يخرج عن الإطار الغائي الذي سقته له ، والله يرعانا ويرعاك ، وما ذلك على الله بعزيز .

(٥) الواقع المعاش هو من أكثر الشواهد على هذه الدعوة ، ومن ينكر هذا الواقع فقد الكثير من القبول لأنه يجادل بالباطل في الحق ، كأنه يساق إلى الموت ، والله تعالى قال ( يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ) سورة الأنفال : الآية ٦ .

إن علم الأخلاق التطبيقي هو الميدان الرحيب الذي يقف فيه صاحب الأخلاق النظرية عارضا معارفه ، واضعا إياها على طاولة كبيرة ضمن خارطة محددة الأهداف ، وهو في ذلك كله يسعى لتطبيق ما يجد قدرته على القيام به تستطيع تحقيق أهدافه [١] ، بل ويمكن لمعارفه أن يقع لها التلاقي ، مع ما رسمه لنفسه من أهداف ،وما يسعى إليه من غايات ، ومن ثم فقد كان علم الأخلاق العملي هو الجانب الثاني الذي لا بد منه •

يقول الأستاذ منصور على رجب ، نعلم أنه لا يكفي لأجل أن تقود سيارة ، أو تركب بحرا ، أن تحفظ كتابا ، أو كتبا في كيف تقود السيارة ، أو تركب البحر ، بل لا بد مع ذلك من التمرين العملي على القيادة والسباحة ، وألا صدمت الناس بسيارتك ، وغرقت في لجج البحر ، وإذا كنت تعلم ذلك ، فلا يكفي أبدا أن تحفظ ألف كتاب وكتاب في علم الأخلاق لتكون على خلق عظيم ، بل لا بد مع ذلك من رياضة لنفسك على الفضيلة ، حتى تكون لها صديقا ، وبعهدها وفيا ، فالفضيلة عملية محلها النفس التي تصدر عنها الأفعال ، لا الفم الذي تصدر منه الأقوال [٢] •

ولع ذلك مما نبه إليه الرسول الكريم ﷺ ، حين قال الإيمان ههنا ،وأشار بيده الشريفة إلى قلبه الطاهر ، من هنا كان الإيمان في القلب وليس في الفم ، وعلاقة صحة الإيمان لدى شخص ما ، هي ما يمارسه هذا الشخص على أرض الواقع من تعاليم الدين في ثقة وأمان ، بل ويسر مع اطمئنان •

ويشبه الدكتور مزروعة الأخلاق النظرية بالشجرة ، والأخلاق العملية بالثمرة ، ثم يقول أن علم الأخلاق في شكله العملي ، يمس حياة كل إنسان ، ويخالط سلوك كل شخص أيا كان ذلك الشخص ، فهو يخالط الطبيب في مهنته ، والأديب في أدبه ، والحاكم في سياسته للبلاد ، والعالم في علمه بما يعلم ، والصانع فيما يصنع ، فالجميع في حاجة إليه ، لينير لهم طريقهم ، ويهديهم من أمر سلوكهم رشدا [٣] •

وفي تقديري أن هناك علاقة رابطة بين علم الأخلاق النظري والعملي ، هذه العلارقة عمادها العرى الموثقة القوية ، التي لا تقبل الإنفصام إلا في التناول الدراسي فقط ، أما لماذا ؟ فلأن علم الأخلاق له شقان :

أحدهما : يتمثل في العلم بما سجله الأخلاقيون من نظريات في الخير والشر ، وما يتصل بها من نظر في الحرية الإنسانية وعناصرها [٤] ، وما يترتب عليها من مسئولية ، وما يشهد بهذه المسئولية

---

(١) راجع كتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، صـ ٢٣٣ ، وكتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٢٥٣ •
(٢) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٩ / ٣٠ •
(٣) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٤ •
(٤) هذه العناصر التي تتعلق بالحرية الإنسانية لها أثر كبير في علم الأخلاق النظري ، نظرا لتكاثر هذه الجزئيات الدراسية من الناحية المعرفية •

من هدى العقل والضمير ، وما قد يترتب عليها من ثواب للمحسن أو عقاب للمسيء ، وما إلى ذلك من بحوث نظرية .

ثم هي بعد ذلك فن تطبق به هذه النظريات عمليا ، كي يتسنى تحديد الواجبات ، وترتيبها حسب أهميتها ، وبيان ما للفضيلة والرذيلة من آثار في مجرى الحياة العملية، وكيف يتأتى للمربين أخذ الناشيء بتعاليم الفضيلة والبعد عن مهاوي الرذيلة [١] .

ثانيهما : علم الأخلاق العملي ، هو الذي تترتب عليه السعادة أو الشقاوة الأخلاقية ، لأنه يمثل طبيعة السلوك الإنساني ، ويستشرف طرائق الوقوف عليه ، وكيفية تبني المواقف التي تنهض به في أخلاق الذين استفادوا منه من ناحية الجانب النظري ، أنه يتقلب بين الفضيلة العملية ، ويسعى للمباعدة عن الرذيلة .

فالفضيلة العملية عمادها مخالطة حياة الناس ، حتى تكون هي العادة القائمة ، والقيم العالية [٢] ، وهي كمال المعارف النظرية ، والوصول بالتفكير ، والتأمل إلى تحقيق السعادة ، والأعمال لا تكون كاملة وفاضلة إلا إذا تحققت السعادة ، التي هي المعيار لسلامة ذلك السلوك الذي يعبر عن الأخلاق العملية .

## خامسا : فائدة علم الأخلاق وثمرته

تعتبر فائدة علم الأخلاق ذات قيمة ، بالنسبة لمن يرى أن موضوع علم الأخلاق هو الأفعال الإنسانية الإختيارية الإرادية ، ومن يرى كذلك أن الأخلاق تقع بالإكتساب ، ومن يرى أن الأخلاق تقع بالفطرة الجبلية والإكتساب أيضا ، أما من يرى أن الأخلاق جبلية فقط ، فإنه ينفي أي وجود لعلم الأخلاق ، بل ويعتبر الحديث عن علم الأخلاق صورة من العبث ، وإضاعة الوقت .

لأنه مادامت الأخلاق فطرية جبلية ، فإن الناس جميعا مجبلون عليها ، لا يحتاجون في معرفتها إلى علم ، ولا هم بحاجة إلى وعاظ ومفكرين ، حتى يدلوهم على قيمة الفضيلة ، أو عقوبة الرذيلة ، وكان باسكال الفيلسوف الفرنسي ( ١٦٢٣ / ١٦٦٢م. ) الشهير يقول أن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق، يريد أن يقول أن المثل الأعلى للأخلاق العظيمة في واد، وعلم الأخلاق الموضوعي في واد آخر [٣]، لأنه وأمثاله ينكرون وجود أو إعتراف بأية صورة بين العلم والأخلاق .

---

(١) الأستاذ أبو بكر ذكري : تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، صـ ٤٧ .
(٢) معيار الفضيلة عندي هو موافقة السلوك العملي في كل ما جاء به من عند الله تعالى ، لأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل أبدا، ومن ثم فلا أرى معيارا آخر يصلح حتى يكون بديلا عن قيام الأخلاق على الشرع الإلهي.
(٣) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣٤ .

من ثم فلا يعقل أن أبحث عن الغاية من علم الأخلاق أو فائدته ، وثمرته ، لدى من ينكرون وجوده ، ومن يعتبرون الحديث عنه مثارا للسخرية والجدل ، وإلا كنا كمن يحدث شخصا عن مدينة هو ينكر وجودها كبحر الظلمات مثلا [1] ، فإن المستمع لنا سوف يسخر من ذلك المحدث العاجز عن إدراك طبيعة من يتحدث معه ، ولسوف ينتهي الأمر بينهما إلى نوع من الجدل أو المنازعة ، وربما قام بهما معا •

أما من يرون إمكانية قبول الأخلاق للتعديل ، بناء على أن الأخلاق ترتبط بالمسئولية التي عمادها الفعل الإنساني الإرادي ، وأن الأخلاق منها طبيعي جبلي ، ومنها مكتسب [2] ، وأن الأخير يقبل التحويل ، والتعبير على وجه كلي ، وأن الأول قد يأتي فيه تعديل أو تغيير ، طبقا لمستوى الفعل الصادر ذاته ، ومن ثم ذهبوا إلى أن الأخلاق ضرورة أخلاقية وإنسانية ، وعلم الأخلاق هو الآخر ضرورة أخلاقية ومعرفية ، نظرا لإرتباطه بالعديد من الفوائد والغايات ، أبرزها ما يلي :

الأولى : التعريف بالفضائل [3]

نظرا لكون علم الأخلاق من العلوم المعيارية ، فإن القواعد التي يضعها ، أو يرسمها ويتناولها ، يمكن تطبيقها في حالات كثيرة ، أو على الأقل يمكن تدريسها وتعليمها لمن يطلبها ، ومن يري أنه بحاجة إليها ، وتفيده ، ومن ثم ، فإن الفضائل يحتاجها كل صاحب خلق كريم ، لكن ما هي الفضائل حتى يعرفها ذلك هو دور علم الأخلاق ، حيث يقرر أن أمهات الفضائل الخلقية أربعة ، هي الحكمة، والشجاعة ، والعفة، والعدل [4] •

يقول ابن مسكوية أن الناظر في أمر النفس وقواها ، يراها تنقسم إلى ثلاثة ، أعني القوة التي بها يكون الفكر والتميز ، والنظر في حقائق الأمور ، والقوة التي بها يكون الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال ، والشوق إلى التسلط والترفع ، وضروب الكرامات ، والقوة التي يكون بها الشهوة، وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملاذ التي في المآكل والمشارب ، وضروب اللذة الحسية ، وهذه الثلاث متباينة ، ويعلم من ذلك أن بعضها إذا قوى أخذ بالآخر ، وربما أبطل أحدهما فعل الآخر، وربما جعلت

---

(١) بحر الظلمات ظهرت صورته في الأساطير العربية القديمة ، وكتب عنه المؤرخون ، لا على أنه خيال مؤرخ ، وإنما بإعتباره كان واقعا قائما ثم حدث عليه تعديل ، ومن ثم فالكثيرون لا يلتفتون إلى بحر الظلمات •

(٢) هذا الرأي هو الذي أراه راجحا ، نظرا لكونه يجمع بين الرأيين السابقين كما أنه يغطي الإحتياجات الضرورية البحثية على النواحي المعرفية •

(٣) معرفة الفضائل أمر ضروري ، لأنه متى عرفها صاحب العقل السليم ، والخلق المستقيم ، إنصرف إليها لا يلوى على غيرها أبدا ، وتلك من المسائل الهامة في الجوانب البحثية •

(٤) هذه الأمهات الأربعة مجمع عليها بين علماء الأخلاق في الشرق والغرب ، كل ما في الأمر أن البعض قد يزيد في تفريعاتها البحثية عن البعض الآخر ، وهي مسألة بحثية لها إرتباط بالجوانب الأخلاقية •

نفوسا ، وربما جعلت مجرد قوى لنفس واحدة [١] .

ولكن لماذا كانت أمهات الفضائل الأربعة ، ولم تكن ثلاثة أو خمسة مثلا ، إلى غير ذلك من الأرقام التي تزيد على الأربعة وتنقص ؟ والجواب أن قوى النفس الأساسية ثلاثة، ومتى اعتدلت كل واحدة منها لحقتها فضيلة أصلية ، وأخرى تبعية ، وهي :

١ ـ القوة الناطقة : وهي التي تسمى الملكية ، وآلتها التي تستعمل من البدن الدماغ ، فإذا اعتدلت ، ولم تكن خارجة عن ذاتها وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة لا المظنونة على أنها معارف [٢] ، وهي في الحقيقة جهالات وضلالات حدثت عن هذه القوة المعتدلة فضيلة العلم ، وتتبعها الحكمة .

٢ ـ القوة الشهوية : وهي التي تسمى البهيمية ، وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد ، ومتى كانت حركة هذه القوة معتدلة ، منقادة للنفس العاقلة ، غير متأبية عليها ، فيما تقسطه ، ولا منهمكة في إتباع هواها [٣]، حدثت عنها فضيلة العفة ، وتتبعها فضيلة السخاء .

٣ ـ القوة الغضبية : وهي التي تسمى السبعية ، وآلتها التي تستعملها من البدن القلب ، ، ومتى كانت حركة هذه القوة معتدلة ، بحيث تطيع العاقلة فيما تقسطه لها فلا تهيج في غير حينها ، ولا تحمي أكثر مما ينبغي لها ، حدثت منها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة [٤] ، فلذلك ، وجب أن يكون عدد أجناس الفضائل بحسب أعداد هذه القوى [٥] .

لكن ، من أين تأتي الفضيلة الرابعة ، والجواب أنه إذا اعتدلت الفضائل الأساسية ـ الحكمة والعفة والشجاعة ـ ووقعت النسبة بينها بعضها مع بعض ، نتج عن ذلك فضيلة هي كمالها وتمامها ، وهي فضيلة العدالة ، التي تكون هي الميزان الضابط لهذه القوى النفسية الثلاثة .

وطريق معرفة هذه الفضائل هو علم الأخلاق ، يقول الإمام الغزالي في الباطن أربعة أركان ، لابد من الحسن في جميعها ،حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربعة ، واعتدلت وتناسبت ، حصل حسن الخلق ، وهو قوة العلم ، وقوة الغضب، وقوة الشهوة ، وقوة العدل ، بين هذه القوى الثلاث [٦].

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣٤ ، ابن مسكوية : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، صـ ٢٣ .

(٢) هذا الخلط بين المعارف في صورتها اليقينية ، أو المظنونة ، مرجعه إلى عدم إدارك طبيعة كل منها ووظائفها .

(٣) فكرة الإنهماك في الشهوات تتسع لدى الأخلاقيين حتى تشمل جوانب عديدة ، مع أنها في الأصل لا تحتاج إلى تقييد في المعنى على الأقل .

(٤) فكل فضيلة من الأمهات تتبعها جملة فضائل فرعيات، كأنها تقوم عليها، أو هي فقي الأصل ترتد إليها.

(٥) راجع لابن مسكوية : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، صـ ٢٣ / ٢٥

(٦) راجع للإمام الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٢ .

ومعرفة هذه الفضائل ليس يدركها كل الناس ،ولا من يدركونها هم فيها على قدر سواء ، بدليل أن الكثيرين قد لا يعرفون أن العدل فضيلة ، بل قد لا يدركون معنى الفضيلة أصلا ، وحينئذ يكونون بحاجة إلى من يدلهم على أن الفضيلة ، هي المزيه التي توجد في الشيء ، حتى تجعله متميزا عن غيره[1].

وأنها الدرجة الرفيعة في حسن الخلق ، وأن الفضيلة بالنسبة إلى العقل في إحكام الفكر ، وفضيلة العمل في أن يكون موافقا لما فيه الفائدة [2] ، ولا يوقفهم على شيء من ذلك ، أو يعرفهم به سوى علم الأخلاق ، فكانت الحاجة إليه ضرورية ٠

ثم من أين للناس معرفة أن الفضيلة تتنوع طبقا لقوى النفس ، حتى أن كل فضيلة تكون في مواجهة واحدة من قوى النفس كأنها تصفها ، وتصنفها ، فإذا اعتدلت النفس معها صارت فاضلة ، وإذا إنحرفت عنها وقعت في الرذيلة [3]، وإنما يتم ذلك على أساس أن كل فضيلة تقابلها رذيلة ٠

وإذا كانت الرذيلة بمثابة الداء، والعلة التي يمكن أن تسيطر على النفس من كل ناحية ، وتستولي عليها في كافة أقطارها ، فإن دور الفضيلة هو معالجة هذا الداء ، والعمل على إبراء العلة ، وهذا من واجبات علم الأخلاق ٠

بل من أين للإنسان العادي معرفة أن الفضائل والرذائل تجري كل منهما نحو قوى النفس ، وأن هذه النفس الإنسانية لديها قبول لكل منهما على حده ، لكن إذا وقعت في الرزيلة تدنست ،وإذا كانت في رحاب الفضيلة تطهرت[4]، وعادت إلى الأصل الذي نشأته منه ، وأن الفضيلة فيها إعلاء القدر والمنزلة بينما الرذيلة فيها إسفاف وتحقير واستدراج النفس الإنسانية إلى مهاوى الهلاك ، ولا سبيل لمعرفة ذلك على وجه دقيق سوى علم الأخلاق ٠

---

(١) هذا المعنى قائم في المصادر العربية ، راجع القاموس المحيط ، باب اللام ، فصل الفاء ، وأساس البلاغة باب الفاء فصل الضاد ٠

(٢) هذا الإتجاه العام في التعريف بالفضائل النوعية ، على أساس أن كل فضيلة تضاف إلى ما بعدها ، ويتم التعامل معها على هذا التصنيف النوعي ، أما أجناس الفضائل أو أمهاتها فهي الأربعة: الحكمة والشجاعة والعفة و العدالة ، فيدخل تحت كل واحدة منها جملة من الفضائل النوعية ٠

(٣) لأن قابلية النفس لكل منهما واحدة ، باعتبار القوى الثلاثة راجع ، لابن مسكوية : تهذيب الأخلاق ، صـ ٢١ وما بعدها ٠

(٤) راجع للإمام الغزالي ، أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥١ وما بعدها ، حيث كان دقيقا في وصف هذه الجوانب ، كما أنه استطاع فرض فكره على طبيعة التناول ، مما جعلها ثرية الجوانب ، وتلك ميزة بحثية وسمة من سمات الإمام الغزالي ٠

ثم أن الأخلاق نوعان [١] ، نظرية ، وتعني بدراسة القواعد والنظريات التي عنى بها الأخلاقيون ، وتتصل بالخير والشر والحرية الإنسانية ، وما يترتب عليها من مسئولية ، وما يشهد بهذه المسئولية من هدى العقل والضمير ، وما قد يترتب عليها من ثواب للمحسن وعقاب للمسئ [٢].

وعملية تطبيقية من خلالها يتسنى تحديد الواجبات ، وترتيبها حسب أهميتها وبيان ما للفضيلة والرذيلة من أثار في مجرى الحياة العملية ، وكيف يتأتى للمربين أخذ الناشئ بتعاليم الفضيلة ، والبعد عن مهاوي الرذيلة ، حتى ينبت نباتا حسنا ، ويجتاب شبيبة ظاهرة ، حتى إذا مد له الأجل ، كان في الشيخوخة ملاك رحمة ، ومنار هداية ، وكنز حكمة ودراية [٣].

## الفائدة الثانية : تعليم اكتساب الفضائل

إذا كانت الفائدة الأولى من فوائد الأخلاق قد أنحصر دورها في تصنيف الفضائل والتعريف بها، والتعرف عليها ، فإن ذلك لا يكون على وجه التمام إلا إذا تعلمنا كيفية إكتساب الفضائل من الناحية المعرفية أولا، ومن الناحية التطبيقية ثانيا ، إذ ما قيمة أن تحدث إنسانا عن العدل مثلا، أو الشجاعة [٤]، دون أن تدخله إلى دائرة التعرف على كيفية إكتسابها ، كما لا يمكن قصر دور المعرفة عند مجرد تقديم صورة كشفية إحصائية بان هذه فضيلة ، وتلك رذيلة ، وإنما لا بد إلى جانب ذلك ، تعليم الناس طريقة اكتساب الفضائل ، وطريقة التخلي عن الرذائل [٥]، ولا يقوم بذلك إلا علم الأخلاق .

كما أن الجانب التطبيقي في علم الأخلاق لا يقتصر على مجرد التعريف، كالحال التي يقدمها في الجانب النظري ، وإنما يدرب الناس على كيف يكونون فضلاء فعلا ، بحيث يتم تطبيق ذلك على أرض الواقع ، صحيح قد يكون التدريب العملي هو تطبيق علم السلوك ، لكن الصواب هو مقاسمة علم الأخلاق

---

(١) ويمكن استخدام لفظ الأقسام بدل الأنواع ، مع أن المراد واحد ، والإختلاف إنما يتم في صورة اللفظ لا معناه .

(٢) تقسيم الأخلاق إلى نظرية وعملية أمر مهم ،لأن الجانب الأول النظري يتعلق بمعرفة القواعد، بينما الثاني العملي ، يهتم بكيفية الممارسة ، وكل منهما يكمل الآخر ، ولا يستغنى عنه ، وإذا وجد احدهما بعيدا عن الثاني وقع القصور المعرفي والسلوكي معا، وذلك من مهام علم الأخلاق ، بل من فوائده الأساسية .

(٣) الأستاذ أبو بكر ذكري: تاريخ النظريات الأخلاقية، صـ ٤٧، ط. ثالثة ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م. .

(٤) هذا الحديث النظري قد يطول ، لكن المهم أن يعرف كيف يكون عادلا ، وكذلك الحال في الشجاعة ، والحكمة ، والعفة ، إذن ، المهم هو أن يعرف كيف يكون كذلك ، وهي كلها من مهام علم الأخلاق .

(٥) إدراك الفرق بين الفضيلة والرذيلة من الناحية التعريفية لا يكفي ، بدليل أن الكثيرين قرأوا عن العدل والعدالة . ومع هذا فهم يمارسون الظلم ، وكثيرين أيضا حفظوا ما يتعلق بالشجاعة وهم دائما يعيشون في الجبن .

لكل من السلوك والتصوف في تدريب الناس على إكتساب الفضائل[١]، مع إحتفاظ كل منها بالخاصية الذاتية ، التي يرتبط بها ، نظرا لخصوصية كل من هذه العلوم الذاتية .

ثم إن تعليم الفضائل يحتاج بذل مجهودين في وقت واحد ، أحدهما من الناحية النظرية الخالصة ، والثانية من الناحية العملية التطبيقية ، ولا يقوم بهذا إلا علم الأخلاق ، ولذا أعتبر من فوائده فمثلا معرفة الحق أو الخير والجمال يحتاج علم الأخلاق النظري ، لأن هذه الموضوعات من المعرفة [٢]، ثم تأتي المرحلة الثانية ،حيث يهتم بتنظيم ذلك في حياة الإنسان ، حتى تحكم سلوكياته وتصرفاته .

**الفائدة الثالثة : إصدار أحكام صحيحة خلقيا**

من السهل أن تحكم على إنسان ما بأنه صالح لمجرد الأخبار التي وردت عنه ، ويكون الحكم عليه سمعيا إخباريا ، يصيب ويخطئ ، شأن الأخبار غير المعصومة[٣]، أما أن نتقف على صفة كونه صالحا إجتماعيا أو إقتصاديا أو علميا ، فذلك دور علم الأخلاق ، أما لماذا ؟

فلأنه يدلنا على كيفية معرفة الفاضل من الشرير ، وصاحب الخلق المستقيم من ذي الخلق المنحرف ، ولا يكون ذلك إلا من خلال القواعد العامة التي حملتها النظريات الأخلاقية في الجانب النظري ، ثم تطبيق ذلك على الفرد الذي نحن بصدد تقويمه ، والحديث عنه ، وذلك دور علم الأخلاق العملي[٤].

ثم أن كل فكرة إنسانية تحتاج إلى طريقة ما تجعل القارئ لها ، والمطلع عليها يحكم عليها بالصدق أو الكذب ويراها من ناحية الحق ،أو الباطل ، كونها داعية للخير أو الشر ، ثم يأتي دور القائم بها ، المعتقد لها ، وهو الفاعل الذي يرتبط به الوصف ، ومن ثم قد نخطئ في وصفه ، أو تنصيفه [٥]، لكن علم الأخلاق قد يجعلنا نرتب أحكامنا في صورة تنظيمية ، تخضع في الغالب الأعم لمعيار ثابت في النهاية ، يمكننا من إصدار أحكام لها حجية ثابتة ، أو صورة صادقة .

---

(١) راجع : تهذيب الأخلاق لأبن مسكوية ، صـ ٢٣ / ٢٤ .

(٢) راجع تفاصيل هذه الجزئية في كتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، صـ ٧١ وما بعدها، الطبعة العاشرة .

(٣) لأن الأخبار نوعان : نقلية شرعية ، وهي معصومة لأنها قائمة فيما جاء من عند الله تبارك وتعالى ، من الكتاب الحكيم والسنة النبوية المطهرة ، وأخرى غير معصومة ، يتناقلها الناس ، ولذا فهي تحمل الصدق والكذب ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٨٧ .

(٤) راجع حديث الإمام الغزالي عن الأخلاق في كتابه : أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، صـ ٥٧ .

(٥) هذا الخطأ وارد ، قد يقع في الوصف والتصنيف معا ، إذ لا مرد عن الخطأ إلا في الإستمسك بحبل الله تعالى ، وأن تكون هنك رغبة أكيدة ، ونية صحيحة لهذا أو ذاك ، والله المستعان .

من المؤكد أن إصدار أحكام صحيحة يستلزم معرفة دقيقة بأصول الدعوى المعروضة ، إذ ليس من المكن أن يسارع المرء إلى إصدار حكم من الأحكام في دعوى معروضة دون أن يكون له إلمام بها ، ولو على ناحية إجمالية كليه [١]، ثم تأتي بعد ذلك جملة التفاصيل المتعلقة بها ، حتى تجعلها واضحة فينظر إليها المرء من كل ناحية ، من ثم فإذا أصدر حكما كانت له صورته الصحيحة من الناحية الحجية التي يعمل بها ، ولا يكون ذلك إلا من خلال علم الأخلاق .

**الفائدة الرابعة : تربية الوجدان وترقية الميول**

لما كان الإنسان تتمثل فيه قوى عديدة ، ظاهرة وباطنة ، وكل واحدة منها تنشأ عنها فروع أو قوى فرعية ، أو تبعية متنوعة ، فقد برزت مشكلة الوجدان على السطح ، وهو الذي يجمع جملة من الظواهر الإنفعالية داخل الإنسان ، كالحب ، والبغض ، واللذة ، والألم [٢]، ويقابل الفكر والنزوع ، وإلى هذه الثلاثة ترجع الظواهر النفسية كلها .

وهذا الوجدان ، بما فيه من مظاهر متناقضة كالحال مع كل من ، الحب والبغض ، اللذة والألم ، فإنه يكون بحاجة إلى موجه يضبط سلوكياته ،أو ينظم إتجاهاته ، ويحرره من سيطرة عناصر الضعف البشري التي تجري مع الشهوة ،ويشيع فيها القلق ، وتتغذى على الإضطراب ، فإذا يوجد ذلك الموجه الذي يدل على طرائق التربية الوجدانية ، ووسائل الإنتصار على مناحي الضعف في الإنسان ، فقد المرء آماله ، وتبخرت أحلامه [٣].

من هنا ، كانت الحاجة ضرورية لهذا الموجه الذي يقوم بتربية الوجدان ، وترقية الميول ، حتى لا تنزل بصاحبها إلى درجة الإسفاف ، أو تدفعه إلى التدني ، أو الإنحطاط و من ثم ، فلم يكن هناك من قائم بهذا سوى علم الأخلاق [٤]، وقد اضطر أصحاب القول بأن الأخلاق طبيعية جبلية ، لا تقبل التغيير إلى التنازل عن أصل هذه القاعدة ، حينما أرجعوا تهذيب النفس إلى تربية الوجدان .

يقول الأستاذ منصور على رجب ، وإذا كان سبنسر يقطع الصلة بين العلم والأخلاق، فما الطريق عنده لتهذيب النفس ، وتحسين الأخلاق ، لا شك أن الطريق عنده إلى ذلك هو تربية الوجدان والميول ،

---

(١) راجع في المسألة كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٣٥ ، وكتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، جـ ٢ ، صـ ٤٣ .

(٢) راجع للإمام الغزالي ، سر العالمين وسعادة ما في الدارين ، صـ ٤٤٣ / ٤٥٧ ، وللإمام القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ١١٦ ، وللشيخ محمد عبد المعطي زهران : علم السلوك ، صـ ١٧٧

(٣) وإذا وصل المرء إلى هذه الحال ، فإنه يكون عرضه للإنهيار الأخلاقي ، وربما وصل حافة الإنتحار على صورة من الصور .

(٤) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٢٢ ، وكتابنا غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، صـ ١٢٧ ، وكتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ٣٤٥ .

لأن الناس في أعمالهم يحكمون عواطفهم ، وينقادون لأهوائهم دون أن يستشيروا حكمتهم ، ويصغوا لنداء عقولهم [١]، وهو رأي أوجست كونت الذي كان يقول أن العالم تحكمه العواطف لا الأفكار [٢].

ربما يقال أن تربية الوجدان ، وتهذيب النفس ، وترقية الميول ، يمكن أن تقوم بها القوة الباطشة التي تحتمي بسلطة القانون السياسي لا الأخلاقي ، وبالتالي فلا يكون الناس بحاجة إلى علم الأخلاق حتى يهذب النفوس ويربي الوجدان ويرقي الميول [٣] ؟

والجواب أن علم الأخلاق يتعلق بظاهرة الإرادة الحرة ، والإختيار الذي يجيء معه القصد ، وهذه كلها لا تتفق مع القوة الباطشة ، أو الإرهاب بالقانون السياسي ، والإرهاب ، وإلا ما كان الإنسان الواقع في هذا كله صاحب خلق ، بقدر ما هو واقع تحت سلطة السياط ، خاضعا لأساليب الضعف ، قائم تحت جنح الإرهاب[٤]، وهذا مما لا يتفق مع القواعد الأخلاقية أبدا .

### الفائدة الخامسة : الاستهداء والدعم

ومعناه أن دراسة علم الأخلاق تفيد غير الفاضل الذي تعلق الشر به ، واستمرأه حيث يدله على طريق الفضيلة ،ويأخذ به إلى طريق الخير ، ليس هذا فحسب ، وإنما يظل به حتى يبلغ درجة في الأخلاق المقبولة ، وحينئذ يمكنه الإستفادة من الدعم الذي يقدمه له علم الأخلاق ، فيزداد رصيده الأخلاقي إرتفاعا[٥]، وهو المقصود بالاستهداء من الناحية المعرفية الأخلاقية في الجانب النظري .

كما أن دراسة علم الأخلاق بالنسبة إلى الإنسان الخير الفاضل ، مسألة مهمة جدا لأنها تدعم موقفه ، وتدفعه إلى التماس المزيد ، وحيث يقع له هذا الدعم ، فإنه لن يقع في الخطأ ، كما لن يعرج

---

(١) هذا التوجه يعبر عن صورة اليأس من العلم ، والإستفادة منه ، وكان أبو العلاء المعري يسخر من القائلين بإمكانية تغيير الخلق ، نظرا لكونه قد عايش جملة من الناس تصرفوا بلا وعي شرعي ، مع أنهم يزعمون لأنفسهم حسن الإيمان ، وصدق الإعتقاد ، وهي مأساة كبيرة لمن يدعون التدين ، ويزعمون الصلاح ، وما هم في شيء من ذلك أبدا ، لأن سلوكياتهم هي التي تفضحهم ، ومهما أخفوا ، واستخفوا فضحوا .

(٢) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣٨ .

(٣) وربما يستدل على هذا بالأثر القائل أن الله ليزع بالسلطان ، ما لم يزع بالقرآن ، ومنطق هؤلاء أن السلطان الغاشم يمكن أن يهذب النفوس ، ويلزم أصحابها بما يجب أن تكون ،وهو إتجاه يحتاج إلى المزيد من المراجعة الدقيقة ، فالمسألة أكبر من هذا بكثير .

(٤) راجع كتابنا : أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ، حيث تعرضت لهذا الجانب ، وبينت ذلك في شيء من التفصيل الذي اقتضاه المقام هناك .

(٥) عندي أن الأخلاق تقبل التغيير ، من ثم ، فهي للزيادة تارة والنقصان أخرى ، وكلما أتقن المرء القيام بواجباته الأخلاقية نما رصيده المعرفي أيضا في هذا الجانب ، ثم ينتشر إلى من بعده ، بحيث يؤثر فيهم بقدر استعدادهم وقبولهم لهذا التوجيه .

على السلوك المنحرف[1]، لأن دراسة علم الأخلاق تكون الصورة الكاشفة لسائر في طريق شبه معبد ، فإذا لم يقع له ذلك الدعم ، ربما كبا وتنكب منذ بداية الطريق ، حيث لا عاصم بعد الله .

ويلخص الدكتور مزروعة فكرة الاستهداء والدعم في عبارة قصيرة فيقول ، ودراسة علم الأخلاق تفيد الفاضل ، وغير الفاضل ، وتفيد الخير والشرير ، فبالنسبة لغير الفاضل والشرير فعلم الأخلاق يدله على طريق الفضيلة ، ويعرفه طريق الخير ، وأما بالنسبة للفاضل الخير ، فدراسة هذا العلم تزيده معرفة بالفضيلة ، تعشقا للخير ، فقد يوجد المرء نجارا ، أو حدادا ، أو بناء دون أن يدرس هذه الصفات في كتاب ، ولكن مما لا شك فيه أنه لو درسها لأصبح أقدر عليها ، وأتقن لها من ذي قبل [2].

ثم أن علم الأخلاق ، إنما هو علم يتعلق بالسلوك البشري الحر ، كما إن هذا السلوك يسعى صاحبه لغاية يرد إنجازها ، أو تحقيقها ، ولا شك أن الغايات تختلف بإختلاف الأفراد أنفسهم [3]، لكن من الذي يدفعه لإنجاز هذه المهام ، وبلوغ تلك الغاية ، وعلى أي أساس سيمضي ، أنه أشبه بطفل يحب أن يقضي حاجاته وقت شعوره بها ، ويسعى لها من غير إعتبار لما هو مترتب بعدها ، لكنه غير قادر على القيام بهذه المهام وحده ، وإنما ويحتاج للاستهداء فيما يفعله ، والدعم في كل ما له به خبرة ، وذلك الدور يؤديه علم الأخلاق .

أضف إلى ما سبق ، أن الخلق بإعتباره حال للنفس ، ليس فيه استعداد للإستعباد ، أن الحر يولد كامل العقيدة بالفطرة التي فطره الله عليها حر ، والأخلاق ، وهو يحاول أن يظل هكذا حرا في العقيدة والسلوك [4]، وأن ينضم إلى ذلك كله الحرية والسعادة ، حيث لا يقع له فيها كدر ، ومن ثم فإن علم الأخلاق يسعى إلى المحافظة على هذه الغايات النهائية ، ولذا كان أرسطو يتحدث عن فائدة الأخلاق ، ويقرر أنها تبحث عن المبادئ الغايات النهائية الكامنة وراء الواقع بأسره [5].

ثم أن المرء قد يسعى لإشباع رغباته ، فيقع في دائرة الخطأ ، وحينئذ يكون بحاجة إلى من

---

(١) الوقوع في السلوك المنحرف قد يكون لسبب فقد القدوة الحسنة ، وقد يكون لأسباب إجتماعية، أو غيرها ، راجع كتابنا : أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ، صـ ٢٧٣ .

(٢) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في فلسفة الأخلاق ، صـ ١٢ .

(٣) تنازع الناس في الغايات أمر طبيعي ، تشهد به الوقائع الصحيحة ، ومن ثم فلا مجال للقول بأن الغايات متحدة ، أو أنها محددة ، فذلك مما لم يقم دليل عليه ، كما أن أبواب السعادة ليست واحدة ، ولا مظاهرها متفق حولها .

(٤) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٥٣ ، كتابنا: غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق، صـ ١١٨ .

(٥) الدكتور إمام عبد الفتاح إمام : فلسفة الأخلاق ، صـ ١٠ .

يستهدي به حتى لا يستمر في أخطائه [١]، ولا يكون ذلك إلا من خلال علم الأخلاق ، الذي يفصل له عواقب ما هو فيه من الناحية الأخلاقية، وحينئذ يحاول هذا الإنسان الإمساك عن الإشباع غير المنظم [٢]، كما يسعى لتهذيب الطرائق التي يمكن أن تكون ذات صياغة تحديدية ، تجعل ما يقوم به في صورة منظمة أخلاقيا ،وحينئذ لا يسقط بعيدا عن المروءة ، والقيم السليمة .

فلأن رغبات الناس قد تتصارع ، ويحدث بينها التنازع ، وهم في هذا التنازع لا يقبلون القسمة ذات الحظوظ المتساوية ، بدليل أن كل فرد يحاول أن يكون صاحب الرصيد الأعلى ، والقدر الأكبر [٣]، فلو ترك لما هو مقبل عليه كان شريرا ، من ثم يكون بحاجة إلى علم الأخلاق الذي يدله على أن الحقوق تتبادل مع الواجبات ، كما يدعم فيه فكرة المثالية ، وفي نفس الوقت ينمي داخله العدالة [٤]، كل ذلك من خلال شجاعة قائمة على أصول صحيحة.

يقول الأستاذ منصور على رجب إن علم الأخلاق من جهة أنه فن فالإجماع منعقد على فائدته ، ومن جهة أنه علم ، فهناك بعض الشك في فائدته ، ومهما يكن من شك في فائدة علم الأخلاق ، فقد كان أرسطو أحد أساتذته الأكرمين ، يعلم الإسكندر هذا العلم مدروسا في التقاليد الإجتماعية ، وفي الطبع الإنساني ، وإذا كان علم الأخلاق ضروريا للعقل البشري ، فإن شقاء الجمعية الإنسانية من أمراضها النفسية أنبل أغراضه [٥].

سادسا : موقفنا من المسألة

وعندي أن الدين الإلهي قدم ما فيه الكفاية عن علم الأخلاق ، وغيره ،حتى إذا اهتدت مباحث علم الأخلاق بالشريعة الإلهية ، كانت قائمة على أصول سليمة ، وقواعد صحيحة ، ومن ثم لا يقع حولها التنازع ، ولا يتم بجانبيها التصارع ، بل وفرت على الناس كثيرا مما ينفقونه في قضايا بعيدة عن

---

(١) المراد بالاستهداء هنا هو الإستفادة من تجارب الآخرين ، والإنفصال عن الإندفاع الذاتي ، والغرور الشخصي ، والميل إلى القواعد العامة التي ينضبط بها حال هذه النفس ، وذلك أمر مهم في الدراسات الأخلاقية .

(٢) أنا لا أشجع على الحرمان ، كل ما أطالب به هو أن يتم الإستمتاع بالحلال في حدود ما شرع الله تعالى ، وفي صورة تنظيمية ، فالمطلوب ترشيده لا تجريده ، حتى لا يظن أحد أني أخالف الطبيعة البشرية ، أو طالب بأمر منهي عنه شرعا .

(٣) ذلك الأمر ثابت في النفوس البشرية ، التي لم تهذب بشرع الله تعالى ، أو التي عرفته لكنها لم تلتزم به ، وفرق كبير بين معرفة ما شرع الله تعالى وبين الإستفادة به .

(٤) تنمية أجناس الفضائل في النفس الإنسانية ، ذهب إليه الكثيرون من علماء الأخلاق كابن مسكوية والغزالي وغيرهما ، وهذا في محيط الفكر الإنساني يمكن أن توجد له أمثلة عديدة

(٥) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣٠ .

شرع الله ، غير مهتدية به [١]. فدستور الأخلاق العليا قائم في الإشارات القرآنية ، والأحاديث النبوية ٠

يقول الدكتور دراز ، عن منهج القرآن الكريم في بناء الأخلاق ، لقد كان منهجه في غالية البساطة ، حين تخير لبيان قواعده أقوالا ذات تأثير خاص ، وهي أقوال تقف دائما في منتصف الطريق ، بين المجرد غامضة ومبهمه ، وبين الحسي المفرط في الشكلية ، وكذلك نجد أن الأطر التي يبينها صارمة، ومرنه في آن واحد ، وبهذه الطريقة استطاعت الشريعة القرآنية أن تبلغ كمالا مزدوجا ، لا يمكن لغيرها أن يحقق التوافق بين شقيه، لطف في حزم ، وتقدم في ثبات ، وتنوع في وحدة [٢].

أجل إن الإلتزام بما شرع الله تعالى يوفر على المرء الطمأنينة ، ويحميه من كافة ألوان القلق ، ويدفع عنه عوامل اليأس ، ويباعد بينه وأسباب القنوط ، لأنه في كل حالاته يكون دائرا بين الرضى بما قدر الله ، والفرح بما هو مدخر عنده جل علاه ، فإذا تلاشت المدارس الأخلاقية ،وسقطت الأعلام التي ترفعها ، والشارات التي تؤكد إتباعها على ضرورة الإلتزام بها ، ظهر له أن ما عند الله خير أبقى ، وأعظم وأوفى ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٣].

لكن ما هي طريقة الإلتزام التي تجعل صورة الفعل الأخلاقي ، وفائدته في إتجاه واحد ، وكيف لنا الحكم على هذا الفعل أو ذاك بأنه واقع في نطاق أخلاقي مقبول عند الله تعالى ، والجواب ، سهل ميسور ، أنه قائم في النصوص القرآنية التي تبني الضمير الأخلاقي ،وتجعله حارسا على سلوك الفرد ، بحيث لا ينصرف بعيدا عن الخيرات [٤]، فمثلا ٠

تحدث القرآن الكريم عن الضمير الأخلاقي عند أداء ركنين من أركان الإسلام ، هما الصلاة والزكاة ، وبين أن المخالف في هذين - بإعتبار النية مع أداء العمل قد تخلى عنه ضميره القرآني ، واستولى عليه هاجس شيطاني ، قال تعالى ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ

---

(١) راجع كتابنا : الغزاليات في النبوات ، صـ ٥٧٠ / ٥٧٥، كتابنا : الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، صـ ٦١١ ٠

(٢) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٠ / ١١ ٠

(٣) سورة المائدة : الآيتان ١٥ / ١٦

(٤) والأمثلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة ، وقد عني بها كل من الأمام الغزالي في إحيائه ، والصوفية في مؤلفاتهم ، وعلماء السلوك في تعبيراتهم ٠

قوماً فاسقين وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ [١].

**يقول الدكتور دراز أن القرآن يتطلب منا الشعور النفسي ، وحضور الذهن في كل ما نقول ، ونفعل .ويتطلب منا الضمير الأخلاقي بالمفهوم الأسمى لهذه الكلمة ، رضا القلب ، وتلقائية العقل والسرور ، والمهمة التي يؤدي بها الواجب تلكم هى الصفات التي تجعل أعمالنا مقبولة عند الله تعالى .**

**ثم يقول والشرط الصريح للأخلاقية والإيمان بالله ذاته يتمثل كما حدث القرآن الكريم في أن يقبل المرء مختارا أوامر الشريعة ، وأن تخضع نفسه لها كلية ، لدرجة ألا يجد شيئا يتردد في نفسه [٢].** ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [٣].

**ولقد أحس الغربيون بأن نظريات علم الأخلاق وموضوعاته ، بل وفوائده لم تنقطع مسائل الخلاف حولها ، فأعلنوا فض أيديهم منه كالشأن مع غيره من العلوم التي وقع الخلاف بشأنها ،وكأنهم يقولون ابحثوا عن طرق أخرى غير طريق العلم للقيام بتهذيب الأخلاق [٤] ، ونحن لن يكون ذلك الطريق سوى ما جاء لنا من عند الله تعالى في كتابه الكريم ، وفي سنة الحبيب المصطفى ﷺ القائل تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي .**

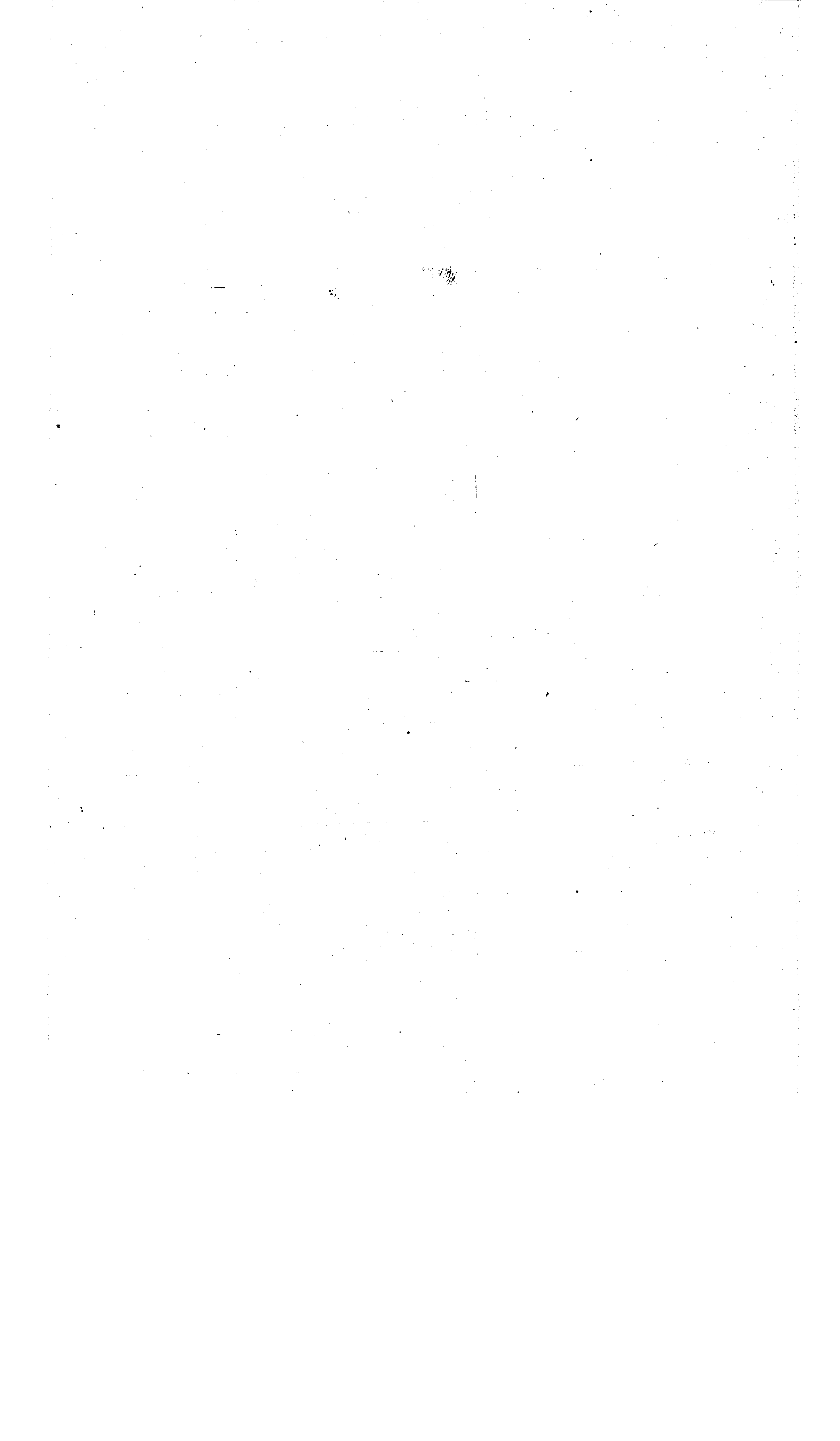
---

**(١) سورة التوبة : الآيتان ٥٣ / ٥٤ .**
**(٢) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٣٢ ، وهو كتاب متميز في بابه ، ولو كان الأمر بيدي لجعلته مكررا على طلاب مادة الأخلاق ، فهو كتاب ممتع ، فيه الكم الهائل من المعلومات و الموضوعات الأخلاقية التي عولجت في إطار أخلاقي ديني ، وقانوني أخلاقي .**
**(٣) سورة النساء : الآية ٦٥ .**
**(٤) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٣٨ .**



# الفصل الثالث

## الحكم الخلقي



المطالع لعلم الأخلاق يري الكتابات التي عنيت به ، ربطت بين الحكم الخلقي والمسئولية الخلقية ، ثم جعلت الجزاء المترتب عليها هو المتمم لها ، حتى كأنها حلقة لها طرفان تجمعها رابطة ، وذلك من شأنه أن يمثل عبئا علي كل من يبحث هذه المسائل ، لكن هذا قدرنا ، وقد رضينا بما قسم الله تعالي ، ولن نخوض فيها خوض الغر المتهيب ، ولا خوض الأحمق أو المندفع الجسور الذي يبلغ حد الإعجاب بقول القائل :

يفوز باللذات كل مجازف ∴ ويموت بالحسرات من يخشي العواقب[1]

بيد أننا سنحاول تناول هذه المسائل في هدوء وموضوعية ، لأن ذلك هو الذي أمرت به ، ودلت عليه النصوص الشرعية ، كما أنه المنهج الذي يبلغ بصاحبه الغاية في أمان ، أو علي الأقل في كثير من الأمان ، فما أشد ما يخاف المرء الهلاك الذي يقبع خلف الاندفاع الأحمق أو الغرور الطائش الذي ينظر صاحبه إلي نفسه ، علي أنه ملاك مقدس ، أو بني معصوم ، و ما هو في شيء من هذا ولا ذاك ، لأن الملائكة ليسوا من بني البشر ، كما أن الأنبياء قد ختموا بسيدنا محمد ﷺ لقول الله تعالي ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [2] .

وسأحاول تتبع الجزئيات المطروحة ، في شيء من الموازنة الهادفة ، بعد جمع القواعد التي يمكن أن تكون ذات فاعلية مؤثرة علي النحو التالي :

### أ- تعريفة

مادة الكلمة - ح ك م - تعني القضاء والنفقة ، كما تعني الاتقان والجودة ، ثم هي في ذات الوقت تعني الاستجواب بجانب القدرة علي التوثيق [3] ، ومن ثم فان الحكم هو القرار الموثق الذي قام علي تتبع الجزئيات المعروضة ، في تفهم وإتقان ، مع الموضوعية ، حتى صار قاعدة يمكن تطبيقها علي الحالات المماثلة ، ومن ثم فسأقدم عده تعريفات للحكم الخلقي قمت ببنائها طبقا لما يسر الله تعالي لي أسبابه .

يعرف بأنه ناتج دراسة ما يترتب عليه اعتبار الفضيلة أو الرذيلة ، الخير والشر السعادة

---

(١) يتغني به كثير من الحمقي ، ويجعله المثال الأعلي الكثيرون من المندفعين الذين تجاهلوا أن المجازفة فيما حرم الله تعالي أمر منهي عنه شرعا لقوله تعالي ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة البقرة : الآية ١٩٥ .

(٢) سورة الأحزاب : الإية ٤٠

(٣) هذه المعاني يمكن التعرف عليها من معاجم اللغة العربية ، راجع القاموس المحيط ، أساس البلاغة .

والشقاوة[١] . وهذا الناتج عن ذات الدراسة هو ذات الحكم ، أما العملية التي تسبق إصداره فهي الجزئيات الواقعة في نطاق الدراسة ، ثم أن المترتب عليه هو الجزاء أو الغاية[٢] ، وبالتالي فهذا التعريف يمكن استخراج أشكال متتابعة منه :

الأول : الفعل أو النية إليه ، وهو القصد

الثاني : الفاعل والطريقة التي تم بها الفعل

الثالث : طبيعة الذي تم فعله ، ونوع المسئولية

الرابع : الناتج وهو المتمثل في الجزاء[٣]

ولما كان الحكم الاخلاقي لا يصدر إلا على عمل إنساني له طبيعة خاصة أخلاقية ، فإنه محاط بعدة عمليات ، بعضها سبقي ، وبعضها توافقي ، تصاحب الفعل أو الحكم ذاته بحيث لا تكون هناك مساحة مكانية ، أو فترة زمانية تفصل بين هذا الفعل أو العمل والحكم علية[٤] إذ كل من الناتج ، ونية الفعل بينهما ، ترتيب أقرب إلي المسائل الطبيعية علي نحو من الانحاء .

يقول الدكتور دراز من الناحية الأخلاقية لا يمكن أن ندخل في باب الأخلاق في أي عمل إذا لم يكن شعوريا وإراديا ، وانعقدت علية النية في أن واحد[٥] ، فإذا تم إدخال أيعمل غير مستوفى هذه الشروط ، لم يكن أخلاقيا ، مهما كانت صورته .

٢- وقد يعرف الحكم الخلقي بأنه تقدير الأعمال الإنسانية من خلال مقياس خلقي ثابت ومقبول ، بحيث يصنف هذه الأعمال ، بإعتبار المترتب عليها في السعادة والشقاوة[٦] ، وهو تعريف مرتب علي تقدير الأعمال الإنسانية الإرادية ، ومن ثم فطبيعة الحكم قائمة في نظام أصلي ، وأخر تبعي علي ما يمكن وصفه به .

---

(١) هذا مما أراد يصلح تعريفًا للحكم بالموضوع والغاية ، ولئن رزق أحد تعريفا أفضل منه، فليحمد الله تعالى على ما وصل إليه . فإنما هي أقسام الله تعالى ، وليعذرني ، فما أنا باحث عن الحكمة التي أمر الله تعالى بطلبها ، والحقيقة التي حثت النصوص الشرعية على التماسها .

(٢) الجزاء غير الغاية ، لكنهما في الأخلاق قد يقع بينهما التقارب على نحو من الإنحاء .

(٣) هذه الجزئيات ترتيبية من وجهة نظري ، بمعنى أن الواحدة تجيء بعد السابقة مباشرة ، إذ لا يفعل أن يسبق الفعل النية مادام المقصود في الأخلاق الأفعال الإرادية الإختيارية ، وهذا مما يجب النظر إليه بعين الإعتبار .

(٤) عملية الفصل لا تكون إلا من الناحية الدراسية ، أما من الناحية الحقيقية فهي تمثل نوعا من الصعوبة الشديدة .

(٥) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٢٩ .

(٦) هذا التعريف مما أري ضرورة الاستهداء به ، وقد جمعته من طبيعة البحث الخلقي في الأعمال الإنسانية ، وما يترتب عليها من مسائل مهمة أود الإلتفات إليها .

٣- كما يعرف بأنه ما يتعلق به تقدير العمل الخلقي ، من خلال ما الفته الضمائر الاستهدائية ، القائمة علي مبادئ الأخلاق العامة ، وقواعدها الثابتة ، من حيث أنها التي عليها مدار البحث في الجوانب الأخلاقية [١] ، والفرق بينهما أن السابق يتعلق بتقدير العمل الإنساني عموما ، بينما الثاني بـه إرتبـاط نوعي .

والواضح أن الحكم الخلقي يقوم به قادر علية ، متمكن منه ، ومن ثم فقد يقـوم بـه عـالم في الأخلاق ، حيث يتمكن من إصـدار أحكـام خلقيـة علـي الأفعـال ، أو الأعمـال الـتي تصـدر عـن آخـرين ، موضوعين للحكم عليهم ، سواء أكان هذا الفاعل أم الفعل ، وأحيانا ينتزع المرء نفسه من نفسـه ، فـيحكم علي سلوكيات ذاته ، بالحكم الذي تفرضه القواعد الأخلاقية [٢] ، ويتم ذلك إذا كانت سلطة الضمير ذات تأثير فعال ، وغير خاضعة للسيطرة عليها ، أو التأثير الفوقي الذي يأتيهـا مـن سـلطة أخـري ، واليـك الصورتان حتى تتضح المسألة :

الصورة الأولى : إنسان ما قام بسرقة النتاج العلمي لزميـل آخـر ، فالسـرقة في حـد ذاتهـا رذيلة [٣] ، لكن هذا السارق كانت رغباته قادرة علي فرض سلطانها فوق سلطة الضمير ، فلم يعلـن ثورتـه ، وظل يتحرك بطيئا من غير أن يقوم بحركة قوية فعالـة في مواجهـة الرغبـات المتوحشـة ، الـتي دفعـت السارق إلي ما فعل .

فإذا مر هذا العمل الإنساني الإرادي بعالم أخلاقي أصدر حكمه علي هذا السـارق بأنـه يمـارس في أفعاله رزيلة خلقية [٤] ، تنتقل معه إلي الحكم عليه مرة أخري بأنه شرير ، ثم تأتي المرحلة الثانيـة وهي الحكم الجديد بأن هذا السارق سوف يكون مقيما في التعاسة والشقاء .

الصورة الثانية : أن تهدأ ثورة النزعات ، وتهبط حدة الشهوات لدي ذات السارق نفسـه ، حينئذ يجد الضمير فرصة في الإعلان عن نفسه ، ويأخذ علي عاتقة تأنيب هذا السارق فيظل بـه ، كلما رأي ناتج سرقته ، وما حصله من عرق الأخر وكده ، إعتبر نفسه واقعا في الشـر ، بـل يظـل علـي أمـل أن تنزل به المصائب ، أو يحيط به السخط [٥] ، وربما يسارع إلي الاستتابة ، ويلتمس التسامح ممن سـرقه ،

---

(١) مدار البحث إذا تم في جانب عملي انضبط به ، وإذا كان من خلال منهج نظري تم ضبطه عليه، وهي مسألة علي قدر كبير من الأهمية .

(٢) راجع كتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق، صـ ١٧٣ ، وكتابنا : أنسام حبية في الأفكار الصوفية، صـ ٧٧ .

(٣) ومن يفعل ذلك ، إنما يمارس حراما ، كما يطعم أولادة من حرام ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولي به ، فلا المال الذي جمعة استفاد منه ، ولا هو من المقبولين عند الله ، وإنما خسر دينة حيث تنازل عنه ، ودنياه حيث باعها بشهوة عارضة .

(٤) الرذائل تكون دائما صورة من صور إشباع شهوات النفس ، أو علي الأقل نتيجة المصادر الشهوانية في النفس إلي ابعد مدي .

(٥) راجع للشيخ محمد علي الهوبي : نظرات في فلسفة الأخلاق، صـ ١٢٣ .

وربما بدأ ذلك في مفاوضات التعويض ، حتى لا يكون فعله الذي تم واقعا في نطاق المذلة الخلقية ، التي يحاسب عليها خلقيا أيضا .

وقد حكت السنة المطهرة ، أن رجلا وقع في الزنا ، وهي جريمة دينية من أكبر الكبائر ، ورزيلة أخلاقية[١] ، فلما خلي الرجل مع نفسه ، وهدأت الشهوة ، استيقظ الضمير الإيماني ، فأخذه إلي دائرة الاعتراف ، طالبا إقامة الحد عليه ، لقد حكم علي الفعل الذي مارسه ، بأنة رذيلة ، وكل فعل من هذا القبيل إذا تم إدراكه من قبل فاعلة ، كان هو الحاكم علي ذاته بذاته[٢] .

بل هو الذي يعرض الحكم في صورته النهائية أيضا .

وهناك صورة تتعلق بالنية التي يكون عليها صاحب الفعل نفسه ، فمن نوي أن يسرق جارة ، أو أحد الناس ، ثم قبل أن يتجه لمباشرة الفعل راودته نفسه عن أن هذا الفعل غير مقبول ، لأن السرقة رذيلة[٣] ، واستطاع ضميره صرف الشهوات من قلبه ، وعقله فتراجع عن تنفيذ ما انتواه ، حتى لا يوصف بفعل رزيل ، مع أنه الذي فكر ، وهو الذي تراجع ، ثم هو ذاته الذي حكم علي نفسه ، ومن ثم كان تراجعه ، بمثابة العمل السلبي الذي تحقق لصالحة ، ونشأت عنه نتائج إيجابية .

## ب - موضوع الحكم الخلقي

عرفت أن الحكم الخلقي ، يتعلق بتقدير الأعمال الصادرة عن الإنسان، من خلال اختيار طبيعي مدعوم بإرادة حرة ، وقصد تام ، وبالتالي فموضوع الحكم الخلقي هو كل ما يصدر عن الإنسان المسئول من أعمال تتعلق بإرادته الحرة ، وتجيء مع القصد إليها ، والتدبر الذي يعين علي إتمامها[٤] ، بجانب الروية المطلوبة ، حتى يكون هذا العمل علي وجه خاص بعيد عند الإكراه ، ومن ثم يخرج عن موضوع الحكم الخلقي كل من :

١ - الأفعال الإلهية التي تجري في دائرة سنن الله الكونية ، وما يجري من أفعال الله تعالى داخل الجوانب الحياتية ، فهي خير كلها ، عندنا نحن المسلمين ، مهما كان ظاهرها ، لأن الخير فيها من حيث لا ندري ، والله سبحانه وتعالي عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال[٥] .

---

(١) والزاني المستحل له من مرتكبي الكبائر، ففي الحديث الشريف لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن .
(٢) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصول ومستوياته ، صـ ٣٢٢ .
(٣) وقد جاءت آيات كثيرة تجرم السرقة ، وتأمر بقطع يد السارق حسب شروطه .
(٤) فإذا لم يقع استيفاء لهذه الشروط ، لم يكن الفعل الإنساني واقعا في نطاق موضوع علم الأخلاق،لأن الفعل الإنساني الذي ينعقد عليه الجزاء ، وترتبط به المسئولية هو الإرادي القصدي الاختياري ، فإذا لم يبلغ هذه الشروط لا يمكن أن يلتفت إليه من الناحية الأخلاقية .
(٥) راجع كتابنا : الايمان بالغيب وأثره علي الفكر الاسلامي ، صـ ٦١٥ ، وكتابنا : تأملات غزالية في القضايا الكلامية . صـ .

ثم أن أفعال تعالى كلها محكمة متقنة ، حتى وإن كنا لا نعلم عن ذلك شيئا ، قال تعالى ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾[١] ، وقال تعالى ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٢] ، وقال ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾[٣] .

فمثلا ما يقع في الكون من بقاء للظالمين ، وهلاك للصالحين ، وما يقع من براكين ثائرة ، وزلازل مدمرة ، وفيضانات لا تبقى ولا تذر وعواصف وبروق ، بما يحقق للعالم نكبات يطلقون عليها من باب القصور أسم الكوارث الطبيعة[٤] ، وما هي الا إبتلاءات ربانية ، كل هذه الأفعال الإلهية خير ، وأن كنا لا ندرك وجه الخير ، لأن الحكيم من أسماء الله الحسني ، والحكمة هي الإتقان في العمل علي وفق العلم ، وأفعال لله تعالى كلها حكمة .

٢- أفعال الحيوانات الأعجمية ، ذلك لأنها غير مكلفه ، ولا تدري عن أمر نفسها سوي ما فطرها الله تعالي عليه حتى تؤدي مهامها في الحياة ، طبقا لما أراد الله من كونها نعمة للإنسان[٥] ، مسخره لخدمته ، و مأكله ومشربة ورعايته ، إلي غير ذلك ، مما يجئ في وجوه التسخيرات التي عبرت عنها الآيات القرآنية .

من مثل قوله تعالي ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٦] ، والحيوان داخل في جملة المسخرين ، ومن ثم ، فأفعال الحيوان لا تدخل في نطاق علم الأخلاق ، حتى يحكم عليها ، لأن موضوع حكمه هو الأفعال الإنسانية وليس الحيوانية ، ولا الإلهية ولا ما كان من هذا القبيل .

٣- الأفعال الإنسانية اللاإردية ، وهي التي تصدر عن الإنسان في حالة الإكراه والاضطرار والإلجاء ، فإنها جميعا تفتقد الإرادة إليها ، كما لا يصاحبها اختيار ، وهي في ذات الوقت غير

---

(١) سورة السجدة : الآية ٧ .
(٢) سورة المؤمنين : الآية ١٤ .
(٣) سورة النمل : الآية ٨٨ .
(٤) القول بكوارث طبيعية يتناقض مع العقيدة الإلهية ، لان كل شيء يجري في الكون إنما هو بقضاء الله تعالي ، ومن أفعاله جل شأنه ، وهي واقعة بقدرته جل شأنه ، فلا يقال عليها أبدا اسم كوارث طبيعية، وإنما يقال سنن إلهية .
(٥) ولعل التسمية بالإنعام تحمل نفس الدلالة ، وبالتالي فهي إنعام يستفيد بها الإنسان من ألبانها ولحومها، بل يستفيد من كونها مخلوقة بالوضع الذي هي عليه ، إذ لو كان البعير مثلا يعقل مثل عقل الإنسان ، أو كان أقل من الفرس أو الحمار ، يعقل كالإنسان ، ما رضي أن يركبه بنو البشر أبدا .
(٦) سورة الجاثية : الآية ١٣ .

مقصودة[١] ، وبناء عليه فلا تدخل في نطاق الحكم الأخلاقي ، حتى تكون جزء من موضوعاته ، أو يحكم عليها من خلال أحكامه .

٤- أن الأفعال شبه الإرادية والمنعكسة من اعتبرها إرادية المطالع حكم بأنها داخلة في نطاق الحكم الأخلاقي [٢] ، ومن اعتبر المنعكسة إرادية النتائج ، رأي أنها تصلح لتكون موضوعا للحكم الأخلاقي ، ولكنها في كل الحالات واقعة في نطاق الأفعال المتنازع بشأنها بين العلماء لا المتفق حولها ، وذلك أمر مهم في الدراسات الأخلاقية والقانونية ، بل والأحكام الشرعية أيضا .

٥- أفعال غير المميزين من بني الإنسان كالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، ولا يدركون طبيعة ما يفعلون ، والكبار الذين فقدوا قدرتهم علي التميز ، وكذلك البله الذين ولدوا هكذا ، أو أتتهم هذه العلة كنتائج لعمليات غذائية أو عمليات عدوانية ، أو ظروف مرضية [٣] ، كالزهايمير ، وغيرها بالجملة ، فكل فعل صدر من غير إرادة له ، واختيار في إتيانه علي وجه التمام أو عدم ذلك ، فلا يدخل في نطاق ، أو موضوع الحكم الخلقي .

فكثرا ما رأينا ذوي الظروف الخاصة يهيمون علي وجوههم يمارسون أفعالا إذا صدرت من غيرهم حكم عليها العقل بأنها قبيحة وداخلة في مفهوم الرزيلة ، ومن ثم فلا يلتفت أحد إليهم[٤] ، ولا يفكر في إلحاق العقاب بهم ، أو إنزاله عليهم ، لأن العقاب شرع للتأديب ، وهؤلاء لا قدره لهم علي التميز ، وبناء عليه ، فلا يصلح لهم ردع ، ولا يجدي معهم عقاب ، وإنما هم بحاجة إلى الاسترحام ، ومن ثم ، فلا تدخل أعمالهم في نطاق موضوع الحكم الخلقي .

### جـ - محور إصدار الحكم الخلقي

عرفت أن الحكم الخلقي موضوعه من غير منازعة - الأعمال الإنسانية الإرادية - التي تقع لأصحابها بإختيار تام ، وقصد لذلك العمل إتيانا أو إهمالا ، لكن ما هو المحور الذي يقوم عليه إصدار الحكم الخلقي ، يا تري أهو النية المجردة عن الفعل[٥] ، بحيث تكون هي محور الحكم بالخير أو الشر ،

---

(١) وشروط قبول الأخلاق للحكم عليها ، هو كونها مرادة من صاحبها ، مقصودة له ، واقعة بإختياره .

(٢) نظرا لكونها من هذه الناحية إرادية تماما ، فالإكراه منفي عنها ، حتى وإن لم تكن بالقصد ، إذ يكتفي فيها انتفاء الإكراه والإضطرار .

(٣) وامتناع دخولها في نطاق علم الأخلاق ظاهر ، لكونها لا تتفق مع الشروط التي لا بد من توافرها حتى يتم الحكم الأخلاقي .

(٤) عدم الإلتفات إليهم لا يترتب عليه إهمال لهم أو إعلان التقليل من شأنهم ، وإنما معناه مراعاة ظروفهم بما يتفق مع طبيعتها .

(٥) النية المجردة عن العمل الأخلاقي ذهب إلي التحاكم عليها الكثرون ، ولهم شواهد ومظاهر أدلة ولكنها جميعا موضع الأخذ والرد .

الفضائل أو الرذائل . أم العمل الذي تم علي وجه واضح [١] ، أن النية والعمل ، كلاهما متى وقع الفعل بهما تعلق الحكم الأخلاقي بالمسألة ، وصار بحيث تتبعه المسئولية الأخلاقية[٢] .

**مراحل الفعل الإنساني**

تتعدد وجهات النظر في المسألة، كل ذاهب إلي اتجاه يراه قائما عنده ، وليس لديه استعداد للتنازل عنه ، أو التفاوض فيها ، وحتى يكون هذا المحور واضحا محررا من النواحي التي يجيء معها النزاع ، فمن الضروري الإلماح إلي المراحل التي يتحقق من خلالها العمل الإنساني في المجال الخلقي .

حيث ذهب الباحثون إلي أنها أربعة ، تبدأ بالاتجاه النفسي أو القلبي الخالص الذي يتعلق به أمر الإدراك ، ثم تنتهي بالتنفيذ الفعلي ، علي أرض الواقع ، وها هي المرحل في شيء من التفصيل [٣] :

١ ـ الإدراك : وهو عملية داخلية وجدانية فكرية تجول بخاطر هذا الإنسان من حيث تفتح له باب الإحتمال لقيامه بهذا العمل من غير أن يقع له شك فيه ، وهذا الإدراك شخصي ، ذاتي ، نسبي ، يكون متناميا في شخص متدانيا في أخر [٤] ، طبقا لظروف كل فرد واستعداداته [٥] .

فلو كان إنسان ما سائرا في طريق ما ، ثم فوجيء بسيارة تنحرف ناحيته مع مسافة بعيدة لكن بسرعة عالية ، فإن أول عملية عقلية ترد عليه ، هو شعوره بإنحراف السيارة نحوه ، وهذا معني الإدراك ، وقد يسمي في علم النفس بالشعور العام [٦] .

ومن ثم يستلزم ذلك الإدراك سلامة الحواس التي يتوقف عليها فالأعمى لا يدرك ذلك ببصره، وفاقد الوعي أو القدرة على التميز غير قادر هو الأخر علي إدراك السيارة المنحرفة ، كما لا يدرك أنه قد يترتب علي هذا الإنحراف غير المقصود وقوع الهلاك له [٧] ، ومن هنا فلا يكون لأي من

---

(١) يخرج من هذا القصور الأعمال التي تتم من غير قدرة علي نسبة شيء منها إلي فاعل بعينة من هنا فهي أعمال إنشائية غير واضحة .

(٢) وبناء علي هذا الرأي تظهر المسألة الأخلاقية ، في صورة تبعية ، لا أصلية لأن المسئولية التزام من الفرد ذاته بأن في قدرته الوفاء بما الزم به ، أوعلي الأقل يملك هذا الوفاء ، لمزيد من التفاصيل راجع للدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن أثناء علي الحديث عن المسئولية .

(٣) راجع هذه المراحل في كل من : تأملات في فلسفه الأخلاق ، صـ ٢٢ / ٢٥، ودراسات في علم الأخلاق، صـ ١٧ / ١٨ .

(٤) هذه العمليات الإستعدادية تجيء متعددة في كثير من الأحيان ، ثم هي تتفاوت مع بعضها إلي الحد الذي يجعل الرائي لها يظنها ذات وحدة ثابتة ، وما هي بشيء من ذلك .

(٥) وردت مادة الكلمة في القرآن الكريم حوالي أثنتي عشرة مره ، راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة درك ، صـ ٢٥٦ .

(٦) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٧١ .

(٧) الحكم علي هذا الانحراف أو ذاك بأنه مقصود أو غير مقصود يرجع إلي ضمير قائد المركبة الذي يملك الإجابة علي هذا التساؤل .

هؤلاء اعتبار ، عندما نريد تحديد الذي يتأثر بالعمليات العقلية والفكرية ، التي تصنع الإدراك في الإنسان أو تنبه إليه ٠

يقول الدكتور مزروعة فأول مرحلة يبدأ بها العمل الإنساني إنما هي الإدارك ، أي أدراك الإنسان لذلك العمل الذي يحتمل قيامه به ، وعلي سبيل المثال لو فرضنا أن شخصا قابلك في الطريق ، وطلب منك صدقة ، فأول شيء يحدث هو أن تدرك أن شخصا يطلب منك صدقة [١] ، فعملية الإدارك هذه تكون بمثابة آلة التنبيه التي تحدث في العقل استعداد للفعل أو رد الفعل ٠

ومن ثم فقد صار الإدراك يمثل جزء من العمل الإنساني علي وجه العموم في كافة الأفكار ، والأعمال الاختيارية ، وما ذلك إلا لأن الإدراك في حد ذاته فهم معين يمثل عملا عقليا خالصا[٢] ، ولذا فان الفعل يكون مسبوقا به ٠

٢- الموازنة : وهي عملية نفسية عقلية ذاتية ، تحصل داخل الإنسان يقرر من خلالها الاستعداد للفعل أو الانصراف عنه ، بمعي أن هذا الإنسان يحدث له تأمل عقلي داخلي سريع ، أي الأمرين يباشره ، أيفر من السيارة المقبلة إلي أية ناحية ،أو يتريث فليس قائدها متهورا[٣] ٠

وفي مثال طالب الصدقة توجد في الداخل موازنة تحتاج إلى الترجيح ، أو تمهد اليه ، أيتصدق أم لا يتصدق ، وعلي كل الحالات فالموازنة المراد بها الوصول إلي نتيجة ما قبل الترجيح ، بين فعل الشيء المدرك أو تركه [٤] ٠

لا شك أن الموازنة ، كعملية معرفية تختلف عنها من الناحية الأخلاقية ، لأن مدارها في المعرفة الإنسانية قائم على طبيعة التساوي بين معرفتين فأكثر ، أما هي في الأخلاق فقائمة على الحكم بالخير أو الشر ، الصلاح أو الفساد[٦] ، ومن هنا اختلفت صور الموازنة اختلافا كبيرا في الدراسات العلمية والنظرية، كما كشفت عن وجود العديد من العلاقات البينية التي يمكن الرجوع إليها في سهولة ويسر ٠

---

(١) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٧ ٠

(٢) ومن معاني الكلمه درك في اللغة الوصول ، والنضج ، وبلوغ الغاية،والفهم بجانب المتابعة ، والتلاصق والتعويض والمنزلة أيضا،لقوله تعالي ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ سورة النساء الآية ١٤٥، وراجع المعاني اللغوية في أساس البلاغة باب الدال ٠

(٣) راجع في هذا الشأن كتابنا : أوراق مطوية في النصوص الفلسفية ، تري أن التهور لا يحكم به لمجرد أن صورة الفعل جاءت علي ذات الناحية التي يمكن أن يكون فيها القصور ذاته ٠

(٤) المادة اللغوية للكلمة تفيد المقابلة بين الشيئيين ، يقال وازن بين الشيئيين بمعنى قابل بينهما للمفاضلة والترجيح ، كما يقال وازن الشيء ومعناه ساواه وعادله في الوزن ، راجع القاموس المحيط والمعجم الوجيز ٠

(٥) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٥٣ ٠

(٦) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٥٣ ٠

لكن الموازنة هنا تقوم على الإدراك ولا تسبقه ، بمعنى إذا لم يكن إدراك للفعل أو العمل الإنساني ، ولو من الناحية الصورية لم تكن هناك جدوى للموازنة بل لم يكن لها وجود أصلا بدليل أن من يعرض عليه شراء منزل ما ويعرض عليه في ذات الوقت شراء منزل أخر ، فأنه يوازن بين المنزلين ، ويحاول اختيار الأنسب له [١]، طبقا لما يتفق مع ظروفه المالية ، والاجتماعية ، والاقتصادية أيضا .

٣- الترجيح

وهي عملية تتم داخل إطار عقلي ، ونفسي ، واحتياجي ، وإمكانياتي ، أنها تجمع بين المرحلتين السابقتين وتضيف اليهما ما يمكن أن تضيفه ، ولذا فهي تأتي متأخرة عن مرحلة الموازنة بعيدة عن الإدراك بأكثر من مرحلة ، لأن من إدراك السيارة المنحرفة ، وازن بين الهرب من أمامها والتريث . فإنه يتخذ قرار داخليا ، يقوم علي الترجيح[٢] ، ويعتمد في خطته العزمُ والتصميم ، ومن هنا يفكر في الطرائق التي تلي هذه المرحلة .

يقول الدكتور مزروعة ، مرحلة الاختيار والتصميم هي مرحلة تلي الموازنة ، فأنت بعد أن أدركت أن ثمة من يطلب منك صدقة ، وبعد أن وازنت بين الفعل والترك تأتي مرحلة الترجيح والاختيار ، والعزم والتصميم ، وذلك بأن تختار وتنوي بذل الصدقة لطالبها [٣] ، ومن ثم تكون عملية الترجيح داخلة في نطاق العمل العقلي الوجداني أيضا، بل أحد الخطوات الهامة في بناء الحكم الأخلاقي .

٤- مرحلة التنفيذ

وهي التي يتم فيها تحويل الأفكار الرأسية إلي واقع عملي ، يتم التعامل به من خلال أطار تحصيلي ، بمعني أ العمل الأخلاقي لا يكون قد وقع حتي يتم الحكم عليه بالخير أو الشر ، إلا بعد إتمام المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة التنفيذ ، أو التطبيق العملي [٥] ، يقول الأستاذ زكي طه أن عملية التنفيذ في الفعل الأخلاقي هي القمة ، أو غاية ما يمكن الوقوف عليه ، وهى في ذات الوقت القضية الأخيرة في هذا المسلسل التتابعي .

نأتي مرة أخرى إلى محور إصدار الحكم الأخلاقي ، ولا شك أننا هذه المرة لن نتحدث عن المراحل التي تسبق الفعل ، ولكننا سنأخذ في الحسبان ما يقوم عليه الحكم ، لا الفعل ، وهنا نجد في المسألة ثلاثة فرق ، مجملها ما يلي :

---

(٢) فكرة الأنسب له ذات اتجاهات عديدة ، فقد يكون الأنسب من الناحية الشرعية ، أو الناحية العملية ، أو الناحية الأخلاقية ، أو غيرها ، ومن ثم تتعدد الاتجاهات .

(٣) راجع في هذه الفكرة كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٣١٥ .

(٤) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ١٧ .

(٥) فالمراحل السابقة تكون بمثابة الخطوات التمهيدية ، لكافة الأعمال التي تأتي بعدها ، ومن ثم لا تنفصل عنها ، لأنها تأتي على سبيل الإرتباط التتابعي .

**الأول : أصحاب القول بالنية**

**أ - عرض الرأي**

يرى أصحابه أن النية هي المحور الذي يقوم عليه الحكم الأخلاقي ، وأنه لولا وجود النية في الفعل أو العمل ما كان هناك حكم أخلاقي أصلا ، وقدموا لذلك عددا من الحجج و الأدلة ، عمادها :

**١ - الظواهر النقلية**

ويعنون بها تلك التي تجيء في النقل المنزل ، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، من مثل قوله تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[١] . وفهموا أن ما كسبت قلوبهم هو الذي انعقدت عليه النية ، يقول العلامة ابن عاشور أن آية البقرة جعلت العفو مقابلا لما كسبه القلب ، وأثبتت المواخذه لما كسبه القلب ، لأنه الذي عزمت عليه النفس[٢] ، وبالتالي ، فعزم النفس هو ذات النية .

ثم أن النية هي حركة تنزع بها الإرادة نحو شيء معين ، سواء أكان ذلك لتحقيقه أو لإحرازه[٣] ، وهى في ذات الوقت تمثل الشعور النفسي الذي يصحب العمل[٤] ، اعني أنها موقف عقل يقظ ، حاضر فيما يؤديه ، معنى به على وجه من الوجوه[٥] .

وقوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات ، إنما لكل امرئ ما نوى[٦] ، يقول الدكتور دراز هذا القول التي يترجمونها عادة بمعني أن الأعمال لا قيمة لها إلا بنواياها[٧] ، هي في الواقع أكثر مضمونا ووضوحا من ترجمتها ، أنها تقول بالحرف الواحد أن الأعمال لا توجد أخلاقيا إلا بالنوايا[٨] ، والعبرة قائمة في المحصور بصورتيه ، الأعمال والنيات ، وهذا واضح في الدلالة على أن النية هي التي يقوم عليها الحكم الأخلاقي .

قال العلامة البيضاوي النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض، من جلب نفع،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٥ .

(٢) العلامة الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ، جـ٢ ، صـ ٣٦٨ ـ ط. الحلبى .

(٣) الدكتور محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٢١ .

(٤) وهذا يتعلق بالنية المرتبطة بعلم الأخلاق ، لا تلك التي يرتبط بها علم النفس للفرق الواضح بينهما

(٥) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٢٤ .

(٦) والحديث روي عن سيدنا عمر بين الخطاب ﷺ هو أول حديث في كيف بدأ الوحي ، واستغرق في فتح الباري ، جـ ١، صـ ٦٤/٤٦ ، ط. دار الغد العربي .

(٧) أفادت العبارة القصر مع الحصر ، فجعلت كل عمل مرتبطا بالنية التي تتفق معه ذاته،لا مطلق النية،وتلك مسألة دقيقة وعلي جانب كبير بين الأهمية في المجال الأخلاقي والتفسيري أيضا،بل والنفس كذلك .

(٨) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٣١ .

أو دفع ضرر حالا أو مآلا ، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه[1]، وعلي هذا فالنية هي التي يتم عليها أمر الحكم الأخلاقي طبقا للظواهر النقلية من الناحية التي ترجح اتجاه أصحابها ٠

٢ ـ الشواهد الشرعية

ومنها ما إنتظمت فيه الأحاديث الأربعة :إنما الأعمال بالنيات ، والحلال بين والحرام بين ، ومن حسن إسلام المرء تركة ما لا يعنيه ، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضي لنفسه ، وقد نقلها شعرا الأستاذ طه عبد الرؤف ، فقال

| | | |
|---|---|---|
| عمدة الدين عندنا كلمات | ∴ | اربع من كلام خير البرية |
| أتق الشبهات ، وازهد ودع | ∴ | ما ليس يعنيك واعملن بنيه [2] |

من هنا تبين أن أصحاب هذا الإتجاه يحكمون علي الفعل أو العمل الأخلاقي ، بأنه خير أو شر فضيلة أو رزيلة ، بالنظر إلي غرض الفاعل ونيته ، فما دام الفعل قد توفرت فيه النية والقصد إليه ، صار قابلا للحكم علية من الناحية الأخلاقية ، ولا اعتبار للفعل ذاته ، أو ما يترتب عليه ، أنهم قرروا محاكمة النية ، ولم يتجهوا لطبيعة الفعل أو الفاعل ، إلا اتجاها صوريا ، وقد لا يكون مرارا لديهم من الناحية الأخلاقية ٠

٣ ـ الشواهد الإنسانية

يعتقد أصحاب هذا الإتجاه ، أن كل إنسان منا ، إذا أراد القيام بعمل ما ، فان أول ما يواجهه هو التفكير فيه ، مادام العمل إراديا ، قصديا ، ويظل هذا التفكير قائما طالما كان الأمر في الدائرة الرأسية [3]، فإذا فرغ من عملية التفكير، انعقدت نيته عليه ، وبالتالي ، فإذا هم بالتنفيذ ، فإنما يلبي احتياجات النية التي عقد داخله عليها ٠

فمثلا :إنسان ما أراد إطعام مساكين ، فإن عملية التفكير تتعرض بداخله لمجموعة التساؤلات ، من هم هؤلاء المساكين ، وفي أي الأماكن يسعى إليهم ، وكم عددهم ، وما هو الطعام الذي يناسبهم ويحقق الهدف من إطعامهم [4]، وأخير الكيفية التي يتم بها أداء ذلك العمل علي وجه تتحقق معه مصلحتهم ، ويرضي الله رب العالمين ٠

---

(١) العلامة ابن حجر العسقلاني : فتح البارح بشرح صحيح البخاري ، المجلد الأول ، صـ ٥٣ ٠
(٢) الأستاذ طه عبد الرؤف سعد : تحقيق فتح الباري ، جـ ١ ، صـ ٤٩ ٠
(٣) لأن الفكرة تظل تجول في رأس صاحبها ، تبحث عن مخرج لها ، ولا يكون ذلك إلا بعد استوائها ، لأنها إذا لم تنضج فلا تكون لها قدرة علي الخروج عن هذه الرأس حتى تصل للغير ٠
(٤) هذه الأمثلة تتكرر في حياتنا اليومية ، ولا يوجد شاهد واحد يعكسها أو يرفضها ، بل يمكن القول بأنها ظاهرة تكرارية ٠

فإذا انتهي من ذلك كله ، وأمكنه أن يقف علي إجابات محددة ، لهذه التساؤلات الجوانيـة [١]، درس إمكانيته دراسة تفكيرية راسية أيضا ، مـن حيـث المقـدرة الماليـة ، والقـدرة التوصـيلية ، بجانـب الإمكانيات الدفعية ، فإذا أنتهي من هذا ، وانعقدت نيته علي الفعل ، فإنه يستطيع إتمامه بشـكل آمـن ، وفي صورة سليمة •

وحتى إذا لم يقم به ، فإن الحكم الأخلاقي عليه هو أنه حسـن النيـة [٢] ، وبالتـالي فالنيـة سابقة على لعمل ، وهي الأصل الذي عليه مدار الحكم الأخلاقي ، وفيها يجري قانونـه ، ويمكـن الحكـم علي هذه النية بأنها حسنة ، ويصدق فيه المثل القائل نية المرء الصالحه هي أساس عملة الصالح •

وإذا أردنا تقديم مثال علي سوء النية ودورها في العمل الأخلاقي ، والنتـائج المترتبـة عليـه ، فليكن هو مثال ،الطبيب الذي يقوم بعمليات التفريـغ أو الإجهـاض مـن النسـاء الحوامـل اللـواتي يـردن التخلص من أثار الجريمة مثلا [٣]، حتى تظل جرائمهن بعيدة عن الآثار الإنجابية ، بحيث تتم المسائلة عليها ، وفي نفس الوقت يمارسنها بغاء ، أو إشباعا لنزوات شيطانية ، أو استجابة لشـهوات دنيئـة ، وهـو يعرف ذلك منهن ، فيطالب بأجور عالية ، ويسـتكتبهن إقـرارات تخليـة مـن المسـئولة القانونيـة ، مـاذا يفعل [٤].

إن أول خطوه تـدور بذهنه ، هي التفكير في سلطه القانون المدني ، والتفكير في طريقـة القيـام بعملية الإجهاض ، والتفكير في كيفية إخفاء أثار الجريمة مـا لـو هلكـت هـذه المـرأة ، وذلـك ممـا يمثـل عمليات فكرية خالصة ، تنزع داخل نفسه ، أو تعتصم بنيته ، لقد أتخذ كافة التدابير التحتية السابقة علي عملية التنفيذ ، وصارت المسألة لديه واقعة في نطاق مباشرة الفعل [٥] •

لكن الضحية ، أو المرأة الحامل سفاحا ، تـراجعت في قرارها ، أو أن جهاز الشرطة قام بمهاجمة

---

(١) هذه الجوانية التي نتحدث عنها هنا : إنما هي الأفكار الداخلية ، أما الجوانية كطائفة من الطوائف الفلسفية فإنها غير الجوانية أحدى التيارات الفكرية ذات الاتجاهات الغربية •

(٢) الوصف بالحسن أو القبح ، الخير أو الشر ، مما يجري داخل الحكم الأخلاقي في هذا العلم المعياري ، وأعني به علم الأخلاق النظري •

(٣) هذه الجرائم كثيرة ، وفضائح أصحابها لا تقف عند حد ، راجع كتابنا : التيارات الفكرية المعاصرة ، صـ ٣١٥ ، وكتابنا : أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ، صـ ١٢٧ •

(٤) هذه الأعاجيب التي يمارسها أصحاب الفكر الساقط ، الذين يبحثون عن الثراء المادي ، من غير اعتبار لشيء أخر ، يعيشون في عذاب من الضمير الأخلاقي ، وربما حاولوا الاعتذار فيما بعد عن هذه الأفعال ، لكن قد يكون أوان الاعتذار قد فات ، والجرائم أكثر من تحصى ، ومداخل الشيطان كثيرة •

(٥) عمليات الاستعداد لارتكاب جرائم التفريغ والإجهاض متنوعة ، وتسبقها نية الفعل على طريق واضح ، ولا يمكن إنكار ذلك بحال من الأحوال •

هذا الوكر الخبيث ، فلم يتم الفعل فما هو الموقف ؟ كان الحكم الأخلاقي عليه أنه سيء النية ، شرير الخلق ، لأن النية لديه قد إنعقدت والفعل لم يتم لأمر خارج عن أرادته هو .

ويعتقد هؤلاء أن النية لها دور إيجابي ، وتأثيرها أساسي ، فالغائية في الأعمال تسبقها إرادة العمل التي هي الأصل ، ويعلق الدكتور دراز قائلا أن قيمة الفكرة تنبع ، هنا فقط ، من الطريقة التي نحكم بها علي مشروعاتنا ، حسب اتفاقها واختلافها مع القانون ، ولما كانت أحكامنا الأخلاقية لا تتوافق بالضرورة مع واقع الأشياء ، فقد يكون بينها وبين الإرادة فاصل ، حين تسعي الإرادة إلي بعض الأمور علي أنها مطابقة ، أو مناقضة للواجب ولكنها لا تكون كذلك في الواقع [١] .

**مناقشة الرأي :**

١ - من الواضح أن أصحاب هذا الفريق ، قد أقاموا رأيهم علي أن النية تصلح لإنشاء عمل أخلاقي كامل ، ولكن أليست هذه النية أمرا قلبيا ، لا يمكن لأحد التعرف عليه ، أو التعامل معه - خارج صاحبه - إلا الله تعالي ، والحكم الأخلاقي لا يتعلق بالنية ، وإنما بالأعمال الإرادية الاختيارية[٢] ، وهل يمكن إدراك وجود النية منفردة عن الفعل ، في صورة من الصور ، بل أين هذا الوجود المعتبر للنية بعيدا عن عقل الناوي ووجدانه ، أو دائرة إدراكه ، بحيث يظفر الأخلاقيون بها منفردة ، ويتمكنون من هذا الاستدراج لها حتى يصدروا أحكامهم بشأنها [٣] .

٢ - وإذا كان الثابت هو أن النية كلها القلب ، والقلب نور من أنوار الله تعالي ، لا يطلع علية إلا الله ، فان الذي يصدر عن النية ، وتعبر عنه المظاهر الخارجية المتمثلة في السلوك الإنساني ، لا يمكن حسبانه هو النية ، أو المعبر عنها ، بقدر ما يتم التعامل معه علي أنه شيء وراء النية [٣] ، ولا عبرة بالإجتهادات الفردية ، أو الجماعية التي يصوغونها أو يعولون عليها ، لأنها مجرد مزاعم فقط .

٣ - أن حسن الأعمال أو قبحها ، لا يرتبط بالنية في جوهرها ، وألا كان المطلوب هو النية وكفي ، وهل يمكن أن يقول المحسن نيتي أن أكون محسنا ، أو الخير يقول نيتي أن أكون خيرا ، حتى يتم

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٣٧ .

(٢) وبناء عليه فان الذي يحكم علي أعمال القلوب والنوايا هو الله سبحانه وتعالي ، وليس لأصحاب الأحكام الأخلاقية أن يتناولوا هذا الجانب في شيء أبدا .

(٣) لا يستطيع الأخلاقيون القيام بهذا العمل ، ولو قاموا به ما قبله أحد منهم ، لان مداركهم بشأنه تكون مجرد مزاعم كاذبة ، وأحكامهم عليه تكون فاسدة .

(٤) هذا الحكم علي أن الصادر ليس هو النية ولا المعبر عنها ، قد توجد له شواهد عديدة ، ولكنها لا تبلغ حد التفرد ، وإنما هي قابلة للمشاركة .

حكم عليه بالخير ، وهل سيقول الشرير أيضا أن نيته قائمه في أن يكون شريرا [١]، لا شك أن كل الطغاة، وجميع الجرمين سيجدون في هذه النية ألف منفذ لهم حتى لا يتحملوا أخطاءهم ، ولا يحاسبوا على جرائمهم ، بل، سيقولون أن نياتنا حسنه ، ولا تنظروا لأفعالنا ، مهما كان سيئة .

٤ - أن المخطئ في نيته ، كالحال مع أحاد المنافقين الذين يظهرن بخلاف ما يظهرون ، ويتحدثون بغير ما يريدون ، هل يمكن محاسبته علي نيته ؟ ، وهي ما تزال حبيسة عقله ، قائمة في وجدانه : وإذا كان الرسول ﷺ لم يطلع علي نوايا المنافقين ، ولم يحكم علي سلوكياتهم من خلالها ، حتى جاء الوحي فأبلغه خبرهم [٢]، فهل يكون لأحد بعد ذلك الحق في ادعاء أن الحكم الأخلاقي يقع علي النية .

٥ - أن محاولة محاسبة الناس علي نواياهم ، وما يجري في طواياهم ، كان سمة العصور الوسطي : وقد أخفقت في إبراء ذمة الذين قاموا بها ، من الجرائم التي ارتكبت أبان هذه العصور التي امتدت قرابة ثمانية قرون أو تزيد ، فهل لجأ أصحاب المذاهب الأخلاقية إلي هذه الصورة التي أعلنوا سلفا رفضهم لها ، واستنكارهم الأدوار التي قامت بها [٣] ، أم أنهم ترددوا في الذي منه هربوا .

٦ - ظهور حركات إستنفارية ، حركت الإتجاهات الأخلاقية ناحية جديدة ، عمادها النية ، وطريقة تناولها من الناحية الشكلية ، فأدى ذلك كله لانتشار موجة من العنف والشك ، مغلفة جميعها بالريبة ، مع القلق والاضطراب [٤] ، لأنها في الوقت الذي ترفض فيه الأعتراف بوجود قوي روحية ، قادرة علي القيام بواجباتها ، تجئ فتقرر ضرورة محاكمة النية ، وتجريم الاتجاهات التي تقوم بها .

٧ - أن تعريف النية من الناحية الاصطلاحية لم ينل اتفاقا بين الدارسين ، فكيف يتم التعامل معها وحدها، وهي في الأصل غير معلومة ولا محددة المفهوم ، ومازالت لمصطلح محل جدل بين المثاليين من جهة ، والبراجماتية من جهة أخرى ، ثم أن القاعدة الأساسية ، هي أن يتم الحكم علي الشيء

---

(١) هذا الإقرار غير وارد، إلا في مجال الجدل ، وغير معمول به حتى في مجال التبريرات ، لأن هذه التعبيرات تمثل صورة خداعية لا حقيقة واقعية .

(٢) الآيات التي تتحدث عن النفاق والمنافقين في القرآن الكريم ، وإن كانت قليلة العدد بالنسبة لمجمل آيات القرآن الكريم ، إلا أنها كشفت عوراتهم إلي ابعد مدي ، وكيف لا وفي القرآن سورة المنافقون بأكملها تتحدث عن ابرز سماتهم وأخص خصائصهم .

(٣) محاكم التفتيش من أسوأ ما حدث في العصور التاريخية التي ظهرت في أوربا ، وكان لها دور بارز في التخلف الاجتماعي والحضاري ، بل والاخلاقي والقانوني أيضا ، بجانب آثارها علي العقائد التي يدين بها أصحابها أنفسهم .

(٤) يرجع الكثيرون ظهور هذه الحركات إلي عمليات غريبة عن السلوك السوي ، إلي آخر غير سوي ، ومع هذا ، فهي أمور تحتاج المزيد من المراجعة .

الذي يمكن الوقوف عليه ، والوصول إليه وهذا غير متوفر بالنسبة للنية لأنها مجردة وغير مرئية ، ولا يمكن التعامل معها إلا من خلال ما يترتب عليها ، ومن ثم فلا اعتداد بالآراء التي تحدثت عن أفرادها بالحكم عليها ، بعيدا عن العمل الذي يجري علي الجوارح .

يقول الدكتور مزروعة ، أن جمهور الأخلاقين يذهبون إلي أن الحكم الأخلاقي أنما يصدر بناء علي نية العامل وقصده ، دون إعتبار لنتيجة عملة ، فإذا كانت نيتة خيرة كان رجلا خيرا ، ولو نتج عن عمله شر ، وأن كانت نيتة سيئة كان رجلا شريرا ، ولو نتج عن عمله الخير[١] ، وهذا الرأي الذي اختاره جمهور الأخلاقيين غير صحيح علي إطلاقه .

ويعلل هذا الاستنتاج بقوله " أن النية ، مع الاعتراف بأن لها دورا كبيرا في الحكم الأخلاقي ، لا تنتج أي عمل بمفردها ، ولكن بجانب النية لا بد من وجود الآت ووسائل يتحقق بها العمل ، ويخرج إلي حيز الوجود [٢] .

فلو أن طبيبا قصد علاج المريض ، وكانت نيتة خيرة وصالحة ولكنه لم يستحضر الأدوات اللازمة للعملية الجراحية ، أو استحضرها ، ولكنه أهمل في تعقيمها ،أو أهمل في استحضار عقار ضروري لإجراء هذه العملية ، ونتج عن هذا الإهمال وفاة المريض ، فهل تحكم على الطبيب في هذه الحالة بأنه خير لمجرد أن نيته خيرة وقصده نبيل ؟ " [٣] .

ليس هناك أدني شك ، في أن عمل هذا الطبيب رغم نيته الحسنة ، وقصده النبيل شر لا خير ، وليس من شك في أن علم الأخلاق يدين مثل ذلك الطبيب لإهماله وتقصيره في أداء وأجبه ، ذلك التقصير الذي نتج عنه وفاة المريض [٤] ، ويدينه مرة أخرى حين يحكم علي هذا الفعل بأنه قبيح .

٨ ـ أن هناك مشكلة تحتاج المزيد من الدراسة تتعلق بالحكم علي الإنسان وموقفه من الحشر في الآخرة ، بناء علي مستوي نيته ، ففي الأثر يحشر المرء علي نيته ، فان كانت صالحة حشر مع الصالحين ، وأن كانت فاسدة حشر مع الأشرار الفاسدين[٥] ، وهذا يؤدي إلي اعتبار النية ، والنظر إلي وضعها الأساسي ، المرتبط بالثواب أو العقاب القائم علي الجزاء الاخروي .

---

(١) أن المحاكمة هنا منصبة علي النية ، وهذه التساؤلات مرتبطة أشد الارتباط ، برفض ذلك الاتجاه ، أو علي الأقل تكشف عن وجود القصور العديدة بشأنه .

(٢) دور الوسائل والآلات هنا دور مساعد ، ولكنه ليس أصليا ، ومع هذا فقد يتحول الأمر حين يصير الأصلي هو التبعي ، والمساعد هو الأساس ،إذا رجعنا إلي دائرة الناتج عن النية ، أو الفعل الذي تم .

(٣) ولن يتسامح معه أحد ، مهما كانت اتجاهاته الأخلاقية ، ولسوف يهمون إلي إصدار أحكام عليه ، ربما تعلقت بحياته وبيئة ومروءته ، ولن تقتصر علي الجانب الأخلاقي وحده .

(٤) الدكتور محمود مزروعة : دراسات في علم الأخلاق : صـ ١٩ / ٢٠ .

(٥) وقد جاءت آثار كثيرة تتحدث كلها عن هذا الجانب ، منها يحشر المرء من أحب ، حيث لا يكون هناك صورة للهرب أو التخفي ، وإنما كل شيء يتم طبقا لما وقعت به الخواتيم .

كما أن الفقهاء من أهل الإسلام وقفوا للنية من الجهات العديدة ، وأن الكثيرين منهم قد اعتبروا النية هي المعيار حتى أثناء الحكم علي الثواب أو العقاب ، أو تناول الحكم بالخير والشر [١] ، وذلك لوقوفهم علي جملة من الآثار ، استقامت صحتها لديهم ، ومن ثم فلم يكن لديهم مانع من قبولها ، والأخذ بها في الحكم الخلقي أيضا .

**الفريق الثاني : أصحاب ناتج العمل ودقته**

**أ - عرض الرأي**

يتجه أصحاب هذا الرأي إلي أن النية وحدها لا تكون كافية أبدا ، في إصدار حكم أخلاقي ، وإنما ناتج العمل ودقته هما المعيار ، لأن النيات مسائل غيبية بعيدة عن ميدان الحكم ، فإذا وقع إصدار حكم بها اليوم ، كان عرضه للتخلص منه في الغد ، وإنما الذي عليه المعول ، هو العمل الإنساني الذي يتم بدقة شديدة ، وقدموا لذلك عدة حجج :

**الأول : الظواهر النقلية**

ويعنون بها ما جاءَ ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، بخصوص ترتيب الحكم الخلقي علي العمل المؤدى ، من ذلك قول تعالي ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [٢] .

وقوله تعالي﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [٣] .

وقول تعالي ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [٤] ، وقول تعالي﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [٥] .

وقوله تعالي ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٦] ، إلي غير ذلك من الآيات القرآنية التي ذكرت العمل ووصفته بالصالح تارة وغيره أخري ، و ربما جاءت

---

(١) راجع كتب : الفقه المذهبي حول اعتبار النية في الأحكام الفقهية ، وكذلك المؤلفات الأصولية في هذا الشأن .

(٢) سورة الروم : الآية ٤٤ ، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تقرن بين الإيمان بالله تعالي ، والعمل الصالح والجزاء المترتب علي ذلك في الدنيا والآخرة .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٣٠ .

(٤) سورة فصلت : الآية ٤٦ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ١٣٢ .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ٤ .

الآية الواحدة جامعة بينهما فدل الأمر علي أن العبرة في الحكم الخلقي هو العمل وليس النية ، نظرا لإرتباط الجزاء بالعمل في الآخرة .

من ذلك قوله تعالي ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١)، قال الشيخ البروسوي لا نجعل المؤمنين المصلحين في الأرض كالمفسدين بالكفر والمعاصي ، فلو بطل البعث والجزاء، كما يظن الكفار، لا ستوت عند الله تعالى حال من أصلح ، ومن أفسد ، ومن سوي بينهما ، كان سفيها (٢)، والله تعالي منزه عن السفاهة، فإنما بالإيمان والعمل الصالح يرفع الله المؤمنين ، إلي أعلي عليين ، ويرد الكافرين إلي أسفل السافلين (٣) .

والواضح من هذا كله أن محور الحكم علي الأخلاق ، يقوم نوع العمل وطبيعته ، فأن كان صالحا وصف به، وحكم عليه من خلاله ، وأن كان حسنا وصف به وحكم عليه من خلاله ، فالعبرة بالعمل الأخلاقي في جميع الأحوال ولا شيء وراءه ..

٢ - الشواهد الشرعية

ارتبطت جمله العبادات ، بل والتكاليف في الدين الإلهي بالعمل ، حتى عرفت في كثير من المؤلفات القديمة بإسم التكاليف العملية ، لان معيار الحكم فيها يدور حول العمل ، فالصلاة في الإسلام عبادة عملية ، وركن النية فيها لا يكفي عن أدائها ، لقوله تعالي ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٤) .

قال العلامة النسفي أقيموا الصلاة التي فرضها الله عليكم ، وزكوا الزكاة التي أوجبها الله في أموالكم ، وأركعوا مع الراكعين لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم (٥)، وذلك كله يمكن أن يؤدى في جماعة، فيكون الثواب عظيما والأجر جزيلا ، ومن ثم فالعبادة لا بد فيها من العمل .

وقوله تعالي ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ

---

(١) سورة ص : الآية ٢٨ .
(٢) هذه لصورة لثالثة قائمة على النظام الثالث الذي يمكن أن تفرضه الضرورة أو الأحكام العقلية .
(٣) العلامة البروسوي : تنوير الأذهان ، المجلد الثالث ، صـ ٣٦٥ ، ويقول أعمل أن الله تعالي سوي بين الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا ، بل الكفار أوفر حظا من المؤمنين ، لأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة لكن الله جعل الدار الآخرة للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، وهم المؤمنون المخلصون المنقادون لله ولأمره ، فإذا ترقي الإنسان عن الهدي إلي الهوي ، ومن الفجور إلى التقوى أخذ الأجر بالكيل الأوفى .
(٤) سورة البقرة الآية ٤٣ .
(٥) الإمام النسفي : تفسير النسفي ، الجزء الأول ، صـ ٤١ .

توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ [١] ، قال العلامة أبو حيان الصلاة والزكاة هنا المراد بهما الطاعة لله وحده ، وأن الله تعالي كني عن الطاعة لله تعالي بالصلاة والزكاة ، اللتين هما أعظم أركان الإسلام [٢] .

فثبت أن المعيار في أداء التكاليف الشرعية هو العمل ، بل هو المحور الذي يجب الإصغاء إليه ، ولا مكان للنية فيه إلا في صورة الاستعداد للفعل ، فهي ممهدة له ،وليس صانعه للفعل ، إذ العبرة بالعمل، وهو الأصل ، فإذا كانت النية معه ، فقد جاءت تابعة أو سابقة ، لكنها ليست أساسية .

يقول الدكتور مزروعة أن هذا الفريق يجعل أساس الحكم الخلقي أنما هو نتيجة العمل فقط بصرف النظر عن النية والقصد، فإذا كانت النتيجة حسنة كان العمل خيرا ، وأن كانت النتيجة شرا كان العمل شرا ، أيا كانت النية والقصد ، وهذا الفريق يدعمه الفيلسوف باسكال ، وحجة هذا الفريق فيما ذهب إليه ، أن النية أمر مغيب ، لا سبيل إلي الإطلاع عليه و معرفته ، فإذا جعلناه أساسا للحكم الأخلاقي فان هذا يعني أننا لن نستطيع إصدار حكم أخلاقي أبدا [٣] .

صحيح أن الشواهد الشرعية قرنت العمل بالوصف الصالح ، إذا كان علي ما يوافق الشرع ، كما وصفته بالسيئ ، أو الفاسد أو الشر متى جاء علي ما يخالف أوامر الشارع ، ولكن هذه الظواهر لم تتعرض للنية علي أساس أن النية مسألة سابقة [٤]،ولا يتم العمل الإرادي الإختياري إلا إذا كان مقترنا بالنية ، حتى وان لم يتلفظ بها ، وتلك مهمة شرعية .

### ٣ - الشواهد المعيشية الإنسانية

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العمل لا يكون خيرا بدا ، إلا إذا كان موافقا للقيم الأخلاقية ، ولا يكون شرا إلا إذا كان مخالفا للقيم الأخلاقية ، فالعبرة هو موافقة هذا العمل أو ذاك للقانون الأخلاقي ، الثابت في ضمائر الناس ، المرتبط بسلوكياتهم ، وقد استقر لديهم حتى صار معبرا عنهم .

فمثلا الإنسان الذي يُسعى بحيث يكون عمله فاضلا ، فإن هذا العمل يكون خيرا ،حتى لو لم يبلغ به صاحبه غايته ، إذ يكفيه شرف المحاولة ، أما أنها لم تتم علي الوجه الأمثل فذلك لا يمنع من

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٣ .

(٢) العلامة أبوحيان الاندلسي : البحر المحيط في التفسير ، المجلد الأول ، صـ ٤٦٢ ، ط. ١ ، دار الفكر العربي .

(٣) الدكتور محمود مزروعة: دراسات في علم الأخلاق : صـ ٢١ .

(٤) سبق النية في الأعمال الاختيارية أمر لا يمكن إنكاره ، لأن النية هي التي تمهد للاختيار والإرادة ، ثم ترجح هذا الفعل أو ذلك ، فإذا لم تكن النية موجود سابقة لم يكن لها أدني قيمة علي ناحية من النواحي.

تصنيف ذلك الإنسان بأنه صاحب خلق فاضل [١] ، مع أن عمله لم يكن علي الدرجة المطلوبة من الدقة والكمال ، فإذا تم على الدقة ، والكمال ، كان أفضل وأصوب .

ثم أن العمل الأخلاقي يدور حول نوعه وطبيعته والجهة التي يتجه إليها ، ثم الغاية التي يقوم عليها ، وهي جهات أربع تتكامل فيما بينها من ناحية الأداء ، حتى وان لم تتكامل من ناحية الفعل والقيام به علي وجه الاستقلال ، وهذا في حد ذاته يكفي لاعتبار الفعل والنظر إليه علي أنه المعيار الأصلي الذي يدور حوله محور الحكم الخلقي بل ولا يمكن النظر لا إلى ذوات الفعل ، بغض النظر عن الفاعل [٢] .

كما أن الإنسان الذي يسعى للسرقة ، أو يقوم بتنفيذها علي أرض الواقع ، مع أنه قد يفشل في إتمامها علي الوجه المطلوب من ناحية الدقة والكمال ، لكنه مع ذلك يوصف بكونه صاحب عمل سيء أو أخلاق شريرة ، لا لأنه قام بالسرقة التي وضعها في حسبانه ، أو لأنها لم تتم ، ولكن لأن محاولة السرقة قد أعد لها من كل ناحية ، ورتب نفسه عليها ، لكن فشله راجع لأسباب خارجة عن أرادته [٣] ، وبالتالي يصنف بأنه صاحب عمل سيء ، بل وشرير أيضا .

٤ ـ الشواهد القانونية

الإنسان لا يعتبر مسئولا عن نواياه التي بداخلة من الناحية الأخلاقية ، لكنه مسئول عنها من الناحية الشرعية ، ولا يمكن تفسير الأفعال الناتجة عنه من خلال النية إلا في الجرائم ، التي يقع للجاني اعتراف إرادي بأنه خطط لها ، هنا تتصدي المجموعة القانونية لمساءلته عن الجرائم التي ارتكبت من خلال قاعدة سبق الإصرار والترصد ، لكن سبق الإصرار غير مدرك استقلالا ، كما أن الترصد عملية تتم في صورة ظاهره ، وليس باطنية مختفية ، ومن ثم فلا عبرة للنية وإنما العبرة للفعل الناتج عنها ، وهو الإتجاه القانوني .

ويعتبر الإنسان مسئولا عن عمله مسئولية تامة ، إذا كان الذي قام بالفعل عاقلا رشيدا مختارا ، سواء أقام بهذا العمل وحده ، أم قام به مع غيره علي سبيل المشاركة الكاملة أو الناقصة [٤] ، لأن هذا

---

(١) الوصف بالخلق الفاضل من الأحكام الخلقية التي يصح أن يكون معيار الحكم الخلقي، قائما فيها أو مرتبطا بها ، علي ناحية من النواحي التي صنفت الأحكام الخلقية .

(٢) راجع كتابنا : نظرية السعادة في الفكر الإنساني ، جـ٢ ، صـ ١٧ .

(٣) راجع كتابنا : أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ، ط. العاشرة ، صـ ٢٧١ ، حيث تناولت بعض هذه المظاهر أثناء الحديث عن الانحراف وأقسامه وأنواع كل قسم .

(٤) راجع للدكتور فوزي شحاتة : المذكرة الإيضاحية لقانون العقوبات ، صـ ٣٢١ .

العمل ترتيب عليه جناية قانونية . وهي في ذات الوقت تمثل اختلالا وظائفيا من الناحية الأخلاقية . لخلة هذا الفعل من الفضيلة وقيامة علي الرزيلة التي تجرمها نصوص القانون .

بل أن الأعمال ذات الصبغة القانونية التي أرتبطت بكل من أعمال البر والخيرات، لا تقوم إلا علي العمل ، فهو المعبر عنها، كالحال مع الهبة مثلا ، وسائر العقود التي تخضع لقانون الإرادة المسمي بقانون العقد [1] ، هي الأخرى تقوم أساسا علي العمل ، أو الفعل ، ولا مكان فيها للنية أبدا.

ومن ثم فهي غير خاضعة للحكم الخلقي ، إلا من خلال العمل الذي يتم في جودة ، ويؤدى في إتقان ، بحيث تخرج جميع الأعمال التي لا إرادة فيها ، ولا قصد لها ، ولا تتم في صورة تقريرية ، أو لا تؤدي علي الناحية السليمة من دائرة الحكم الأخلاقي .

يعتقد أصحاب هذا الاتجاه أن العمل لا يكون له وجود ذهني سبقي يتمثل في النية ، إذ الإرادة عندهم والنية شيء واحد ، وأنهم لذلك يستعملون لفظ الإرادة ، ولا يتحدثون عن النية ، رغم أن المؤدى فيها واحد ، والمعطي اللغوي هو الفارق ، لكن علي ما يبدوا أنهم لم يقصدوا الفارق اللغوي ، وألا كانوا نبهوا إليه ، أنهم قد وضعوا في حسبانهم الحديث عن الإرادة الحرة ، والقصد والاختيار ، بالمعاني التي تدور في رؤوسهم وحدهم ، وهذا من مجال التنازع ، نظرا لعدم تحرير محل النزاع في المسألة. .

### ب - مناقشة الرأي

١ - ما من شك في أن العمل قد عولت عليه الشرائع الإلهية ، وهي في ذات الوقت قد إعتبرته المقياس الإيماني ، في كثير من الحالات التي جاء الحديث بشأنها من قوله ﷺ إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإسلام [2] ، واعتياد المساجد فعل لا نية ، وعمل بدني ظاهر لا قلبي خفي ، وكذلك قوله ﷺ تبسمك في وجه أخيك صدقه[3] ، وقول ﷺ وأن تلقي أخاك بوجه طلق [4] .

٢ - لكن أليس الإنسان محدود الإرادة ، مقيد القدرة ، غير مدرك لما في الغيب الذي يحيط به ، فإذا كان العمل وحده هو المعتبر فماذا يفعل ذلك الذي قصد الخير ، ولكنه لم يتمكن من القيام به لضيق

---

(١) حول فكرة قانون العقد راجع للدكتور : عز الدين عبد الله ، القانون الدولي الخاص ، الجزء الثاني ، في تنازع القوانين وتنازع الاختصاص القضائي الدوليين ، صـ ٤٦٥ ، الطبعة السادسة ،دار النهضة العربية ، وراجع في ذات المصدر: الحصانة القضائية ، صـ ٧٥٦ .

(٢) الشيخ محمد منصور العريني : من كنوز السنة ، صـ ١٣٧ ، ط. اولى سنة ١٣٣٥ هـ .

(٣) والمعروف أن التبسم عمل بدني تقوم به الشفتان ، ويتربع علي سمة الوجه ، ومن ثم فلا يدخل في النية ، وإنما هو قائم في الفعل ، ويقوم به صاحبة ، ما دام هذا التبسم لإرضاء الله تعالي ، ومن باب عمل الخيرات .

(٤) طلاقة الوجه عمل بدني، تظهر أثارة علي جسم المرء ، حيث يحمل البشاشة ويعبر عن معالم الخيرات .

اليد [١] ، أو عدم توفر العوامل المساعدة ، لعلك تحكم عليه بأنه غير خير ، وهو الذي يجري إلي الخير لكنه غير قادر علي إنفاذ ما يتمناه ، أم يصنف علي أنه عاجز وصاحب خلق غير فاضل ؟ .

٣ - إن القرآن الكريم قص علينا خبر هذه الجماعة المؤمنة الذين امتلأت قلوبهم بالحب لله ، وتمنوا أن ينالوا شرف الشهادة في سبيله جل شأنه ، لكن الوسائل وقفت دونهم إذ لم تكن لديهم الأسباب التي تبلغ بهم ميدان الجهاد ، وجاؤا إلي الرسول يلتمسون عنده ما يحملهم عليه فلم يجدوا ، وحينئذ بكوا ، وقد عرفوا في الفكر الإسلامي باسم طائفة البكائين [٢] ، فهل كان بكاؤهم هو العمل الذي أثابهم الله عليه ؟ .

بل رفع الله قدرهم وجعل خيرهم واضحا ، وفي القرآن الكريم قائما ، مقرونا بأصحاب الأعذار ، قال تعالي ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [٣] .

ذكر الإمام الفخر في سبب نزول هذه الآية وجوها منها ما ذكره مجاهد أنهم كانوا ثلاثة أخوة ، معقل وسويد والنعمان بن مقرن ، سألوا النبي ﷺ أن يحملهم علي الخفاف المدبوغة والنعال المخصوفة فقال عليه السلام لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون [٤] ، فلو كان المعيار في الحكم الخلقي هو العمل وحده ولا عبرة بالنية ما رفع الله الحرج عنهم ، ولا زكاهم عنده .

يقول الدكتور مزروعة ، وهذا الرأي الذي حصر الحكم الخلقي في العمل وحده ظالم ، وبعيد عن حجية الصواب ، ما في ذلك شك ، فالمرء محدود التصرف والقدرة في هذا الكون ، وهو في كل عمل تصرفاته مرتبط إلي وسائل محدودة ، فإذا ما بذل جهده إتجاها للخير ، وتحقيقا له ، ثم تدخلت عوامل أخري خارجة عن قدرتة ووسائله المحدودة ، كان ظلما وقسوة أن نحمله النتيجة ، فالطبيب الذي يحاول علاج المريض ويستحضر كل علمه وفنه وآلاته ، ثم لا عليه بعد ذلك أن يموت المريض ما دام ذلك خارجا عن طاقته .

---

(١) ضيق اليد نسبي ، ولذلك لم يعول لكثيرون من الأخلاقيين على الإنفاق ، وإنما عولوا على الاستعداد له ، والسعي للقيام به .

(٢) راجع كتابنا : الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، المقدمات ، صـ ٣٧٢ وما بعدها ، وللدكتور على سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي ، الجزء الثالث ، صـ ٣٢١ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٩١/٩٢ .

(٤) الأمام الفخر : مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ، الجزء الخامس عشر ، صـ ١٣٤ .

٤ - أن العمل يمثل الظاهرة التي كانت لها أسبابها ووسائلها ، ولكن صوره العمل من الايجابية أو السلبية ، مقرونة بطابع أكثر استمرارية في الأعمال القصدية، حتى وإن كانت في السلبية قائمة علي الإستثناءات. مع أن الإنسان واقع في نطاق قوله تعالي ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [١] .

وبالتالي ، فلو كان المعيار في الحكم الأخلاقي هو العمل فقط ، لما كانت صوره الاستثناء هكذا ، بل لوقع صور العمل السلبية التساوي مع الأخرى التي تمثل صور العمل الإيجابية[٢]، وما دام الأمر لم يقع علي هذه الناحية ، تبقي المسألة الأساسية وهي أن العمل ليس وحده الأساس الذي يقوم علية الحكم الخلقي .

٥ - ثم ما المانع من أن يكون الناتج عن الفعل الإنساني غير مراد ، كالأفعال السبقيه التي يراد بها الخير ، ثم تأتي نتائجها في إطار قد يثاب المرء رغم أنفه [٣] .

٦ - كما أن هناك نتائج سلبية لم تكن مقصوده لمقارنة العمل ، ومع هذا يحكم علي صاحبها بالشريه ، فهل تحصل مع هذا الرأي سوي الانفتاخ علي الوسائل التدميرية ، والخروج من الدوائر الالتزامية[٤] .

٧ - قد يتناسى هؤلاء القوي النفسية ودورها الأساسي في كل ما يقوم به الإنسان ، بل والفعال في الأفعال الإنسانيه ، حتى قالوا أن الجسم ما هو إلا مراه تنعكس عليها الأمر الداخلية [٥] .

٨ - أهمل أصحاب هذا الاتجاه القوي العقلية التي تنظم وتخطط للفعل ، ثم تلجأ لإستشارة النية وتهتدي بإرشاداتها ، أليس من الصواب الأخذ في الحسبان دور هذه القوي جميعا عندما نريد تقرر

---

(١) سورة الإنسان : الآية ٣ .

(٢) ولما كانت الأخلاق قائمة في صورة الحكم بالايجاب علي الخيرات ، أوبالسلب علي الشرور ، فإن العامل الأساسي في الحكم ليس هو العمل وحدة ، بدليل أن الشرور والآثام أقل بكثير من الخبرات والفضائل ، وما ذلك إلا لوجود عناصر فعاله ذات أثر طيب تدخل إلي طبيعة الفعل ، بحيث تجرده من الشرية المطلقة إلي صورة تنازعيه علي الأقل ، ومن هنا يحدث تعديل صوري حتى أن المرء ليعدل في اتجاهاته العملية قبل أن يمارسها ، من خلال التأمل الشخصي والحوار الداخلي ، وكلما كانت خبرة المنولوج النفسي عالية متمكنة كانت عملية التجريد الذهني هي صاحبه السيادة ، وبهذا يتضح أن الأعمال ليست وحدها محور الحكم الخلقي .

(٣) إثامة المرء رغم أنفة ، ترد مظاهرها كثيرا في النصوص الشرعية ، وهي محمولة على الأغلب الأعم من الناحية الترتيبية ، حتى يندفع الناس للطاعات ، وينصرفوا عن المعاصي والآثام .

(٤) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٣٣١ ، وكتابنا : نظرية السعادة في الفكر الإنساني ، صـ ٢٣٥ .

(٥) فكره انعكاس الأسرار الداخلية علي المظاهر الجسدية قديمة ، قال بها علماء النفس ، كما نبه إليها الأخلاقيون ، ونبهت إليها نصوص الشريعة الإسلامية ، راجع كتابنا : لماذا انتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٢٥٧ .

حكم أخلاقي .

**الرأي الثالث : أصحاب الازدواجية**

**أ – عرض الرأي**

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلي عدم استقلال النية وحدها بالفعل ، حتى تكون هي المحور الذي يدور حوله الحكم الخلقي ، أو يكون لها وجود ثابت بشأنه ، وفي نفس الوقت لم يسلموا أن تكون دقة العمل هي التي يقع عليها هذا العبء في المجال الأخلاقي ، وإنما انتهوا إلي ضرورة اتحاد الجهتين[١] ، وتتكاتف الطرفين ـ النية مع العمل الدقيق ، حتى تكون النتيجة التي ينتظرها عالم الأخلاق ، وتمهد له في إصدار أحكامه الخلقية من الفضيلة ، أو الرذيله ، أو الحسن والقبح ، أو الخير والشر ، وغيرها .

يقول الدكتور دراز أن النبي محمد ﷺ لم يقصد بقوله إنما الأعمال بالنيات ، أن الأعمال لا تقوم ، ولا توجد إلا بالنيات فحسب[٢] ، بل قال أيضا عن عائشة رضي الله عنها من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد[٣] ، أليس هذا هو أفضل برهان علي أن المسلك الحسن لا ينحصر في حسن النية وحده ، ولا في دقه العمل وحدها ، بل في مجموع من الشكل والمادة ، بحيث لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الأخر[٤] .

ولهذا الرأي شواهد عديدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، يستدل علي ذلك بما يلي :

١ ـ قوله تعالي ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[٥] .

---

(١) اتحاد الجهتين يجري علي سبيل الأصل ، ثم تأتي بعد ذلك جهات كثيرة ، كلها جاءت علي سبيل التبع، نظرا للفارق الكبير بين ما هو أصلي وما هو تبعي وما هو جامع بينهما .

(٢) وهذا التعليل لا يكون مقبولا منه إلا إذا جاء مع الضميمة التي استدل بها ، لأن صيغة الخطاب فيها الكاف والمكفوف ، كما أنها جاءت على طريقة الحصر في المعنى أيضا ، وهي وجهة نظر بلاغية لها تقديرها .

(٣) الأمام مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الأقضية ، باب ٨ .

(٤) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٤٣ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

والوسع المراد هو الطاقة الكاملة ، وهي لا تكون بالنية وحدها ، وإلا كانت جزء الطاقة ، كما لا تكون حقيقة التكاليف علي قائمة العمل وحدة ، وإلا كانت التكاليف علي جزء الطاقة ، فلما جاء السياق القرآني بالوسع علي هذا النحو ، تبين أن المقياس الأخلاقي يجب أن يكون في أطار الوسع ،وهو النية والعمل الدقيق معا .

قال العلامة الفخر الرازي ، والمعني أنكم إذا سمعتم ، وأطعتم ، وما تعمدتم التقصير، فعند ذلك لو وقع منكم نوع تقصير علي سبيل السهو والغفلة، فلا تكونوا خائفين منه، فإن الله تعالي لا يكلف نفسا إلا وسعها[١]، ومن ثم فالوسع هو الطاقة التي تكون للمكلف من النية والعمل معا ، إذ هما في مجال الوسع معناهما واحد ، وفي حال التكليف فإن أداءهما يتكامل.

٢- ومن السنة النبوية المطهرة قول ﷺ لا يقبل الله قولا إلا بعمل ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنية[١] ، فدل الأثر علي أن هذه المسائل بينها رباط قائم ، ظهر في الصيغة اللغوية التي جاء المعني نهائيا ، حيث يجمع بين عدم قبول كل واحد بين هذه الثلاثة - القول - العمل - النية، إلا بالآخرين، ومن ثم فالحكم الخلقي يقوم عليه جميعا.

٣- ما حكي عن الحسن البصري وسعيد بين صدر رضي الله تعالي عنهما ، أنها تناولا الحديث السابق ، فكان قولها لا يصلح قول وعمل إلا بنية، ولا يصلح قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة النبوية[٢]، ويؤكد الدكتور دراز هذه العلاقة بقوله أن هذين الشرطين لا يمضيان دون شرط ثالث يستتبعانه ، فليس يكفي أن يتوافق العمل مع القاعدة ، بل يجب أن يكون هذا التوافق أو التطابق مراد ومرضيا بكل حرية [٣] .

ثم أن العمل أو ناتجة الموضوعي لا بد له من نية حتى يقوم علي الاتفاق وحرية في اختيار نوعه ، بحيث يتم علي الوجه الذي لا يقع فيه تأخيرا ، ولا يتأتى معه إبطاء[٤] وتكون غايته الظاهرة هي نفس فائدته الباطنة ، هذه كلها تتمثل في الصورة النهائية التي يكون عليها العمل ، من ثم فلا بد من هذه العناصر مجتمعة حتى يُقيم العمل الإنساني[١] وينال الحكم الأخلاقي حجية القبول والعناصر هي

---

(١) الأمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع ، صـ ٤٨ .

(١) راجع للعلامة أبي طالب محمد بن أبي الحسن المكي : قوت القلوب ، جـ٢ ، الفصل الثامن والثلاثون ، في الأخلاق تفسير قوله نية المرء خير من عمله ، صـ ١٨٤ / ١٨٩ ، ط.١ عيسى الحلبي .

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمنه : الحسبة ، صـ ٩١ ، وأنظر هامش دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٤٤ .

(٣) الدكتور محمد عبد لله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ٤٤٤ .

(٤) وكلما تم العمل الأخلاقي من خلال قاعدة النية المستوفاة ، والحرية في الإختيار ، فان المتوجه لهذا العمل يجد من نفسه إقبالا علي الإتقان والإجادة ، لأنه من وحي ضميره انتقل إليه ، وبإرادته الحرة توجه نحوه ، ومن خلال تقيمه للموقف صدر عنه .

١ ـ نية ذات تأثير ترجيحي للفعل على الترك، لأن النية محلها القلب ، وهو الميدان الذى تجري فيه الأفكار ، وتتصارع الإرادات ، فنيه الفعل هي العلة الترجيحية له[1] .

٢ ـ حرية ذات قصد نوعى للفعل أو الترك [2]، لأنها التي تميزه ، حتى إذا أقبلت النفس عليه، كانت القوى الإنسانية على وعى بما يستلزمه ، وما تفرضه طبيعته .

٣ ـ قاعدة أخلاقية تدفع إلى الفعل [3]، إذ لا يعقل أن يقوم الفعل من ذاته ، ولا تكفى فيه النية وحدها ، والقاعدة الأخلاقية هي الأساس الذي يحتشد داخل القوى النفسية ، ويؤثر فيها ، وبخاصة أن أسس هذه القاعدة الأخلاقية فيها الكثير من الفطرية الطبيعة ، والقليل من السببية التعليمية .

٤ ـ فائدة قائمة تقود الفاعل للإتقان ، فإذا لم تكن هناك فائدة لدى الفاعل أو العامل ، كان الإتيان على الفعل أو الترك مسألة لا إرادية .

٥ ـ جزاء منتظر يكون عمادة الترغيب ، ولحمته الترهيب [4] .

فإذا توافرت هذه العناصر ، أو الأركان الخمسة ، وصدر الفعل أو تم المنع كان مناط الحكم الخلقي قد انتصب على قاعدة صحيحة أخلاقيا ، حتى إذا صدرت أحكام الخير أو الشر على الفعل لم تكن أحكاما احتمالية ظنية ، وإنما هي أحكام يقينية ، لقيامها على أدلة من نفس نوعها ، تجمعها علاقة التابع بالمتبوع ، أو الفرع بالأصل ، أو على الأقل تكون هذه الرابطة قابلة للتأكد منها عن طريق التكرار أو الممارسة .

والحق أن العودة للحكم الأخلاقي على ما يصدر عن الإنسان بحريته واختياره تستلزم ضرورة التآزر بين هذه العناصر ، حتى يكون الحكم قابلا للأخذ به على آية ناحية، أما أن يتصدى المرء لاعتبار المعيار في الحكم هو هذا العنصر دون غيره ، فذلك ارتداد عن الأصول إلى غيرها ، وقديما قيل ، من ترك الأصول تاه .

---

(١) تقييم العمل الإنساني يمثل النهاية أو النتيجة ، لأن المراحل السابقة على تقييم الفعل تكون بمثابة التمهيدات ، وبخاصة أن علم الأخلاق النظري تنصب عنايته على الجوانب الأخلاقية من الناحية المعرفية ، حتى إذا نضج المفكر الأخلاقي ، واستطاع تفهم هذه الجزئيات البحثية ، وصار قادرا على إنفاذ هذه الموضوعات على أرض الواقع العملي الأخلاقي ، فأنه ينطلق إليها فى ثقة واقتدار ، بجانب التقدير والاحترام .

(٢) لأن مدار الأخلاق على الأفعال الإنسانية الإرادية القصدية ، فإذا لم تكن هذه الإرادة متوفرة ، وعاملة على وجه التمام ، لم يكن لها أدنى وجود، بل تتهادى ومن خلفها الصور الشجية لقاعدة الإلتزام ، مهما كانت الثقة في مصادر الإلزام .

(٣) هذه القاعدة الأخلاقية غير محددة،نظرا لاختلاف الأخلاق العملية ، وتنوعها ، بين الفضائل والآداب ، وبالتالي فإن القاعدة الأخلاقية مرنة إلى الحد الذي يعينها على استيعاب العديد من الوجوه المختلفة .

(٤) فالترغيب دافع للإجادة والإتقان ، كما هو راجع لسرعة الإنجاز مع الإحتراز، والترهيب يعكس ذل تماما . مع أن كلا منهما له دوره الفعال فى الأخلاق .



# الفصل الرابع

## المسئولية الخلقية

تعتبر فكرة المسئولية الخلقية، من الأفكار التي ظهرت آثارها في العديد من الدراسات النوعية ، وبخاصة تلك التي تنصب إهتماماتها الأولى على ما يصدر عن الإنسان ، ويقع في نطاق المحاسبة ، أو التقييم [١]، ونظرا لكثرة ورود مادتها اللغوية س أ ل في لغة العرب ، وإنتشار هذه المعاني في الدراسات المختلفة ، فقد تعددت النظرات التي توجهت إليها ، لا على الناحية الأخلاقية فحسب ، بل على النافذة الإقتصادية أيضا ، كما أنها قد تجاوزت الجانب النظري إلى العملي أيضا .

لكن علماء الأخلاق ربطوا بين هذه المسئولية والإلزام ، والجزاء تارة [٢] ، كما ربطوا بينها ، والإرادة من جانب آخر ، وقد عول البعض على وقوع المسئولية في النطاق الذي يجري بين طرفي الإلزام والإلتزام [٣] ، بحيث تكون المسئولية هي عقدة الوسط ، أو نقطة المركز الذي يسعى الجميع نحوه حتى يستمر الدوران في شكله الطبيعي ، من ثم فسأحاول القيام بهذه الدراسة عن المسئولية الخلقية من خلال ما يلي :

## أولا : تعريفها

سلف القول بأن المراد بالتعريف إبراز المعرف وتوضيحة ، بجانب فك طلاسم أو مشكلات الجوانب الغامضة ، لأن التعريف فيه توضيح المبهم ، وتقرير الجوانب التي يراد التعرف عليها ، فإذا لم يتحقق ذلك، لم يكن للتعريف قيمة ، علما بأن مادة الكلمة قد وردت في القرآن الكريم بصيغها المختلفة حوالي ١٢٠ مرة [٤] ، وجاءت الكلمة على صورة المفعول في آيات قرآنية ، منها قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [٥] ،

وقوله تعالى ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [٦] ، حيث جاءت الكلمة اسم مفعول مجموع ، فدل الأمر على أن المسئولية لها وجود داخل النصوص القرآنية ، وبناء عليه إلتزم تعريفها في :

---

(١) ما يقع في نطاق التكليف، يتم عليه اعتبار المحاسبة في الجوانب القانونية ، أو التقييم في الجوانب الأخلاقية ، وقد يقع على كل منهما استقلالا ،أو مجتمعين ، وهي مسألة طال بحثها في المؤلفات التي عنيت بهذه الجوانب .

(٢) راجع للدكتور محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن،أثناء الحديث عن المسئولية .

(٣) راجع للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق في الإسلام ، صـ ١٤٨ ، والدكتور محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ، صـ ٨٢ ، ط. صبيح .

(٤) راجع للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، باب السين ، صـ ٣٣٦ / ٣٣٨ ، حيث بين مواضعها في السور والآيات القرآنية .

(٥) سورة الإسراء : الآية ٣٤ ، وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ سورة الإسراء : الآية ٣٦ .

(٦) سورة الصافات : الآية ٢٤ .

### أ - اللغة

وردت الكلمة في لغة العرب على العديد من المعاني ، أبرزها الإستخبار ، وتحمل التبعية ، بجانب الصدقة ، وما يقع به الطلب [١] ، وبالتالي ، فإن هذه المعاني المتعددة قد دفعت الباحثين إلى أن يتناول كل منهم المسئولية على ناحية من هذه المعاني ، وقد برزت هذه الدراسات على الجانب الإصطلاحي ، في وضوح تام .

### ب - في الإصطلاح

تكاثرت التعريفات التي جاءت عليها المسئولية ، طبقا للجهة التي قام التعريف من جهتها ، فهي تعرف تارة بأنها حال ، وصفه من يسأل عن أمر تقع عليه تبعته [٢] ، بحيث يقول أنا متحمل مسئولية هذا العمل مثلا ، أو أنا برئ من مسئولية هذا الفعل ، فكأن المسئولية هنا ، هي حال صاحب الفعل، أو صفته وقت السؤال ، والفرق بينهما كبير .

ذهب المعجميون إلى أن المسئولية هي ما يكون المرء متعلقا به ، ومطالبا عنه ، ومحاسبا على أفعال أتاها ، أو قصر فيها [٣] ، وهو تعريف تناول أحد الجوانب المتعلقة بالمسئولية ، ومن ثم فهو تعريف بجزء الموضوع على الناحية اللغوية ، فيفيد لدى علماء اللغة الجهة التي جاء من ناحيتها .

ويذهب علماء القانون إلى أن المسئولية هي الإلتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير ، بإعتبار أن هذا الواقع قام به شخص طبيعي ، يتحمل ناتج أعماله [٤] ، فإذا صدر الفعل عن شخص قادر على القيام بالفعل والترك ، ويملك حرية الاختيار مع الإرادة والقصد ، فإنه يكون مسئولا عما يصدر عنه ، ويتحمل تبعاته .

ويقول الأستاذ عبد القادر عودة أن المسئولية عمادها أن يتحمل الإنسان نتائج الأفعال المحرمة التي يأتيها مختارا ، و هو مدرك لمعانيها ونتائجها [٥] ، ومن ثم تكون المسئولية هنا قاصرة على إتيان

---

(١) راجع في هذه المعاني: قطر المحيط ، باب السين ، ومحيط المحيط ، باب السين ، والقاموس المحيط ، باب اللام ، فصل السين .

(٢) هذا التعريف يجيء كثيرا في العديد من المؤلفات على أنها تعريف عام للمسئولية ، ودون اعتبار لشيء آخر .

(٣) راجع المنجد في اللغة والآداب والإعلام ، باب الميم ، صـ ٣١٦ ، والمعجم الوسيط ، باب السين ، صـ ٤١٥ ، والمعجم الوجيز ، باب السين ، صـ ٢٩٩ .

(٤) الدكتور محمود رشدي : المسئولية الجنائية على الأشخاص الطبيعيين والإعتباريين في القانون الدولي العام ، صـ ٣٧ ، بحث بالمجلة القانونية .

(٥) الأستاذ عبد القادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي ، جـ ١ ، صـ ٣٩٢ .

الأفعال المحرمة وحدها ، ولا عبرة بأن يكون هذا الإنسان قادرا على القيام بأعباء الوظيفة التي أوكل إليه القيام بها من عدمه ، إنها مسئولية ناقصة قائمة على جانب واحد ، مما تجري فيها الأحكام العامة .

ويعتقد علماء القانون أن المسئولية بالمعنى الذي يجب تعميمه هي مساءلة المرء الطبيعي ، على التبعات التي تصدر عنه و من خلال الأوضاع الناشئة ، بحيث يتم التعامل معه طبقا للأعراف والسوابق أو القواعد القانونية [١] ، التي يمكنها التعامل مع هذا الشخص ، أو ذاك ، بما له من مسئولية ،ومطبقا لما عليه من تبعات .

أما علماء الأخلاق ،فقد تكاثرت تعريفاتهم للمسئولية ، نظرا لاختلافاتهم الفكرية من ناحية . وتنوعهم بين المدارس المتعددة في الإتجاهات من ناحية ثانية ، ثم التنوع الثقافي من ناحية ثالثة . ومن ثم ذكروا لها عدة تعريفات من أبرزها :

١ - إنها التزام على الشخص بما يصدر عنه من قول ، أو فعل ، بحيث يكون محاسبا عليه . ومسئولا عنه ، وتوصف أعماله به [٢] ، فإذا خرج على هذه القواعد الأخلاقية لم يكن مسئولا عنها . ولا موصوفا بها ، وإنما هو محاسب ومسئول معا ، وإلا انفتح الباب على مصراعيه لهؤلاء الذين يتوقون للممارسات غير المقبولة ، بجانب أولئك الذين لا يعنيهم أمر بقاء القيم الإيجابية في قليل أو كثير .

٢ - ويذهب الدكتور دراز في تعريف المسئولية مذهبا يربط بين الأخلاق والفطرة بجانب القدرات الذاتية ، والملكات العقلية ، والقيم الوجدانية ، حيث يقرر أن المسئولية استعداد فطري ، ومقدرة ذاتية ، يلتزم المرء بها أولا ، مع القدرة على الوفاء بالإلتزامات التي تتعلق بجهوده الخاصة [٣] ، وهذا في حد ذاته يمثل شعورا بالمسئولية ، دون أن يضيف إلى ذات المسئولية مفهوما محددا .

٣ - إنها علاقة ثنائية الأطراف ، لكنها مزدوجة في التركيب من ناحية الفرد المسئول، والعلاقة القائمة بأعماله ، بحيث يكون ذلك هو الطرف الأول ، ثم يأتي الطرف الثاني ، وهو علاقة هذه الأعمال بمن يحكمون عليها ، فإذا أمكن تصنيف هذة الجزئيات من خلال ذات التعريف ، صح الوقوف على أن :

---

(١) الدكتور فرحات عبد العزيز جابر : المسئولية والإطار القانوني ، صـ ٢٥٣ ، طبعة الدار القومية ، سنة ١٩٦٧ .

(٢) الأستاذ حسن فهمي صالح : الأخلاق في المجال النظري ، صـ ٣٤ ، ط. اولى ، دار الميمنة ، سنة ١٣١٣ هـ .

(٣) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٣٧ ، بتصرف في العبارة ، وذهب الدكتور بيصار إلى أن المسئولية هي حالة للمرء يكون فيها صالحا للمؤاخذة على أعماله ، ملزما بتبعاتها المختلفة ، الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق في الإسلام ،صـ ٣٤٨ ، وبالتالي فالمسئولية ليست مطلقة ، وإنما هي نوعية ، كما أنها ليست عامة ، بل هي خاصة تجري طرف بعيد كل البعد عن كون الإنسان يملكها ، البلوغ متى توافرت فيه الأركان الحقيقية التي عني ببيانها فقهاء الإسلام ، البلوغ ، العقل ، الحرية ، القصد .

الطرف الأول: هو الفرد المسئول بصفة أساسية ، ثم تأتي معه أفعاله بصفة تبعية [١]، ولولا وجود هذا الشخص ، ما وجد ذلك العمل ، فهو طرف مزدوج .

الثاني : علماء الأخلاق ، الذين يتوجهون إلى هذه الأعمال التي قام بها ذات الفرد من خلال تقييمها ، والحكم عليها بأنها خير أو شر ، حيث تجري فيها الفضيلة أو الرزيلة [٢] ، إلى غير ذلك من الوجوه التي يتعلق بها الحكم الخلقي .

أما علماء السلوك : فلم يكونوا بعيدين عن أي من هذه الإتجاهات التي قال بها غيرهم في تعريف المسئولية ، وتحديد أبعادها ، بل يمكن القول بأن تعريف المسئولية في المفهوم الأخلاقي يدور في إطار العمل وتبعاته .

ويذهب مقداد بالجن إلى أن المسئولية هي تحمل الإنسان الطبيعي نتيجة إلتزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية ، والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى ، وأمام ضميره في الدرجة الثانية ، وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة [٣] ، فهذه الجهات الثلاثة يقف المرء أمامها من الناحية السلوكية ،بحيث يكون مجزى بما قدمت يداه، ونطقت شفتاه ، وهمس به داخله ، وتردد في حنايا نجواه .

فإذا اتجهنا مع علماء السلوك ناحية الفرد ذاته ، وما إذا كان قادرا على تحمل المسئولية على الناحية الفطرية ، أو على الناحية الكسبية ، وجدنا الدكتور مزروعة ، يقرر أن المسئولية هي صلاحية الإنسان لأن يتحمل تبعات ما يصدر عنه من أفعال [٤] ،على أساس أن المعايير في الأخلاق إنما هو جملة الأفعال التي تصدر عنه ، أو الأعمال التي يقوم بها ، أو تتم ممارسته لها [٥] .

ويبدو أنه كان يقرر مفهوم المسئولية بالمعنى العام ، وليس من الناحية السلوكية ، فيما مضى ، بدليل أنه سعى في تقريرها من الناحية الأخلاقية ، وإنتهى إلى أن المسئولية الخلقية هي إلتزام أدبي حر ، أمام قوة ذاتية ، دون خوف عقوبة ، أو انتظار عقوبة خارجية [٦] .

---

(١) فكرة الأصلية والتبعية ، والأساسية والعرضية ، من الأفكار المطروحة ، وبقوة على الساحة الأخلاقية، كما هي مطروحة بنفس المستوى على الساحة القانونية .

(٢) لأن تقييم هذه الأعمال من ذات الناحية هو دور علماء الأخلاق ، ومن ثم فإذا تخلوا عنه ، أو تم استبعادهم من هذا الطريق ، لم يكن للعمل العلمي جدوى أو فائدة.

(٣) الأستاذ مقداد بالجن : الإتجاه الأخلاقي في الإسلام ، صـ ٢٣٧ .

(٤) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ٤٥ .

(٥) المعروف أن معيار الحكم هو ارتباط الأفعال في نتائجها بالنية المنعقدة ، بجانب الجزاء المنتظر ، مع الإرادة الحرة، والفائدة المنتظرة، أو التي تم لتوطن عليها ، وارتبطت نفس المرء بها ارتباطا شرطيا .

(٦) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ٤٧ .

أنها تكون بمثابة امتياز خاص لصاحبها أمام السلطة الإلهية ، أملاه الفرد على ذاته ، وحرر نفسه من قيودها ، ثم تابع هذا الفرض في قوة متزايدة أمكن لها أن تنقله من دائرة الأنا الذاتي ، إلى دائرة أخرى ، عمادها كفاني فخرا أن تكون لي ربا ، وكفاني شرفا أن أكون لك عبدا .

وهناك تعريفات تجمع بين أكثر من جهة ، منها أن المسئولية هي الاستعداد الفطري الذي جبل الله تعالى عليه الإنسان حتى يصلح للقيام برعاية ما كلفه به من أمور تتعلق بدينه ، ودنياه ، فإن وفي ما عليه من الرعاية حصل له الثواب ، وأن كان غير ذلك حصل له العقاب [١] .

مما سلف بيانه ، إتضح ما يلي :

١- أن تعريف المسئولية لم يقع إجماع بين الدارسين حوله ، نظرا لإرتباط كل تعريف بالفرع الذي جاء منه [٢] ، ومسايرة المفكر الإتجاه العام الذي يحكمه ، أو الأفكار التي يتبناها .

٢ - إن فكرة المسئولية من الناحية القانونية ، غيرها من الناحية الأخلاقية والإجتماعية ، بل واللغوية [٣] ، وأن هذا الإختلاف يجعل منطقة الحسم لصالح فريق على أخر غير مأمونة العواقب .

٣ - إن فكرة المسئولية تبلغ لدى البعض حد الفطرية ، ولذا ، يتم التعامل معها من خلال ذات المفهوم ، حينئذ تتغير المفاهيم إلى ناحية أخرى لم يكن لها وجود سبقي داخل الذين تعاملوا معها ، على أنها فكرة قابلة للزيادة ، والنقصان ، النسبية والإطلاق [٤] .

٤ - أن تناول المسئولية السبقية يفضي إلى التزام ما هو تبع لها ، أما المسئولية التبعية ، فلا ترتيب عليه سوى ما يقوم في النوع ، وهذا كله طبقا لما جاء ذكره في التعاريف .

وحيث أن موضوع الدراسة هنا إنما يتعلق بالمسئولية من الناحية الأخلاقية ، فإني أقدم هنا هذا التعريف لعله يقع في دائرة الترجيح .

---

(١) الدكتور محمد إبراهيم الشافعي ، المسئولية والجزاء في القرآن الكريم ، صـ ٣٨ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

(٢) وهذا واضح من كثرة التعريفات التي تناولت المسئولية على النحو الذي سلف ، بجانب تلك التي مازالت فكرة تجري في ضمير الغيب ، ولم يتم الوقوف عليها .

(٣) وهذا التنوع بلغ حد التعدد ، فهناك المسئولية الوظيفية ، والمسئولية الحفظية ، أو التذكرية ، والمسئولية الانضباطية ، إلى غير ذلك من المسئوليات التي تثقل كاهل من يتعرض للحديث عنها ، ولذا أود أن يقوم باحث بتسجيل دراسة خاصة في رسالة علمية تحت عنوان المسئولية في الفكر الإسلامي أصولها وتطوراتها والغايات المرتبة عليها .

(٤) على أساس أن النظرية فرض علمي تثبت صحته ، وأنه في طريقه ليبلغ درجة القانون من حيث العموم والشمول ، والقدرة على القفز من علم إلى آخر ، حتى تتم الإستفادة به على كل الوجوه المتعددة .

المسئولية إدراك المرء لما منحه الله تعالى من ملكات وإمكانيات ، بحيث يكون قائما فيها بما شرع الله تعالى ، لأنه القيم عليها ، والمحاسب عنها ، وهي في ذات الوقت المعيار الأخلاقي الذي يثبت صدق دعواه من كذبها ، وحقها من باطلها [١] .

لأن الملكات والإمكانيات عبارة عن منح إلهية ، وقد جعلها الله تعالى مع ذات الإنسان حتى يكون قيما عليها، ومن ثم فهو مسئول عنها أمام الله تعالى ، أولا وقبل كل شيء ، ،ثم تأتي بعدها مسئولية فرعية . يكون محاسبا عليها أمام ضميره ، وأمام الناس، لكنها داخلة كلها في نطاق المسئولية بالمعنى العام.

### ثانيا : تقسيمات المسئولية

اتجه العديد من الدارسين في الفروع العلمية المختلفة لبحث المسئولية ، وراح كل يتجول فيها ،ويحاول تقديم الصورة المثلى ، التي يقوم عليها تفكيره الذي اتجه به نحوها ، من ثم تعددت تقسيمات العلماء للمسئولية بإعتبارات مختلفة، وتنوعت تلك الأقسام هي الأخرى إلى أنواع عديدة .

فهناك تقسيم بإعتبار المسئولية الدنيونة أو الأخروية ، وتقسيم بإعتبار آخر إلى دينية وغير دينية ، كما تقسم إلى مدنية وجنائية ، وفوق ذلك تقسم إلى اجتماعية وأخلاقية [٢] ، وهناك من يذهب إلى تقسيمها بإعتبار القانونية وغيرها ، والمراد بغيرها هنا ما يكون واقعا في نطاق المسئولية ذات الارتباطات النوعية ، وهناك تقسيمات بإعتبار الظاهرة والباطنة ، وإعتبار المرادة في المقدمات فقط ، بجانب التقسيم بإعتبار الفردية والجماعية ، أو النتائج فقط إلى غير ذلك من التقسيمات .

وحيث تعددت هذه التقسيمات ، وتكاثرت ، إلى الحد الذي يجعل حصرها وتناولها على وجه تفصيلي ، مما يمثل نوعا من الصعوبة الدراسية [٣] ، فسأحاول الإلماح إلى أبرز الأقسام ، ثم أنتقل إلى عموميتها في الفروع ، وأخيرا أركز على المسئولية الأخلاقية لأنها التي عليها مدار البحث هنا .

---

(١) قد لا يصلح لها هذا التعريف عند غيري ، لكنني رأيته مناسبا من جهتي ، فمن وفق لغيره فليحمد الله تعالى ، وليعذرني ، فما هي إلا من أفضال الله جل علاه .

(٢) هذه التقسيمات ليست حصرية ، وإنما راجعة إلى اعتبارات تجري في الوجوه العديدة ، والقراءة المتأنية تطلع الباحث على جوانب مختلفة للمسئولية ، وتقسيمات المسئولية فيها الكثير المتباعد والمتباين أيضا .

(٣) وجه الصعوبة هو أن هذا البحث لا يتعلق بالناحية الإحصائية ، وإنما يرتبط بجملة من المعارف المتعلقة بعلم الأخلاق ، أو علم السلوك ، أوهما معا .

## التقسيم الأول : بإعتبار الدنيوية والأخروية

### الأولى : المسئولية الدنيوية

وتعرف بأنها التي تكون متعلقة بأداء الإنسان لكل ما كلف به في دار الدنيا ، طالما جاء بذلك الأنبياء ، وتحدث عنه المرسلون [١]، فهي مسئولية إلتزام المرء بما جاء من عند الله ، ويمكن تسميتها المسئولية التكليفية ، وهذه المسئولية يتم تناولها في فروع متعددة ، بحيث تتداخل مع بعضها ، أو تنفصل .

وموضوع هذه المسئولية يتعلق بما يجب على الإنسان المكلف عمله نحو نفسه ، ونحو غيره الذين يشاركونه العناصر الإجتماعية المختلفة ، على أساس الحقيقة الإيمانية ،وهي أن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، مؤمن في أداء العمل يلقى نتيجة ذلك في دار الآخرة ، حيث الجزاء الأخروي الذي لا عمل معه من الناحية التكليفية ، بل أن هذه المسئولية تستلزم الوفاء بالعقود ، وصيانة العهود ، والقيام بالتكاليف لصالح الإنسان كفرد ، حتى لا يهلك نفسه ، ولا يقلل من منزلته بين من يشاركونه هذا التعامل الإنساني ، ثم يتحول هذا إلى صالح الجماعة من ذات الفرد ، وهو الذي تنبه إليه آيات الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول الكريم ﷺ .

والأدلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [٢] .

وهذه المسئولية الدنيوية تنضبط بقاعدة الإلزام ، من حيث أن عبارة كونه مسئولا ، تعني كون ذلك الفرد مكلفا بأن يقوم ببعض الأشياء ، ثم يقدم عنها حسابا ، يمكن التعامل به بين الناس [٣] ، ولذلك ، فهي مسئولية دنيوية ، لأن الحاكم على هذه السلوكيات هو الناس أنفسهم ، ولا علاقة لها بشيء وراء ذلك ، والغاية منها تحقيق الغائية المرتبطة بالجانب الإنساني ، وتحقيق السعادة المرجوة للجميع . ومن ثم ، فإن المسئولية تكون بمثابة ن تقديم كشف حساب يمارسه المرء مع نفسه [٤]،

---

(١) هذا التعريف قائم على اعتبار أن المرء مخلوق للاستخلاف فمسئولية أعمار الأرض ، والقيام عليها بما ينبغي دون إعتبار لشيء آخر ، وكلما أحسن المرء القيام بدوره في المسألة ، فإنه يكون صاحب مسئولية دنيوية .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١ .

(٣) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٣٦ .

(٤) هذا الدور قد يدخل في نطاق الضمير ، كما يدخل في حدود التعامل معه كل من السلوك الإنساني ، والوجداني ، من حيث أن المرء هو الذي يتهم ذاته ويحاسبها .

بحيث يكون هو القاضي ، وهو أيضا الذي يعد قرار الإتهام ، ثم يفصل في القضية المعروضة من خلال الفرد ذاته ، ولا يمكن أن يقوم بهذا الدور سواه ، ومن ثم يتحول المجتمع الإنساني كله إلى جملة من المسئولية في دار الدنيا [١]، ويتربى فيكيل واحد منهم الضمير الأخلاقي الذي يعينه على إتمام أهدافه .

## الثانية : المسئولية الأخروية

وتعرف بأنها التي يقع على المرء عبء القيام بها في الثواب والعقاب ، كما يلتزم ناتج التكاليف المترتبة عليها ، نظرا لإرتباطها بالجزاء والثواب للطائعين ، وعقوبة العاصين ، على أساس أن الآخرة هي دار الجزاء ، وليس فيها شيء من عمل تكليفي .

وموضوع هذه المسئولية بالنسبة لأهل الإيمان قائم في التمتع بما أنعم الله به عليهم في دار الآخرة ، وقد دل على ذلك النقل المنزل من خلال السياق القرآني في صيغة الدلالية ، كقوله تعالى ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٢] ، والشاهد في الآية أن صيغة الأمر دالة على التكليف والمسئولية ، بحيث لا يقع حرمان ، حتى إذا فهمت الآية على أنها من البشارات الإخبارية التي تقع لأهل الإيمان ، فإن المسئولية تكون في حدود هذا الجانب لا تبرحه مسئولية التلذذ بالطعام والشراب والشعور بأن هذا أجر قد أدخره الله تعالى لهم .

بل أن مسئولية التمتع بما أنعم الله تعالى ، قد صارت قائمة في اهل الآخرة ، حيث لا من ولا أذي ، كما لا حقد ولا حسد ، وفوق ذلك فإن مسئولية أصحاب النعيم لا تتجاوزهم إلى غيرهم ، ومن كلفوا بهم ، يدل ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [٣] .

فموضوع هذه المسئولية هو التمتع بما أحل الله وأنعم على أهل الجنات ، كما أن هذه المسئولية لا تجعل صاحبها في حرج مع نفسه ، لأنه في الأصل واقع في نطاق ما أنعم الله ، فمسئوليته مقترنة بالنعيم والآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ﴾ [٤] ،إنها محددة النتائج ، خالدة في أوجه الاستفادة طبقالما جاءت في النصوص الشرعية .

---

(١) وهذا الطور من المسئولية يعبر عن صورة مرحلية ، كما يكشف عن وجود علاقة عمادها السجل التاريخي الذي يمارسه الإنسان بنفسه ، ويحتكم فيه إلى وحي ضميره .

(٢) سورة الطور : الآية ١٩ .

(٤) سورة يس : الآيتان ٥٥ و ٥٦ .

(١) سورة الحاقة : الآية ١٩ .

والغاية منها بيان ما تفضل الله به على عباده المؤمنين ، وما أكرمهم به في دار القرب والنعيم ، حتى ينشط أصحاب الجد في جدهم ، ويرتدع ذوي المعاصي عن فسقهم ، بناء على قاعدة الترغيب والترهيب ، وهي غاية ، إذ أمكن الوقوف عليها تحققت معها العديد من النتائج الإيجابية في كافة مظاهرها وأشكالها ، وأنعم بها من غاية ٠

**التقسيم الثاني : بإعتبار الديني و المدني ،و هذا التقسيم يتوزع بين كل من :**

**الأولى : المسئولية الدينية :**

وهي ما يتمثل في علاقة المرء بالله ، من حيث العقيدة والعبادة والأحكام [١] ، بل يمتد فيشمل الأوامر والنواهي ، بجانب ما يترتب على ذلك ،بحيث يكون المرء في مواجهة مع نفسه ، وحينئذ تتمثل فيه المراقبة الذاتية ، وينمو بداخله الضمير الذي يراقب سلوكياته ، حتى يكون في مقام الإحسان من خلال قوله ﷺ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [٢] .

وهذه المسئولية الدينية تكون في العقيدة الخالصة عن شوائب الشرك والتجسيم ، والتعطيل ، والتشبيه ، إنها تقوم على التنزيه الكامل لله رب العالمين من خلال قوله تعالى ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٣] .

ومن ثم تمتد تلك المسئولية الدينية في مجالها الإيجابي ، للإقرار بكل ما جاء من عند الله جل شأنه إلتزاما قلبيا ومعرفيا ، وسلوكا عمليا ، عقيدة وشريعة وأخلاقا ، علما وعملا ، وهكذا تبدو تلك المسئولية الدينية حتى تربط الإنسان بربه [٤] ، إذ هو المسئول عنه ، ويجب أن يكون هذا العبد مسئولا عن استمرار تلك العقيدة وتأثيرها على سلوكياته ،حينئذ يتحول إلى عبد رباني ، فربما أجرى الله الخوارق على يديه [٥] ، وفتح له أبوابا من غير اسباب تباشر ٠

---

(١) وهذا التمثيل يحمل المسئولية في جانبها الإلتزامي ، لأن جهة الإلزام هي التعاليم الإلهية ، وجهة الإلتزام هي ذات العبد المكلف الذي ارتبط قلبه بربه خالقه العظيم جل علاه ، راجع كتابنا: الغزاليات في الإلهيات ، صـ ١٨٧ ٠

(٢) هذا الحديث جزء من حديث طويل ، عرف بإسم حديث جبريل ، كما عرف بإسم حديث ابن عمر ، وله روايات أخرى كلها صحيحة ٠

(٣) سورة الشورى : الآية ١١ ٠

(٤) هذا الإمتداد يمثل ذات الطبيعة المسئولة ، التي لا يمكن أن تنفصل عن ذات الإنسان حيث يعيش في إطار العلاقة بين العبد المخلوق والإله الخالق ٠

(٥) من هذه الخوارق للعادات الكرامات ، والفراسات والمغوثات والمقومات، وكل خوارق التأييد ، تأتي من باب الفضل لله رب العالمين ٠

لقوله عز وجل في الحديث القدسي" عبـدي أطعـني تكـن عبـدا ربانيـا ، تقـول للشـيء كـن فيكون " [١] ،وكلما كان المرء قائما على هـذه المسئولية تحقـق لـه ما ينشـده وصـار قـادرا على تلقي الفيوضات الإلهية ، فكأنه يتحمل المسئولية من الناحية الثوابية .

من الواضح أن هذه المسئولية الدينية تتنوع بإعتبار الإيجابي والسلبي ، أو الخير والشر ، كما تتنوع بإعتبار الأسباب والنتائج ، وفوق ذلك فإنها تتنوع إلى أصلية وتبعية ، يدل علـى ذلـك علـى قولـه تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [٢] .

كما أن العلاقة بين المسـئولية الدينـية وتنوعاتـها من الناحية الأصـلية والتبعيـة [٣]، قـد جاءت بها أحاديث كثيرة ،منها قوله ﷺ من هم بحسنة فعلمها ، فله أجرهـا وأجـر مـن عمـل بهـا إلى يـوم القيامة ، ومن هم بسيئة فعملها فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامـة [٤]، وبالتـالي، فالمسـئولية الدينية تكون أصلية وتبعية على ما سبقت به الإشارة إليه ، في الخير والشر على السواء .

وفي نفس الوقت تظهر بداخلها المسئولية الفردية والجماعية ، من خـلال الصـور الـتي تتعلـق بالجوانب التضامنية [٥]، حين تكون هذه التضامنية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشـكل الاقتضـائي ،ويتضـح ذلك كثيرا عندما تكون القاعدة المشتركة هي التعاون ، ولذا جاءت آيات كثيرة تبين هذا الجانب .

منها قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٦] .

---

(١) والمعنى المتفق عليه في هذا الحديث متواتر المعنى ، وقد جاءت رواياته متعددة ، راجع النفحات السلفية في الأحاديث القدسية .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ١٦٦ و ١٦٧ .

(٣) المسئولية الأصلية تختلف عن التبعية كما تختلف علاقة التابع بالمتبوع ، ولذلك فمباحث المسئولية متعددة ، وجوانب الكتابة فيها واسعة شاملة .

(٤) راجع للعلامة الفشني : شرح الفشني على الأربعين النووية ، صـ ٢٧٣ .

(٥) وبالتالي أنواع المسئولية الدينية : أ – الفردية ، ب – الجماعية ، جـ – التضامنية ، وكل منها إما أصلية او تبعية ، فتصير الأنواع ستة على الأصول العامة ، وقد تلحقها تنوعات أخرى كثيرة تجيء من النواحي المتعددة .

(٦) سورة المائدة : الآية ٢ .

وقوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [١] ، وقوله تعالى ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [٢] .

وحتى لا يكون الأمر بعيدا عن دائرة النصوص الشرعية ، فإني أقرر أن موضوع المسئولية الدينية هو ما يتعلق بالعقيدة الإلهية ، والتكاليف الشرعية ، بجانب القيم الأخلاقية ، والفضائل التي لا غنى عنها ، ومصدر إثبات ذلك هو النقل المنزل ،سواء أكان هذا في المسئولية الظاهرة أم في الباطنة ، أم في غيرها ، ونظرا لإرتباط الدراسة هنا ، بالمسئولية الخلقية ، فسأحاول التعرض لها بشكل أساسي ، حتى أبلغ الهدف من أقصر طريق يوصل إليه مادامت النية منعقدة عليه ، وما ذلك على الله بعزيز .

### ثالثا : موضوع المسئولية الخلقية

مادمنا قد انصرفنا إلى أن الإنسان ، هو الكائن الوحيد الذي خلقه الله تعالى في هيئة خاصة به، وصفها الله تعالى بأنها في أحسن تقويم ، دل عليه قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [٣] ، فإن هذا الإنسان يعيش داخل سنن الله الكونية التي تجري به ، كما تمر من حوله دون أن يكون له دخل فيها ، أو تأثير بشأنها ، ولذا ، فهي خارج نطاق مسئولياته ، كجريان الشمس والقمر ، وتدوير الليل والنهار ، وتحريك السحاب، وإنزال الأمطار ،إلى غير ذلك مما لا يدخل في نطاق إمكانياته.

ثم أن هذا الإنسان قد زوده الله تعالى بالعقل والحكمة ، وبعث له الأنبياء ، ولأجله جاء المرسلون ، حتى يزيلوا عنه الحجب التي لا علم له بها ، ولا قدرة لإمكانياته في التعرف عليها ، أو كشف أستارها ، قال الله تعالى ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [٤] ، ثم أن هذا الإنسان قد أودع الله تعالى فيه رغائب التلاقي ، وطبائع الإجتماع والتمدن ، وجعله الله تعالى من هذه الكائنات على النحو الذي أمره الله تعالى به ، ويسر له أسبابه ، وطلب منه التأمل في نتائجها.

وبعد ذلك كله ، كلف الله هذا الإنسان ـ ضمن ما كلف به ـ أن يقوم على عبادته وحده لا شريك له ، وأن يحفظ العهود والمواثيق التي جاءته من عند ربه[٥]، وصارت هذه أمانات في عنقه ، لا يتحلل

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٥ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٧٨ .
(٣) سورة التين : الآية ٤ .
(٤) سورة النساء : الآية ١٦٥ .
(٥) هذه العهود هي جملة التكاليف العقدية والمعيارية ، بل أو السلوكية والأخلاقية ، فكلها جاءته من عند الله تعالى ، ويجب أن يصونها طبقا لما أمر الله سبحانه وتعالى .

منها إلا بالمحافظة عليها ، ولا يهمل فيها إلا كان مسئولا عنها مجزيا بها [١] ، وهذا من شأنه احتياج ذلك الإنسان إلى الترغيب والترهيب المتوالي .

لكن هذا الإنسان قد زوده الله تعالى بالقدرة على إتيان افعال ، والكف عن الأخرى ، والإرادة لأشياء بذاتها ، والإهمال أو النسيان والتجاهل لغيرها ، فإذا توافرت الإرادة على فعل عزما ، جاءت القدرة ، فجعلته واقعا لا رسما [٢] ، ومن ثم فقد صار مسئولا عن هذا الذي انعقدت عليه نيته ، وصح معه عزمه ، سواء أبقي في نطاق العزم المجرد ، والنية القلبية ، أم تجاوز ذلك إلى العمل الذي تظهر آثاره على أرض الواقع [٣] ، بحيث سكون مسئولا عنه ، من هنا ، فإن موضوع المسئولية الخلقية هو :

كل ما يصدر عن الإنسان من قول ، أو فعل ، ونية ، من خلال إرادة حرة ، واختيار ذاتي [٤] ، واقع في نطاق ما جاءت الأخبار الإلهية من تحمل أسبابه ونتائجه ومقدماته ، طبقا لما هو قائم في عزمه ، مستقر عليه عقله ، منعقد داخل قلبه ، متحرك بين وجدانه ، موصوفة به جوارحه [٥] .

ويمكن تقسيم هذا الموضوع إلى

أ - أجزاء تتعلق بالداخل ، كالنية والضمير ، والوجدان ، والعقل ،والقلب .

ب - أجزاء تتعلق بالظاهر ، كالأعمال ، والأقوال [٦] .

بل يمكن القول بأن موضوع المسئولية الخلقية هو ذاته ، ما يتعلق بالإنسان في الحالات الإرادية الإختيارية القصدية ذات الإرتباط النهائي ، بغض النظر عن ذات الفعل و طبيعته ، إذ العبرة بكون الإنسان محاسبا عليها جميعا ، فإذا كان الجواب بنعم ، بات مسئولا من كل ناحية ، ولا يكون هناك مبرر لإخراج صورة أو جزئية منها عن الميدان الذي يحاسب عليه ، لكونه مسئولا عنه .

---

(١) فالإهمال مرتبط بالعقوبة ، يصح أن يطلق عليها لفظ الجزاء ، لقوله تعالى ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ سورة الشورى:الآية ٤٠

(٢) لأن الأفعال تتم بالقدرة التي منحها الله تعالى للعبد في الأسباب العادية ، وبالتالي ، فالعبد مسئول عن قدرته لا على أقدار الله تعالى له ، والفرق بين الأقدار الإلهي والقدرة الإنسانية هو ذاته الفرق بين الإله الخالق وبين الإنسان المخلوق .

(٣) راجع كتابنا : أقسام حبية في الأفكار الصوفية ، حيث ترى الفرق ظاهرا بين الفكرة المجردة والواقع العملي الذي تكون أرض الواقع هي الشاهدة على وجوده .

(٤) لأن الإختيار الإجباري لا عبرة له، كمن يخير شخصا بين شيئين غير مقبول له، فهو لا يختار أحدهما إنما يكره على قبول واحد منهما .

(٥) هذه الجزئيات التي أراها تمثل الموضوع لا يختلف القول بأنها وجهة نظر يقينية، ولكنها التي رجحت عندي ، فمن وقف على غيرها كان له ذلك ، والله المستعان .

(٦) فكرة الأعمال والأقوال الظاهرة تمثل حديث اللسان، بينما الباطنة تعبر عن حديث الوجدان، والفرق بينهما كبير .

بدليل أن الصيغ التحذيرية قد جاءت بها الآيات القرآنية، من مثل قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [١]، فإذا كانت الآية بظاهرها قد حكمت ما يتعلق بالمسئولية الفردية والجماعية ، أو الشخصية والإعتبارية فقد جاءت عليها من كافة النواحي ، وبالتالي فلم يعد هنك مجال لإستبعاد آية جزئية من نطاق الموضوع الذي تتعلق به المسئولية الخلقية •

بل ، يمكن القول بأن كل ما يقع في نطاق الوسائل المعرفية - الحسية ، والعقلية ، والفعلية - يصير الإنسان مسئولا عنه، محاسبا عليه دون حاجة إلى قاعدة عامة يلجأ إليها، بحيث يرفع بها الحرج عن نفسه، أو ينحي جانبا منها طريق المسئولية التي هو محاسب عليها،لأن هذه كلها داخلة في نطاق الإنتحالات التبريرية التي لا تخفى على الله تعالى [٢]، حتى وإن خفيت على جميع الناس،لأن المسئولية الإنسان أولا وأخيرا أمام الله تعالى وحده•

ثم ن موضوع المسئولية التي تلزم الإنسان متعدد الأجزاء ، بحيث يشمل ما يجيء مع الليل والنهار ، في النور والظلمة ، إذ المعيار هو كون هذا الإنسان بالغ عاقل ، ثم هو يمارس ما يصدر عنه في إرادة تامة ، واختيار مقصود •

لكن إذا رددنا المسئولية إلى أنها إعلان إلتزام الفرد بما هو قائم في ملكاته وطاقاته ، كان هذا الإعلان يمثل لدى الأخلاقيين إلتزاما خاصا ، أنه إلتزام يتعلق بجانب واحد يمكن لهم مراقبته والحكم عليه [٣] ، وبالتالي فالموضوع الذي تقوم عليه المسئولية الخلقية ليس هو الذي أفاض الباحثون في تعريفه بالمعنى العام الشامل ، وإنما هو الذي يقع التأكيد عليه بالمعنى الخاص الضيق •

على إني ذاهب إلى أن المسئولية فيها اشتقاق وصفي ، قائم على إقرار ذاتي ، لأنا إذا حللنا هذا اللفظ - المسئولية - وأرجعناه إلى جزئياته الأساسية كان معناه الشيء الذي يجبي أن أسأل عنه أنا ، وأتحمل وحدي تبعاته [٤] ، وبناء عليه يكون اللفظ محمولا على المفعولية التي يرتبط موضوعها بالمعنى

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٣٦ •

(٢) أصحاب الأعذار التبريرية • كالحاوي الذي يحمل جرابا كلما أنقضت بعض عجائبه التي تلهي ذوي العقول الطفولية ، أخرج غيرها ، حتى يظل له التأثير الطبيعي على عقولهم الساذجة ، ويستمر في خداع مشاعرهم الغضة •

(٣) لأن عمل الأخلاقيين يرتد إلى مراقبة الفعل تارة مع الحكم عليه ، ثم مراقبة الفاعل تارة ، وصفه بالحكم الذي تم ضبطه على الفعل من الناحية التطبيقية •

(٤) قياسا على ما يجري في لفظ الأنا - نيه - فإن معناه نيتي وحدي ، أو أنا الذي يجب أن يكون مستقلا متفردا ، وهما من الألفاظ ذات الصيغ والدلالات الجزئية •

القائم فيها ارتباطا وثيقا بحيث يكون عاما إذا كان المقصود به العموم ، وخاصا إذا تعلق بفكرة موضوع خاص ٠

كما أن موضوع المسئولية مرتبط بحرية الإرادة الإنسانية ، وتقرير هذا المبدأ من مهام علماء الأخلاق [١] ، لكن تصنيف الموضوع مما يشترك فيه كل من أصحاب السلوك والتصوف ، بجانب الفقهاء وعلماء القانون [٢] ، بنفس المقدار الذي يلتزمه أصحاب المذاهب الأخلاقية ٠

رابعا : مكونات المسئولية الخلقية[٣] ،

ويقصد بها جملة الأمور الأساسية ، التي إذا توفرت في شخص ما ، أمكن القول بأنه مسئول عن أعماله ونتائجها من الناحية الأخلاقية [٤] ، حتى اعتبرت لدى البعض بمثابة الشروط الاستيفائية التي ما أن تتوفر في شخص ما ، إلا وينتقل إليه الوصف بأنه صاحب مسئولية ، أو قادر على القيام بأعبائها [٥]، ولا يتحقق ذلك لدى الأخلاقيين إلا إذا صار أهلا لتحمل تبعات ما يصدر عنه من أفعال ، بحيث يصير مؤاخذا بها . ومحاسبا عليها ،ولا يمكن إعفاؤه من أعباء هذه التبعات بحال من الأحوال ، مادامت الشروط قد توافرت فيه ٠

وقد يذهب البعض في الغرب إلى إعتبار هذه الشروط بمثابة مظاهر المسئولية الأخلاقية، حيث يعتقد لا فوازيه أن المسئولية أمر قائم في جميع بني البشر ، لكنه غير واضح ، ولا معروف ، إلا من خلال مظاهره التي تعبر عنها كالقدرة التميزية ، وادراك عواقب الأمور ، بجانب القصد الغائي ، والإرادة الحرة ، ثم القدرة على أنفاذ الفعل في صورته النهائية [٦] ٠

والذي يعنينا هنا ليست التسمية ، اوالإطلاق اللغوي ، إنما الذي نوجه اهتمامنا إليه ، هو دراسة هذه المظاهر التي تتسم بالمسئولية ٠

---

(١) ارتباط الموضوع بحرية الإرادة الإنسانية من باب تحصيل الحاصل مادمنا قد اتفقنا على أن الفعل الأخلاقي المعتبر هو الذي تتوفر فيه الإرادة الحرة ، بجانب الإختيار الذاتي ، والقصد الترابطي الإستهدافي أو الغائي ٠

(٢) هذه الأوجه الاشتراكية ، يقع فيها نوع من التباين الذاتي ، لأن المسئولية لدى القانونيين فيها تابع ومتبوع ، وعلاقة تبعية ، وقس على ذلك الأمر في الباقي ٠

(٣) يطلق الدكتور دراز عليها شروط المسئولية ، راجع : دستور الأخلاق في القرآن ، أثناء الحديث عن المسئولية ٠

(٤) فالمعيار هو توافر هذه الشروط ، لا توافر الفعل ، ومن ثم اعتبر البعض توافر الشروط بمثابة التمهيد للحكم ، ونظر إليه البعض الآخر على أنه ذات الحكم وطبيعته ٠

(٥) راجع كتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، صـ ٨٣ ٠

(٦) الدكتور محسن خليل السراوي : المسألة الخلقية من منظور آخر ، صـ ١٨٣ ، ط. أولى ، سنة ١٩٨٧ ٠

### ١ - الاستعداد الذاتي والطابع الشخصي

فكرة الاستعداد الذاتي تمثل حالة عقلية وجدانية داخلية ، وفكرة الطابع الشخصي وصف الحالة الذاتية ، فكل منهما تكمل الأخرى ، على معنى أن فكرة الاستعداد تكون داخل المرء ذاته طبقا لقدراته التي خلقه الله عليها ، وتكون المسئولية قائمة على هذه الاستعدادات دون سواها ، أما الطابع الشخصي فهو يلتزم بها وحده دون أن يلزم بها غيره [1]، ويترتب على كل منهما ، ما لا يترتب بالنسبة للأخرى ، أما لماذا ؟

فلأن الاستعداد الذاتي لتحمل المسئولية ، إنما هو إعلان صريح واضح من ذات الفرد عن استيفاء المقدمات السببية ، في هذا الفرد المسئول ، وتوافر الجوانب الشرطية التي لا بد منها حتى يكون منوطا به تحمل ما يمكن أن ينتسب إليه ، وهذا داخل في نطاق المقومات والاستعداد ، ويرشح له قوله ﷺ رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق .

أما الطابع الشخصي ، فهي صورة نتائجية قائمة على الطاقة ، بحيث لا يكون المرء مسئولا عن الأفعال التي لا طاقة له بها ، كما لا يكون مسئولا عن فعل غيره ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [2] .

وقوله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [3] ، وقوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [4] ، وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [5] .

إن هذا المكون يعتبر المثال الذي يجب أن يتم التركيز عليه في جوانب المسئولية الأخلاقية ، لأنه يخلي المرء من مسئوليات ما فعل بدون استعداد شخصي منه ، كما يرفع عنه عبء تحمل قضايا ومشكلات لم يقم بها ، يقول الدكتور دراز فينتج من هذا كله يوضح أن الثواب والعقاب لا يمكن أن

---

(١) قاعدة الإلزام والالتزام تجيء في أصول الفقه والقانون كما تظهر صورها السافرة في علم الأخلاق ، سواء النظري أو العملي ، لأن الإلزام يمثل السلطة ذات القدرة على إنفاذ ما يريد ، بينما الالتزام يمثل قيام الفرد بالأعباء التي تلقى عليه ، ويقوم في ذلك كله على أتم ما يجب .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

(٣) سورة النجم : الآية ٣٩ .

(٤) سورة المدثر: الآية ٣٨ .

(٥) سورة الطور: الآية ٢١ .

يتأتى فيهما أي تحويل وامتداد أو اشتراك ، أو التباس ، حتى بين الآباء والأبناء ، وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين مثلا ، عن الأمثلة التي لقنوها لنا ، والعادات التي أخذناها عنهم ،وإذا كنا مسئولين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة ، فلا يجب مطلقا أن نتحمل وزر ما عملوا [١] ، لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٢] .

ولما كانت المسئولية ذات استعداد شخصي ،فإن من لم تتوافر لديه هذه الاستعدادات لم يكن متحملا لها ، إذ لا يعقل أن يكلف من لا يملك الاستعداد على القيام بأعباء ما تستلزمه من واجبات ، وما يتبعها من ضرورات ، لأنه مستقر في الفطر السليمة وجود قوى داخلية [٣]، واستعدادات ذاتية تقوم على مرتكزات وقوانين تجري فيها العلاقات التي تتم المسئولية من خلالها ، وتقوم المحاسبة عن طريقها .

فإذا وقع المرء في خطأ ما سارع إلى التخلص منه بالتوبة الصادقة ، والقصد الجازم ، مع التخلي النصوح ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [٤].

بل جاءت آيات القرآن الكريم ترسم طبيعة هذا الاستعداد الذاتي في الطابع من خلال فصل العلاقة بينه وطابع المسئولية الذاتي الشخصي في قوله تعالى ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴾ [٥] .

يقول الدكتور دراز أن القرآن الكريم يصور لنا أن أخذ البريء بالمذنب لا على أنه مضاد للشريعة الإلهية فحسب ، بل هو كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية [٦] ، كما هو مخالف لما هو ثابت في الفطرة البشرية ، ومن ثم فهو إتجاه غير مقبول .

ولما كانت فكرة الاستعداد الشخصي ، تستلزم فكرة التتابع الشخصي في المسئولية ، فقد ظهرت علاقات طولية وعرضية ، بين المسئولية الأصلية والأخرى التبعية ، وكذلك بين المسئولية الفردية والجماعية ، بحيث ينتهي الأمر إلى القول بأن الاستعداد والطابع الشخصي قد نظر إليهما الأخلاقيون

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٤٩ .
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٤ ، راجع الآية ١٤١ .
(٣) وجود هذه القوى والاستعدادات ، يدركها كل فرد منا ، مادام صاحب عقل سليم ، ووجدان مستقيم ، وقدرات متنامية وقلب سليم ، وخلق يجري على قاعدة العدل والحق .
(٤) سورة التين: الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٥) سورة يوسف: الآية ٧٩ .
(٦) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٥١ .

على أنها من ميدان المسئولية ومقوماتها الأصلية، ومكوناتها الأخلاقية ، ولا مانع من حسبانها على ما يرى الدكتور دراز ، وإدخالها في نطاق شروط المسئولية [١] .

## ٢ ـ استواء الملكات والإمكانيات

الملكات هي التي خلقها الله تعالى لكل فرد على حده ، ومن أبرزها العقل الذي به يميز المرء بين النافع والضار ، بين الخير والشر ، بين المدبر والمقبل ، ولذا ، فالعقل من أجل النعم الإلهية على العباد [٢] ، وعليه مدار التكليف ، ومن خلال وجوده يخاطب الله هذا الكائن الإنساني ، بقوله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [٣] .

وهذا العقل ملكة نورانية يدرك بها الإنسان العلوم الضرورية البديهية والنظرية الكسبية [٤] ومتى كانت هذه القدرات العقلية متوافرة في شخص ما فإن تصرفاته يجب أن تكون طبيعية متوافقة مع القوانين الإلهية التي فطرها الله في الناس ، من حب الخير والاهتداء إليه ، وبغض الشر مع الانصراف عنه [٥] ، والقوانين التي جاء بها المرسلون على النواحي القلبية الوجدانية ، والمعرفية العلمية [٦] ، بجانب التكاليف العملية لأن الإنسان يتميز عن الحيوان بميزات كثيرة منها العقل والتفكير ، ثم النطق والتعبير .

لكن هذه الملكات ليست في كل الناس على قدر سواء ، كما أنها غير متساوية بالنسبة للعمليات الإدراكية ، فالطفل الرضيع غير الصبي ، وهما معا غير الشاب البالغ والعقل يشهد بذلك ، كما أن التجربة والواقع من أقوى الأدلة عليه ، ومن ثم ، رفع الإسلام التكليف عن الصبي حتى يبلغ [٧] ،

---

(١) راجع لدكتور محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق في القرآن : صـ ١٤٨ـ تحت عنوان شروط المسئولية الأخلاقية والدينية .

(٢) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٩٥ ، وكتابنا أوراق منسية في النصوص الفلسفية ، صـ ١٢٩، الطبعة العاشرة ، وراجع للإمام الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ ١ ، حيث تناول هذا الجانب في كثير من التفصيل .

(٣) سورة القرة : الآية ١٩٧ .

(٤) والفرق بينهما من وجوه عديدة ، راجع كتابنا: أنسام حبة في الأفكار الصوفية ، صـ ١٠٩ وما بعدها ، الطبعة الثامنة .

(٥) ورأيت إطلاق اسم القوانين الإلهية عليها من باب التسامح ، لأنها قائمة في جميع الناس ذوي الإتجاهات المتساوية ، لا يفترق فيها قوم عن آخرين أنها ثابتة من باب المنح الإلهية ، جارية في سننه جل شأنه ، ولن تجد لسنة الله بديلا .

(٦) وهذا كله يدخل في باب ما تجيء به الشرائع مع الأنبياء والمرسلين ، وكلها لصالح المخلوقين ، ومن ثم يجيء تناسبها معهم فيه الحكمة من كافة الوجوه ، سواء أدركناها نحن أو لم ندركها .

(٧) وفي الحديث الشريف ، قول الرسول ﷺ رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ ، والنائم حتى يستيقظ ، والمجنون حتى يفيق ، ذلك مما يؤكد عدم تحملهم آية مسئولية ماداموا في هذه الظروف .

وتستوي مداركه إلى حد النضج ، فتصير قادرة على التميز بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، إلى غير ذلك من المتقابلات •

أضف إلى ما سبق ، أن بعض الناس قد يقعون تحت ضغوط مختلفة ، يترتب عليها فقدان هذه الملكة كليا أو جزئيا ، إذ لا يكون ذلك من أصل الخلقة ، وإنما يتم بعد ذلك [1] ، وقد يقع لهم هذا الأمر داخل مراحل حياتهم المختلفة ، حينئذ لا يكون هناك مناص من القول بأنهم فقدوا قدراتهم العقلية ، عضويا ، أو مرضيا [2] ، وهؤلاء جميعا لا يدخلون في نطاق ذوي الملكات والإمكانيات المتساوية ، أو الاستوائية ، وإنما يدخلون في نطاق ذوي الأعذار الذين لا تلحقهم المسئولية ، ولا يتحملون تبعات ما يصدر عنهم من أفعال •

لقد استبعدنا الحيوان الأعجم من الفعل الإرادي القصدي الاختياري منذ بدأنا الحديث عن الخلق ، لكن هذا لا يمنع من القول هنا بأن الحيوان غير مسئول عن تصرفاته، حتى لو كان معلما ، أو مدربا عليها ، ككلاب الصيد مثلا ، والقردة ، وحيوانات السيرك [3] ، لأن ما يقومون به إنما هو ناتج عن أعمال تدريبية قامت في الأعضاء ، ولم تقم داخل الإمكانيات ، والملكات الخاصة •

بدليل أن الكلب المعلم كثيرا ما يخطيء وتغلب عليه نزعته الكلبية ، فيأكل مما اصطاده ، وكذلك الأسد كثيرا ما تنتصر عليه نزعته الإفتراسية فيأكل مدربه [4] ، وما ذلك العمل إلا من الأدلة على أنه بالتدريب اكتسبت هذه الحيوانات عادات ولم يغير في طبيعتها من نزعات •

من ثم فالإنسان الذي تكون لديه الملكات والإمكانيات على قدر الإستواء ، هو الذي يتحمل المسئولية ، بل ويوزن بها فعله الخلقي ، ويحاسب على ما يصدر عنه ، بغض النظر عن الدوافع التي يتذرع بها ، والتعليلات التي يحاول الاستناد إليها [5]، وأما الإنسان الذي فقد القدرة على التميز بين

---

(١) هذه النماذج تتكرر على مسرح الأحداث اليومية ، حيث يحكم على هذا الفرد أو ذاك بأنه مجنون ، نظرا لعدم قدرته على إدراك ما يحيط به ، والتعامل معه بشكل آمن تتحقق معه المصالح المشتركة على التواحي الإيجابية •

(٢) كالحال مع أصحاب مرض الزهايمر الذين يقع عليهم النسيان وتمحى من ذاكرتهم كل المعارف دفعة واحدة ، كلية ، أو على التوالي ، ولذا كان دعاء سيدنا محمد ﷺ اللهم أحفظ على عقلي وسمعي وبصري وقوتي ما أحييتني وأجعله الوارث مني •

(٣) لأن التدريب يمثل نوعا من المحاربة التي تجيء على سبيل الإجبار والإكراه ، ولا تكون من باب الاختيار القصدي أبدا بدليل أن كل واحد منهم متى انفرد بخواصه الطبيعية عاد إلى ما هو قائم في طبعه لا ما هو مدرب عليه ، وقصة الذئب والراعي سبق ذكرها •

(٤) كثيرا ما تطالع هذه العمليات الإفتراسية على صدر الصفحات التي تفرد لهذه الأحداث مساحات واسعة على سبيل التناول والعرض ، وصفحات الحوادث فيها من ذلك كثير •

(٥) الكثير من ذوي السلوكيات الخاطئة يحاولون تبرير أفعالهم العدوانية ، وجرائمهم الأخلاقية ، بل أنهم يسرفون في الهرب منها عن طريق العديد من الوسائل التي تكشف عن سلوكيات غير صحيحة ، وأخلاق لا يحكم عليها بالخيرية أبدا •

الحق والباطل وإدراك الفارق بين الخير والشر، النافع والضار ، فلا يكون داخلا في نطاق ذوي المسئولية الخلقية.

من الملاحظ أننا بإزاء هذا المكون ، نجد أنفسنا تسير باتجاه إصدار حكم أخلاقي، في من استوفى هذا المظهر ، والمكون الذي تتعلق به المسئولية ، ثم صدر عنه عمل من الأعمال ، أو فعل من الأفعال الإرادية التي هي في الأصل أحد الميادين الأساسية التي يجري فيها علم الأخلاق أحكامه [١] ، لأنها ناشئة عن أصل قائم بإعتباره جزئية من جزئيات موضوع علم الأخلاق ، وما ذلك إلا لتوافر ركن المسئولية ، وهو علة الحكم الأخلاقي [٢] ، إذن ، معيار العلة هو القدرة على تحمل المسئولية .

ثم نأتي للإتجاه الآخر ، حيث نجد أنفسنا في حالة من إنعدام القدرة على إصدار حكم أخلاقي بالنسبة لمن فقدوا عقولهم بأمر خارج عن إرادتهم ، أو فقدوا القدرة على التميز بين الحق والباطل ، عندما تشتد الكربات ، وتتوارى الإرادات ، ولا يبقي إلا الصور الإلجائية في مظاهرها الحقيقية [٣] ، بغض النظر عن المظاهر التي قد يظن أنها إختيارية ، وما هي إلا صور زائفة تعبر عن حرية خرافية ، حينئذ لا يكون هناك مجال لإصدار حكم أخلاقي [٤] ، وبالتالي ، تنعدم المسئولية .

فإذا وضعنا في الحسبان العلاقة الطردية ، أو العلة الدائرة مع المعلول وجودا أو عدما [٥] ، وحاولنا تطبيق ذلك في مجال المسئولية الأخلاقية ، تبين أنه كلما وجدت المسئولية الخلقية أمكن إصدار الحكم الخلقي، ومتى إنعدمت المسئولية الخلقية أنعدم إصدار الحكم الخلقي ، والعلة في إنعدام الحكم الخلقي على البله والمجانين ، وذوي الأعذار المكرهين ، إنما هو إنعدام قدرتهم على التميز بين الخير والشر أو الإختيار ، بين النوعين ، الحسن والقبح ، ما يستوجب المدح أو القدح .

---

(١) إصدار هذا الحكم الخلقي ، ينبغي أن يتم على الوجه الأمثل ، من غير إنتقاص لصورة من الصور ، نظرا لقيامه على القاعدة العامة ، والركن الأساسي من أركان المسئولية الخلقية ، مع ضرورة ملاحظة الفوارق الدقيقة بين المسئولية الخلقية والحكم الخلقي ، إذ العلاقة بينهما قابلة للإنفصال كما هي قابلة للإتصال بنفس الدرجة .

(٢) هناك فرق بين الحكم الخلقي والعلة التي يصدر عنها ، ومن ثم ، فلا بد من مراعاة هذه الجوانب أثناء الدراسة في الأخلاق النظرية على وجه الخصوص .

(٣) كالمهدد في عرضه أو ماله ، أو دمه ، أو حياته ، ولا تكون له فرصة حقيقية كالذين توجه لهم تهم سياسية هي كيدية أو دينية ، غير حقيقية ، أو مالية ، أو اقتصادية ، ويجد المرء أمامها صاحب إختيارات محددة ، كلها قمعية ومنعية .

(٤) بل إذا صدر حكم أخلاقي ، على هذه الأفعال ، كان معيبا لقيامه على صور القسر والإكراه .

(٥) مثال ذلك ، إذا قلنا أن الخمر مسكر ، فالخمر علة الإسكار ، وبالتالي فكلما وجد شرب الخمر وجدت علة الإسكار ، وإذا امتنع شرب الخمر أمتنع الإسكار و تسمى في أصول الفقه بالعلة الدائرة ، راجع للإمام الغزالي : المستصفى ، جـ ٢ ، صـ ٣٣ .

لقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية دالة على ضرورة وجود هذا الإعتبار في الفعل ، حتى تكون المسئولية قائمة على وجه صحيح ، وفي نفس الوقت يكون الحكم الخلقي معتبرا ، من ذلك عدم الإعتداد باليمين في حالة الاغلاق ، والتجاوز عن الخطايا التي ترد من هذا الطريق ·

فيقول الله تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١] .

كما جاءت السنة المطهرة مرتبة النتائج على الأفعال غير السبقية ، إذ تمت في حدود عدم استيفاء أو استواء الملكات والإمكانيات ، يدل على ذلك قوله أن الله رفع عن متى الخطأ والنسيان وما إستكرهوا عليه [٢] ، نظرا لانعدام المسئولية ، فلا عقوبة بلا جريمة ، ولا جريمة بلا مسئولية ، ولا مسئولية إذ لم تتوفر القدرة على الإدراك والتميز، وهي سمة التيسير ، وضبط القواعد التي جاءت داخل أحكام الشريعة الإلهية ·

إن المسئولية الخلقية هي إيقاف المرء العاقل المميز أمام أفعاله ، حيث يتحاكم فيها إلى ضميره الذي استقرت فيه قوانينه بأدلتها ، وثبتت فيه حجيتها [٣]، لأنه الذي يمكن أن يحاسب صاحبه ، تأنيبا ، ووخزا ، وتعذيبا ، حتى يجعله يشقى أبدا ، ولا يطمئن في حالة من الأحوال [٤] ، ولا يتم ذلك إلا من خلال ثوابت أصولها قائمة في الإدراك، معتبرة لدى العقل ، واضحة بصورتها الأصلية في الملكة النورانية ·

### ٣ ـ تكامل إرادة الفعل القصدية والغائية ـ النية والقصد ـ

تعتبر إرادة القصد للفعل من أركان المسئولية على الناحية القانونية والأخلاقية، لأن إرادة الفعل تمثل الاتجاه نحوه في إختيار ترجيحي ، و إختيار ذاتي بجانب قصد تجري فيه صفة العمد ، حتى

---

(١) سورة المائدة : الآية ٨٩ ·

(٢) والظواهر الحديثية حول هذا المبدأ متعددة إلى الحد الذي يجعلها واضحة ، كما أن هذه الظواهر قد ترتبت عليها الأحكام الفقهية أو داخل المؤلفات التي عنيت ببيان ذات الجانب ·

(٣) الضمير الأخلاقي غير الضمير السياسي ، وهما غير الضمير الاقتصادي، ويمكن مراجعة ذلك في كتابنا: الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ·

(٤) أصحاب الضمائر المعذبة يتجولون بين الناس كالحيوانات المفترسة التي تبحث عن إشباع غرائزها تحت أي مسمى ، بغض النظر عن الصورة أو الكيفية التي يتم بها هذا الإشباع ، إنهم تجردوا من نور الإيمان ، فسرقوا ، وكذبوا ، واختلقوا الأعذار ، وكانوا شياطين نيرانية في صورة آدمية ، مطمعهم الدنيا ، غايتهم الدنيا ، هدفهم الدنيا ، فانطبق عليهم الأمر القائل يا دنيا من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه ·

تكون هي الطابع العام له ، فإذا تحققت إرادة القصد ، ووقع الفعل ، أمكن بروز دورها في المسئولية [١] ، فإذا صدر الحكم الخلقي كانت العلة واضحة ، وهي قيام القصد فيها بدورها الطبيعي ، وبذات المستوى الذي يمكن لها أن تمارسه .

فالمنفق الذي يدرك عواقب الأمور ، ثم يقبل على إطعام الفقراء و المحتاجين ، أو يغطي حاجة المسكين ، ويمسح دمعة عين يتيم ، أو يسارع لتفريج كربة مكروب ، أو إزاحة غمة مغموم [٢] ، فإن الفعل الذي قام به أخلاقي تماما ، ارتبطت فيه إرادة القصد بإيجاد الفعل ، وتعانقت بواكير الإرادة الجازمة ، مع ناحية القصد الاختياري [٣] ، ومن ثم ، صدر الحكم الخلقي على هذا الفاعل بأن عمله خير ، وأن هذا الإنسان ذاته محسن .

وإذ اتجه هذا المنفق إلى توزيع ماله بين الصعاليك ، الذين أضناهم الهوى ، وأضاع حلومهم العبث ، وافترشوا أرض الغرائز ، ثم التحفوا سماء الشهوات والملذات [٤] ، ويعلم هذا المنفق عنهم ما هم فيه ، ومع هذا يعطيهم ويقترب إليهم ، يدنيهم حتى يكونوا له أصحاب السلوى ، وموضع الراحة ، فلا شك أن الحكم الذي يصدر عنه إنما يحاكم إرادته التي بدت مظاهرها في سفه واضح ، وعبث منقطع النظير [٥] ، وهنا يوصف فعله بالشر ، وتكون مسئوليته عنه تامة ، بحيث يتحمل تبعاتها .

مثال آخر ، ذلك الذي يجمع في بيته الفقراء ، ذوي الحاجات ، فيمهد لهم أسباب الحياة ، ويمد لهم فيها ، ثم يوسع عليهم بقدر طاقته ، سواء أكانوا طلاب علم ديني ، أم غير ديني ، يرضي الله تعالى ، أم كانوا من أصحاب الأعذار [٦] ، وهو في جمعه لهم لم يمارس ذلك بإرادة تامة ، وحرية

---

(١) الإختيار الترجيحي من أبرز مظاهر حرية الإرادة ، أما الإختيار الذاتي فهو من أهم ملامح الحرية ، طبقا للمنطوق اللغوي والمعنى الإصطلاحي ، ولهذا يجب التنويه ، وعليه يتم التنبيه .

(٢) هذه الصور التماثلية في المجال الأخلاقي لا يشترط تماثلها في المجال الواقعي و نظرا لاختلاف طبيعة كل منهما عن طبيعة الآخر ، واختلاف الطبائع من العلاقات التميزية .

(٣) القصد الاختياري فيه عمليتان ، أحدهما تسير إلى داخل النفس ، والثانية تتجه إلى الفعل وطبيعته ، ولذا فالمركب التوصيفي له دلالة إرشادية ، وصورة إرتباطية من خلالهما معا تزول إشكالية البحث في المسألة .

(٤) المؤسف له أن هذه الحالات الإنفلاتية تجد لها أرضا في ديار الإسلام ، وتجد من ينفق عليها في بذخ شديد ، تحت شعارات كاذبة لأفعال وهمية، منها حفلات لا ترضي الله ولا ترضي رسوله ، راجع كتابنا: أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ، صـ ٢٥٣ ، كتابنا : لماذا ينكمش أبناء الإسلام : صـ ٢١٩ .

(٥) صحيح تتعدد الصور والمظاهر العبثية لكن علماء الأخلاق لا يرتضونه ، ومهما كانت مظاهرة أو غاياته البحثية ، فإنه داخل لدى الأخلاقيين في نطاق الأعمال القبيحة .

(٦) مظاهر كل فريق من الثلاثة مختلفة ، فالفقراء أصحاب الحاجات لهم مظهر واضح ، وطريقة دالة عليهم، وطلاب العلم الذي يرضي الله تعالى لهم سماتهم ، أما أصحاب الأعذار الذين يطلبون مساندة أو مساعدة ، فلهم طابع استقلالي عن السابقين .

استقلالية ، حتى أنك لو حاولت صرفه عن هذا الطريق اعتبرك أسوأ رفيق ، فلا يمكن أن يصدر عليه حكم خلقي سوي ، إنه صاحب فعل خير ، سواء أنفق عليهم أم لم ينفق [١] ، إذ العبرة بتوافر المكان الذي توجد فيه الراحة النفسية ، وتتحقق معه السعادة الإنسانية ٠

أما إذا جمع الناس من أخيافهم ، أو اصطفى بعض أنواعهم ، ثم اتجه معهم لإعلان حقوقهم الكاذبة في ممارسة حرياتهم ، فقاموا بتدخين المحرمات ، والوقوع في أعراض الأبرياء ، بجانب الخوض في الأمور الواقعة داخل نطاق الغيبيات [٢] ، ثم اندفع هؤلاء إلى ممارسات غير محمودة ، فإن الفعل الذي قام به هذا الإنسان يمثل خروجاً على القواعد الأخلاقية التي تعلم الناس العدل ، وتلزمهم ممارسة الحق ، وبالتالي يوصف فعله بالسوء ، كما يوصف بالشر والقبح ، إلى غير ذلك مما يجري في الأحكام الخلقية ٠

ثم أن حرية الإرادة في القصد تقوم على التفكير الذي هو أحد السمات الأساسية للإنسان ، مادام مفكراً ، ومن ثم فقد حرص الأخلاقيون وغيرهم على إثبات حرية التفكير في القضايا والمشكلات التي يمكن للعقل أن يخوض فيها [٣]، إذ لا يمكن أن يكلف العقل ببحث قضايا أو تناول مشكلات لا قدرة له عليها ، وألا كان زبحا للعقل بإسم التفكير [٤] ، وهذا تتمثل فيه الإرادة ، كما يظهر معها الاختيار ، ولا يمكن تصور غير ذلك ٠

ثم يأتي دور التعبير ، وهو الذي يمثل الإرادة الغائية ، أو الجانب الثاني من جوانب حركة الإرادة ، فإذا كان التعبير متوافقا مع أهداف الشريعة الإلهية ، كانت الغاية محمودة ، ويوصف الفعل الإرادي بأنه خير ، كما ينتقل الوصف إلى الإرادة والمسئولية [٥] . فتقول هذا المرء يدرك مسئوليته في صور صحيحة ، ولا يؤديها على النحو الأمثل ، وهنا تنعت فعله بأنه خير من الناحية الأخلاقية ٠

---

(١) معيار الخير والشر ، وهو مقياس واقع في نطاق الإلتزام بما فيه الإلزام ، وهو النقل المنزل ، ثم المصادر التشريعية ، وبعدُها تأتي العادات الثابتة ، والأعراف المستقرة داخل البيئة التي يعيش فيها هذا الإنسان، الذي تتجه إلى فعله من الناحية الأخلاقية ٠

(٢) هذا مما يمارسه الجمع الكبير ممن وهبهم الله أسباب الحياة ، فبدل أن يشكروا أو يطيعوا ، يقع لهم اللهو والإنحراف حتى تتحول حياتهم إلى العربدة وأفعال السخرية ، قال تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ سورة التكاثر : الآية ٨ ٠

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٩٧ ، حيث عرضت هذه الجوانب في صور تفصيلية ٠

(٤) والكثيرون يذبحون عقولهم تحت هذا الغطاء الكاذب الذي يطلقون عليه تارة حرية التفكير ، وتارة أخرى ممارسة الحقوق المشروعة ، وما هي إلا انفلاتات تؤدي بأصحابها للهاوية ٠

(٥) هذا الانتقال تفرضه الضرورة البحثية ، وأعني به الانتقال من المبادئ إلى المقاصد ، ثم الغايات ، وهو انتقال علمي أيضا ٠

إن المسئولية في حقيقتها إلتزام يقوم به المرء من خلال مظاهر حيوية تجري فيها الإرادة القصدية ، والغائية ، فإذا وجد الفعل ولم توجد إرادته القصدية ، كان منتفي القصد ، كمن يؤدي عملا ما بصورة آلية ، فيجيء مع هذا الفعل أعمال أخرى ليس فيها واحد مرادا ولا مقصودا أصلا ، فالإنسان الذي يعطي المريض بالقلب دواء على أن هذا المعطي قد استعمله في الكحة مثلا ، أو إزالة البلغم ، ثم شفي المريض من علة القلب ، لم يكن فعل الأول موصوفا بالحسن ،ولا القبح ، إذ الإرادة القصدية لم تتوافر فيه [١] ، على أي وجه من الوجوه.

أضف إلى ما سبق أن الفعل الأخلاقي يقوم على القصدية بشكل أساسي ، أما الغائية فإنها تكون على ناحية تبعية ، فالذي ينفق على فقراء لا يملكون قوت يومهم إنما تتم إرادته الفعلية على تلبية إحتياجاتهم الضرورية ، أما أن تقع لهم بها الإستفادة على الوجود المتميزة ، أو تحقق لهم جملة الفوائد الحتمية ، فهذا لم يدر له بخلد ، لأن الغايات تقع في النطاق الغيبي على سبيل الأصل ، وإن كان يجري فيها كل من التنبوء والحدس والتخمين [٢] ، فليس ذلك إلا على سبيل الظن أو التوقع .

بناء عليه ، إذا تم الفعل بإرادة مرنة ، و إختيار تام ، وجاءت القصدية مؤاخية لهذه الإرادة ، و أمكن الحكم على الفعل بالأحكام الخلقية [٣] ، نظرا لقيام الفاعل تحت جناح المسئولية ، وكان موصوفا بفعله ، متحملا نتائجه ، نظرا لتوافر العلة ، وهي وجود الإرادة الحرة القصدية ،أما إذا تم الفعل من غير هذه الإرادة الحرة القصدية ، فلا يكون صاحبه مسئولا عنه ، كما لا يحكم عليه من خلاله نظرا لانعدام المسئولية الخلقية .

وإذا كان مفهوم الإرادة هو المحبة ، والحمل عليها ، مع طلب ذاتي ، ورغبة داخلية [٣] ، فإنها في الفعل الأخلاقي تقوم مقام الطلب بالمعنى الحرفي ، والترجيح للشيء على غيره بالمعنى الفلسفي ، وتحقيق هذا الفعل من غيره بالمعنى الكلامي [٤] ، ومن ثم كانت إرادة القصد تمثل المساحة السبقية

---

(١) لو أنه أعطاه لمريض بالكحة ، أو مريض لديه كثافة بلغمية ، فإنه يكون قاصدا له ، وإرادته القصدية تكون متوفرة ، نظرا لسابق التجربة ، بغض النظر عن النتائج الجديدة .

(٢) يختلف كل واحد من الثلاثة عن الآخر ، راجع للشيخ السيد الشريف الجرجاني : التعريفات ، وراجع كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد ، صـ ٩٧ .

(٣) ولما كانت الأحكام الخلقية متعددة بالاعتبارات المختلفة، فإن توجه بعضها إلى الفعل ، كان وصف له ، أو حكما عليه ، أما إذا توجه إلى الفاعل فإنه وفعله يكونان واقعين تحت مظلة الحكم الأخلاقي ، إذ لا اعتبار لشيء آخر وراء ذلك .

(٤) هذه المعاني واردة في اللغه ، راجع المعجم الوسيط ، باب الراء ، أساس البلاغة باب الراء ، فصل الياء ، والمنجد في اللغه والإعلام ، مادة أراد .

(٥) الجهات الثلاثة مختلفة ، مما يدل على إمكانية مجيء العديد من الصور التي تظهر فيها الإرادة ، كما يبدو دورها أيضا ، وهذا مما لا نزاع فيه ، بل هو محل الاستقرار .

لوجود هذا الفعل، بينما إرادة الغاية تتمثل فيها النتائج الإرتباطية الترتيبية على الفعل ، فهما إرادتان، كل منهما تتناول جانبا من جوانب الفعل المحكوم عليه .

على إني ذاهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، أن يتراءى لي أن الإرادة القصدية ترتبط بالفعل على وجه دقيق ، وحينئذ لا يمكن الحكم عليه بأنه أخلاقي من عدمه ، أما الإرادة الغائية التي تقوم عليها النتائج فهي مرتبطة بوصف الفاعل من كونه أخلاقي النزعة أم لا [١] ، وكونه من ذوي الأخلاق الخيرة أو الشريرة ، الحسنة أم القبيحة .

ومما يعزز هذا الإتجاه هو أن المسئولية التي تتم المحاسبة الخلقية عليها من خواص الفاعل ، لا من طبيعة الفعل ، ونحن نحتكم للأخلاقيين في الأفعال عندما يراد تصنيفها ، لكننا نحتكم في الفاعل عندما نريد تقرير الوصف الذي يلحقه [٢] ، فهما جهتان منفكتان في الأصل ، متلاقيتان بإعتبار القصد والغاية ، أو المقدمات والنتائج ، فإذا إنعدمت الإرادة ، إنقطعت المسئولية ، والمسألة بينهما فيها الطرد العكسي على ما سلف بيانه .

بيد أننا إذا عزفنا أنغاما خيالية على أوتار واهية ، فإننا نكون حتما عابثين ، كما تكون أحكامنا الخلقية واقعة في هذا النطاق ، وإذا تم تجاوز حدود الأنا الذاتي ، أمكن لنا القول بأن هذه الأخلاق العبثية غير مرغوبة في ذاتها[٣] ، وتمثل نوعا من الإنفلات في المجال الأخلاقي على الناحية النظرية داخل صورة من الصور .

## ٤ ـ حرية الامتثال والامتناع

الحرية الأخلاقية هي شعور الإنسان أن لديه قدرة يمكن له أن يختار بها أي النقيضين ، ويملك حق الاستعمال لما اختاره ، يقول الدكتور دراز أن الحرية هنا ليست حرية الخلاص ، تلك التي تبرئ مسئوليتنا ، ولكنها الحرية التي تشترط المسئولية ، وتقوم أساسا لها ، والمهم هو معرفة ما إذا كنا في جميع الأعمال الإرادية نملك فعلاً هذه القدرة على النقيضين أم لا [٤] ، إنها تختلف عن الإرادة من جوانب كثيرة ، وقد تتشابه معها في بعض الجوانب الأدائية .

---

(١) بتفكك الجهة مفيد لمن يبتغي الدراسة ، لأن ذلك يساعد المبتدئ كما يفيد العالم ، راجع كتابنا : تأملات غزاليه في القضايا الكلامية .

(٢) راجع في هذا الشأن : المؤلفات الكلامية لعلماء الإسلام ، وكذلك ما يتعلق بالقضايا المنطقية ، ففيها كلام طويل حول هذه القضايا من طرفيها .

(٣) جرت العادة أن تسعى النفس إلى ما فيه الفائدة ، أما الذي لا فائدة فيه فإنها تنصرف عنه ولا تلتفت إليه طالما كانت نفسا صحيحة .

(٤) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، صـ ١٩٧ .

فالحرية في المدلول اللغوي هي الخلوص من شوائب الرق واللوم ، ومتى كان المرء غير مقيد بسلطة لا يمكنه التعامل معها ، فإنه يكون في الميزان الخلقي حرا ، بالمعنى الذي جاء عليه المنطوق ، ويصح إتيان المفهوم عليه [١]، وهذه الحرية تمثل أحد المكونات الأساسية في المسئولية [٢] أما لماذا ؟ فلأن الإرادة هي القرار الكاشف لطبيعة العمل الأخلاقي ، وتمهد في نفس الوقت داخل المرء للحرية ، حتى يقوم بواجباتها ،أو تلعب دورها ، حيث تكون قادرة على ضبط إيقاع الإرادة واستكمال دورها •

فأنا إذا ملكت حريتي ، كانت إرادتي خالصة لي ، إذ أستطيع أن أميز الذي أريده من الذي لا أريده، وأنفذ على أرض الواقع ما أرى أنه ينفع بالنسبة لي على الناحية الأخلاقية[٣] ، حينئذ أكون قد وقفت في قمة الطريق الذي يفضي بي إلى تحمل التبعات ، التي هي من صميم على المسئولية أو ترتبط بها ارتباطا شرطيا وتبين العري قوى العلاقات •

كل إنسان يود ممارسة حقوقه الإنسانية على أتم ما يكون ، وأبسطها أن يكون حرا في هذه الممارسة ، ودون أن يقع تحت ضغط قانون قمعي ، أو قوة منعية ، أو قوانين ذات صلات توجيهية ، وما من أحد يرضى لنفسه أن يقاسمها أمرئ في حقوقها مهما كانت الحجج التبريرية ، وكان لسان حاله يقول :

آه من دار نعيم كلما ∴ جئتها اجتاز جسرا من لهيب
وأنا الفك في ظل الصبا ∴ والشباب الغض والعمر القشيب
أنزل الربوة حينا عابرا ∴ ثم أمضى عنك كالطير الغريب [٤]

إن الحرية هي الجسر الذي يعبر فوقه الإنسان بآماله وأحلامه ، وهي في ذات الوقت المركب الأمن الذي يبلغ به هذا الإنسان مأربه ، وفوق ذلك فهي القارب الذي ينزل إليه المرء فيجوب به عباب

---

(١) هذه المعاني يمكن مراجعتها في المصادر العربية ، راجع تهذيب الأزهري وتهذيب القاموس ، والمعجم الوجيز ، باب الحاء ، صـ ١٤٤ •

(٢) تعددت جوانب مكونات المسئولية ، وتكاثرت إلى الحد الذي يجعل الناظر إليها يراها متباعدة ، وهي في ذات الوقت تعبر عن اتجاهات أصحابها الذين يرون أن تعدد مكونات المسئولية أو عناصرها إنما هو دليل على الثراء الفكري والإمتياز البحثي •

(٣) فالحرية تعطي الإنسان القدرة على التجادل مع الطبيعة ، ثم السعى نحوها بخطى واثقة ، لأنه على يقين من وجود قدرة الله النافذة وإرادته الكاملة وعلمه المحيط الشامل ،أنه محاط بها كلها من قبل الله تعالى، حتى تحفظه وترعاه ، وتهديه إلى الطريق السوي ، كما تصل به إلى الخط المستقيم الذي يصله بالله جل علاه •

(٤) الدكتور إبراهيم ناجي . قصيدة الوداع ، ضمن مختارات إبراهيم ناجي ، صـ ٢٧ •

البحر ، ويغالب معه شدة الموجات العاصفات، كلما كان شاعرا بها، فإن ما يأتيه من أفعال يقع خالصا لـه [١]، ما في شيء من ذلك أدنى شك ، ومن ثم هتفت جوانح الشاعر وغردت قيثارته .

اعطـني حريتي أطلـق يدىّ ∴ إنني أعطيت ما استبقيت شيئا

آه من قيـدك أدمى معصـمي ∴ لـم أبـقية وما أبـقـى عـلـىّ

ما احتفاظي بعهود لم تصنها ∴ والأم الأسـر والدنـيـا لـدىّ [٢]

لكن هذه الحرية لا تكون ذات قيمة ، إلا إذا كان بإمكان صاحبها الإتيان لما كان قد عقد العزم عليه ،ويملك من الوسائل مايمكنه من إنقاذه على النحو الذي يريده ، وأن يكون لديه شعور صادق بقدرته على الإمتناع عن الفعل أيضا ، فهو حر في الفعل ، حر في الترك من الناحية الخلقيـة [٣]. حينئذ تكون كلها أمامه سواء ، ويدرك أنه فعلا يجب أن يحاسب على كل ما يصدر عنه بإعتباره مسئولا من كافة النواحي .

ليست الحرية هنا هي المرادة على الناحيـة الكلاميـة ، وتتعلـق بالقضاء والقـدر ، أو الجبر والإختيار ، لأن هذه القضية تتعلق بالمسئولية الأخروية ، أو الجزاء الآخروي ، بينما الأحكام التي يعني بها علم الأخلاق إنما هي التي تجري بين الناس في دار الدنيا ، ومن ثم ، سأستبعد البحث حول الحريـة بالنسبة للأفعال الإنسانية ، من الناحية الكلامية ، فهناك أبحاث كثيرة بشأنها [٤].

وبعيدا عن هذه التساؤلات الكثيرة ، والدخول في تفاصيل عديدة ، هناك أربعة جوانب أساسية لا بد من الإهتمام بها :

**الأول :** أن الإنسان مسير في كل ما لا قدرة له على تغييره ، أو تقديمه ،أو تـأخيره ، كإختيـار والديه ، ولحظة الميلاد ، والوفاة ، والأفعال الإضطرارية ، فإنه مسير فيها [٥] ، ولا يعقل أن يكون حـرا في

---

(١) لقد كانت الستة الشعراء تلهث خلف هذا الشعار البراق المسمى بالحرية لكن ما هو المقابل للحريةعلى الطرف الآخر أو من جهة النقيض ، هي هو الذل والاستعباد ؟ هل هو الجبر والإكراه ؟ هل هو ممارسة ما لا يرضاه ؟ هذه الأسئلة كلها واردة على النفس، وتسعى في صور عديدة تلتمس الإجابة، وقد نوفق إليها ، أو نتردى في محيطات البحث عنها .

(٢) إبراهيم ناجي : من قصيدة الأطلال ، صـ ١٩ .

(٣) هذه الحرية تكون بمثابة إعلان صريح عن استيفاء المسئولية بالنسبة لهذا الشخص أو ذاك ، لأنه إذا استوت في لفرد مكوناتها فقد وجبت .

(٤) هذه المسألة تم طرحها في المؤلفات الكلامية و راجع للإمام الغزالي : الإقتصاد في الإعتقاد ، وللإمام الرازي : الأربعين في أصول الدين ، وكتابنا : حصاد الاقتصاد في الإعتقاد ، الجزء الثالث .

(٥) راجع كتابنا : القضاء والقدر وأثرهما في حياة المؤمن ، صـ ١٣٧ ، وكتابنا : القسمة والنصيب ، صـ ٢٣٥ .

إختيار والديه ، ولا حتى متى يوجد ، ولا متى يموت ، لماذا يدق قلبه أو يجري دمه ، وما كان من هذا القبيل ، وبالتالي ، فلا مسئولية عليه ، ولا يحاسب بشأنها .

الثاني : إن الإنسان مخير في كل ما تقع عليه مسئوليته ، وهو الذي يكون فعله وتركه داخل نطاق العمر[١] ، وأعني به الفترة الزمانية التي يقضيها الإنسان من حياته حرا مختارا ، قادرا على الفعل والترك ، من غير نوم أو غفلة ، أو إكراه ، ففي هذه الأحوال تقع المسئولية ، ويتم الحساب ، وهو موضوع المؤاخذة والجزاء .

الثالث : أن الإنسان يكون مسيرا في الأفعال اللاإرادية ، التي تنشأ عنها أفعال أو نتائج إرادية ، كانت قائمة في ذهنه ، وتمنى لو فعلها ، لكنه لم يتمكن منها بإرادته ، ولا وقعت باختياره ، ولا كان له فيها قد ونية ، ولكنها داخلة في نطاق يشاب المرء رغم أنفه ، فهو مسير في الأمرين ، الفعل والجزاء .

الرابعة : أن الإنسان يكون مخيرا في الأفعال شبه الإرادية و لأنه قام بها ، وإن لم يكن قاصدا نتائجها [٢] ، لكنه يحاسب عليها لكونه مختارا لفعلها ، حتى وإن لم يكن قاصدا المترتب عليها ، ولا مختارا له على وجه من الوجوه .

فهذه جملة الوجوه التي أراها في الحرية الإنسانية ، وكون الإنسان مسيرا أو مخيرا ، وهي كما ترى ليست داخلة في نطاق علم الأخلاق من الناحية الدراسية ، لأن مدار البحث فيها يكون علم الكلام ، أو علم العقائد ، أو علم التوجيه والسلوك [٣] .

ومن ثم فلم أحاول تناول الحرية من هذه الناحية الكلامية و حتى لا يقع خلط بين الأحكام الأخلاقية والأحكام العقدية في ذهن الباحث المبتدئ ، أو طالب العلم الذي يسعى للوقوف على أبواب المعرفة القريبة ، وليس أسباب المعرفة البعيدة .

لكن ، دعني أتناول معك الحرية كمكون للمسئولية من الناحية الأخلاقية ، و هب أنك ذهبت لإصلاح سيارتك ، وأخذت بالأسباب ، ثم وصلت إلى محل الإصلاح ، وساومت الفني الماهر ، وانتهيتما إلى

---

(١) العمر غير الأجل ، وقد جاء كل منهما مستقلا في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، منها قوله ﷺ لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربعة: عمره فيما أفناه ، وجسده فيما أبلاه ، وماله من أين جمعه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به .

(٢) كالحال فيمن زرع زرعا ليستفيد به ، ثم سقط بعض هذا الزرع في بئر عميق ، أو حفرة ضيقة ، بحيث لم يتمكن من إخراجها ، فأكل منها حيوان كان له به أجر ، مع أنه لم يرد ذلك أبدا .

(٣) راجع كتابنا: المدخل التام في علم الكلام ، حيث تناولت هذه الجزئيات في شيء من التفصيل .

أجر الإصلاح لما في السيارة من أعطال [١] ،ألا ترى أنك كنت حرا في الوصول إلى هذه النتيجة ، أم لا ؟ ، إذ كان بإمكانك عدم الاستمرار في التفاوض مع هذا الرجل ، والانطلاق بالسيارة إلى غيره ، فأنت في الحالتين تملك حريتك ، وألا فأنت صاحب إرادة ولكنك لست صاحب حرية [٢] .

فالحرية غير الإرادة ، وكل منها تكون من مكونات المسئولية ، أو عنصر ترتيبي ينمو وهي معه، لا تتم المسئولية إلا من خلال هذه العناصر الشرطية ، وأزيدك الأمر وضوحا ،لو أنك تملك قدرا ما من المال ، هو في الأصل فائض عن حاجتك ، وقررت أن تغير المسكن الذي تقيم به لأسباب عندك ، وظهرت لديك إرادة الإنتقال من هذا المسكن ظهورا دل على أنها صاحبة سلطان يأتيك فوق رغباتك ، وجميع تحفظاتك [٣] ، ودون إعتبار لشيء من تحفظاتك .

ثم شاهدت الأماكن التي تصلح للسكن ، وتناسب الظروف التي وضعتها في حياتك ، لكنك أتخذت هذا المسكن ، دون سواه ، ولو عدلت عن هذه الرغبة ما وقعت في لوم ، ولا كان عليك من تثريب [٤] ، أفلا يدل ذلك كله على أنك صاحب حرية في أن تأتي الفعل ، أو تدعه ، تمارسه على الصورة التي تمت أو لا تمارسه ، مادمت قد أعلنت أنك حر تماما في كل هذه المسائل ، فأنت أيضا المسئول [٥] ، بطابع المسئولية الأخلاقية و مهما حاولت إيجاد المبررات و فلن تكون وسائلك مجدية ، ولا دفوعك مقبولة .

لكنك قد تسأل ، ما هي العلة في كوني مسئولا عن الأفعال التي تأتي من هذا الطريق ، ولماذا أتحمل المسئولية بشكل أساسي لا تبعي ؟

والجواب أن العلة في تحمل المسئولية هو تلك التي كانت تملك أن تحول بينك وبين الفعل

---

(١) كل هذه الخطوات تمت بإرادتك ، فأنت الذي اخترت هذا الفني الماهر ، ولم تختر غيره ، وأنت الذي قررت إصلاح السيارة في ذات الوقت، وأنت أيضا الذي قررت الاستمرار في المساومة، ثم أنت في النهاية الذي قررت أن يقوم هذا الفني بالإصلاح المنشود على الأجر المتفق عليه، وبالتالي ، فأنت صاحب حرية تخولك لحمل تبعات المسئولية من الناحية الأخلاقية .

(٢) إذا انتفت الحرية في صورتها الحقيقية ، أنتفت أيضا قيمة المسئولية ، فعلى أي أساس يصدر حكم خلقي طالما كان الأصل الذي قام عليه لا وجود له ؟ .

(٣) ما يأتي مع الرغبة ويعبر عنها لا يعتبر بعيدا عن الميدان الأخلاقي ، أو القانوني ، أما الذي يجيء بعيدا عنها فلا مجال للحكم الأخلاقي بشأنه .

(٤) يقع اللوم والترتيب عندما تكون لدى المرء قدرة على ممارسة أعمال بذاتها، ثم ينكص عنها ر غم كونها خيرة، ولا تتفق مع الواقع وتفيد في الخير .

(٥) هذه المسئولية إضافية ، ومن ثم تتعدد المسئوليات على الفرد الواحد ، لكونها قد جاءت من جهات عديدة ، واتخذت صورا كثيرة .

المتدني أخلاقيا [١] ،بل كان بإمكانها إغرائك حتى تمارس الفعل الذي يحمل المثل العليا في الخير ، وهذه العلة تحصيلية ، قائمة في صدرك أنت ، لكنها بارزة في فعلك الذي تحصل معك ٠

٥ ـ المعرفة الإسبقانية /

وهي التي تقوم على قراءة الماضي ،ومراجعة أسراره ، يلفه الحاضر ، ومطالعه المستقبل ، في حدود المدركات المتاحة ، وكلما أمعن المرء في التعرف الواضح والوقوف الجيد لهذه الجوانب ، كان قادرا على تحمل تبعات ما يصدر عنه ، لا لكونه صاحب مسئولية فقط ، وإنما بإعتباره متمتعا برؤية قرائية للمستقبل [٢]،وهو ما يسمى إدراك بواطن الأمور من الناحية المعرفية، طبقا لما يجيء في الواقع المعاش[٣].

إن قراءة الواقع بعين الماضي تعطي الفعل الأخلاقي ميزة ذات رصيد بعيد المدى ،كثير التجارب. أمكن الوقوف عليه في وقائعه وتفصيلاته ، وقوفا لا يمري فيه أحد[٤] ، فلا ترتيب بعد ذلك إن طلب منه تحمل تبعاته ٠

ثم أن هذه الخبرة القائمة في المعرفة السبقية تكون بمثابة الركائز الأساسية بالنسبة للنظرات المستقبلية ، والكثيرون من الأخلاقيين يعتبرون قاعدة المستقبل هي قوانين الحاضر [٥] ، لأن معرفة الماضي يمكن من إجتياز الحاضر ، حتى يكون هو الجسر الذي يمكن العبور فوقه إلى المستقبل حيث لا إصغاء للمقولة القائمة، على انه

قد يكون الغيب حلوا ٠٠٠ إنما الحاضر أحلى [٦]

وإذا قدر الإنسان على الإحاطة بخبرات الماضي ، والقراءة المتأنية لتنبؤات المستقبل ، فإن أعماله تتسم بالواقعية ، ويمكن وصفها بأنها حقا أفعال إستقرارية لا إستفزازية [٧] ،كالإنسان الذي

---

(١) من أسوأ ما يواجه الإنسان الأخلاقي في أن يشعر بالعجز التام أمام حريته ، حيث تهبها من الدنايا ،وتنزل عن المستوى اللائق درجات عديدة حتى يصاب المرء بالخجل أو يشعر بالفشل٠

(٢) راجع كتابنا:المعرفة عند أبن رشد ، صـ ١٩٧، كتابنا التفكير الإنساني أصولة ومستوياته، صـ ٢٤٣ ٠

(٣) قراءة الواقع المعاش تختلف كثيرا عن قراءة الماضي، وكذلك الحال مع قراءة طالع المستقبل، والدخول إلى حيز التنبؤات ٠

(٤) لأن المسألة إن وقع فيها شيء من الإحترام لم تصلح لشيء أبدا فكيف يتم ، فإنه بناء خلقي على شيء لا وجود له من الناحية الخلقية ٠

(٥) فالعلاقة بين الحال والاستقبال ، أو بين الحاضر والمستقبل من النوع الاطرادي ، ولذلك ، فيجب التعامل معها من ذات الناحية ٠

(٦) تتردد أفعال هذه المقولة علي إفهام العديد من أصحاب الفكر اللحظي ، والذين تربطهم بالمنافع روابط دقيقة ، يمكن أن تزول بمجرد الوقوف على حقيقتها ٠

(٧) الاستقرارية تنشأ عنها عمليات البناء والتقدم الحضاري ، كما تسوق إلى الرقي ، وكلما كانت الأعمال استقرارية فإن نتائجها تكون طرديه تحقق أعلى قدر من الإنسانية ، أما الاستفزازية فإنها تكون واقعية عدوانية ، غير منضبطة ، تهدم ولا تبني ، وتدمر ولا تعمر ٠

يؤدي عملا من الأعمال أو فعلا من الأفعال ، وهو خبير به ،مدرك لأبعاده ، فإن أداءه لهذا العمل يفرض عليه التزاما أخلاقيا ، ومسئولية تضامنية عن الأثر المترتب أيضا ، حتى إذا جاء على الغاية التي يرجوها ، كان ممدوحا به مثابا عليه ، أما إذا تم بعيدا عن هذه الأهداف ، فإنه يكون حينئذ عبثا مذموما به ، موصوفا بما هو قائم فيه [١] ، نظرا لإرتباط المسئولية بالمعرفة الإستبقائية .

هناك إذن معرفة استبقائية ، تجري قبل الفعل ، وتمثل الرصيد الذي يتم التعامل معه ، والإستفادة منه ، ومعرفة استبقائية ، وهي التي تتم مع الفعل حتى تكون مصاحبة له ، حارسة عليه [٢] ، فمثلا ، مساعد الصيدلي الذي يعمل معه ، من فترة طويلة ، واكتسب خبرة عملية كافية ، إذا نصح بدواء وتناوله مريض ، ثم حدثت له مضاعفات بسببه ، تكون المسئولية هنا على الصيدلي ، مع أنه لم ير المريض ، ولم يعرف فعل المساعد ،لكنه الذي سمح له بمباشرة عمليات البيع للدواء .

فالنتائج هنا تكون مسئولية مشتركة ، بين كل من الصيدلي ومساعده ، لكنها على الأول أصلية ،لأنه صاحب التخصص الأصلي ، كما أنه صاحب ، وبالنسبة للتالي تبعية [٣] ،وتعرف في لغة أهل القانون بإسم مسئولية المتبوع عن تابعه .

وإذا عرف مساعد الصيدلي أن صاحب الصيدلية يبيع أدوية انتهت صلاحيتها ، أو يرخص في بعض الأنواع من الأدوية ذات الاستخدامات الضارة بالمخ ، حيث يتناولها المدمنون ، وساهم في بيع هذه السموم لأولئك الرعاع ، ثم هلك أحدهم ، فإن مساعد الصيدلي يتحمل المسئولية مع الصيدلي بإعتبارها مسئولية تضامنية [٤] ،وهو ما أقرت به القوانين المدنية في العديد من موادها القانونية ، مراعاة لهذه الاعتبارات ،وضبطا لإدانها .

إن الجهل بعواقب الأمور لا يعفي من المسئولية طالما استوفى هذا الشخص باقي المكونات ، أو غلب عليه جزء كبير من مقوماتها ، حتى لا يتعلل الكثيرون بالجهل ، نظرا لأن سؤال أهل الإختصاص من الأمور الضرورية ، فمن لم يسأل ثم وقع في الخطأ ، فهو يتحمل المسئولية ، وتسمى مسئولية تقصيرية

---

(١) فالمرء يوصف بالفعل الأخلاقي متى استوفى شروطه ، ويوصف بغيره إذا نقض شروطه ، وهذا الفعل كله قائم في نطاق الإلتزام الخلقي .

(٢) وهذا الفرق واضح جدا بين كل من نوعي الفعل ، بإعتبار النتائج المترتبة ، وهو أمر واضح قد لا يتوفر إلا للدارسين من ذوي الخبرة العلمية الواضحة .

(٣) راجع للدكتور فضل الله محمد رضوان : طبيعة المسئولية في القانون العام ، صـ ٢٥٣ ، وراجع للدكتور صابر فضل حسن : المسئولية والاتجاهات القانونية المعاصرة ، صـ ٣٥٣ .

(٤) راجع الفرق بين المسئولية الأصلية والتضامنية في المؤلفات القانونية ، وهي كثيرة ومصادرها كثيرة ، ويمكن الرجوع إليها بسهولة ويسر .

، نلمح ذلك من قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

مما لا شك فيه ، تبين أن الإنسان لن يحيط بكل شيء علما ، لكنه في كل الأحوال مطالب بمعرفة ما تكون الحاجة إليه ضرورية ، لأن ذلك من صمام المسئولية الملقاة على عاتق كل إنسان رزقه الله ملكة التفكير ، وخلق فيه الإستعداد الشخصي للقيام بتبعاتها (٢) .

كما أن طلب العلم المراد في إدراك عواقب الأمور ومعرفتها على حقيقتها ، لا يحتاج مدارس يتم تلقيه فيها بقدر ما هو في حاجة إلى أن يستعمل ذلك الإنسان هذه الملكات التي منحت له على ناحية التنشيط المستمر ، مع الإختبارات المتواصلة .

إن الذي يفكر في عواقب الأمور هو الذي يزنها دائما بميزان عام سليم أولا ، ثم بميزانه الصحيح ثانيا (٣) ، وكلما كان صاحب خلق قويم ، قادر على تحمل تبعات الوصف به ، فإن الميزان النفعي الوقتي لن يكون وجوده بالنسبة له إلا هامشيا ، أو على الأقل لا يكون له من مظهر سوى التبعية ، لأن المنفعة العامة كثيرا ما أودت بطالبيها التهلكة وأوردتهم مهاوي الردى (٤) .

وكلما كانت المعرفة الإستباقية خبيرة ، بما يجب أن يكون، صحت المسئولية الخلقية ،أما لماذا ؟ فلأن الضمير الخلقي سينتصب إلى أعلى قامة ، ثم يصرخ بأعلى صوته، ويتصرف بأقصى ما يملك ، ويحكم بكل سلطة تكون له (٥) ، ومن ثم فلن تبلغ الحماقة أو السفة لدى صاحب هذا الضمير شيئا ليس هذا من ناتج الطبع ، كما يقولون في الأمثال من لدغته الحية خاف جر الحبل ، ومن لسعه الحساء نفخ في الزبادي (٦) .

وقد تحصل ذلك من ناتج الخبرة العلمية ، والتجارب العملية ، واستيفاء الجوانب العقلية ، وتضافر الجهود والاستعدادات الذاتية ، حتى إن هؤلاء هم الذين من أهل الروية والرؤى لتكون لهم في

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧ .
(٢) راجع في هذا الشأن طبيعة المسئولية وشروطها وما يتعلق بهذا الشأن ، ففي التناول الجيد والعرض المستمر فائدة عظمى ويمكن الوقوف عليها مع الإستفادة منها ، ولا يمارس في هذا باحث منصف ،أو دارس له إهتمامات علمية صحيحة
(٣) الميزان النفعي الخاص يحمل الأنانية ، وهي صفة توقع صاحبها في نطاق الذم ، والقدح ، فبينما الميزان النفعي العام هو الذي يحقق مصالح الغالبية العظمى، وفقيه الآثار، وهو فضيلة أخلاقية عملية .
(٤) وآيات القرآن الكريم في هذه المسألة كثيرة ، وآثارها متعددة وفوائدها لا تحصر .
(٥) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٣٢٣ ، وكتابنا: نظرية المعرفة عند ابن رشد ، صـ ٢٥٧ .
(٦) راجع كتابنا : حكم وأمثال ، جـ ٢ ، صـ ١٢٥ .

نفوس الناس المنزلة [١] ، أما لماذا ؟ فلأنهم في مقام الحكماء ، بالنسبة لباقي الأسوياء ،وقديما قيل

لكل داء دواء يستطاب به ∴ إلا الحماقة أعيت من يداويها

هب انك التزمت التوءدة في الأمر الذي تسعى إليه ، وتصنعت الروية فيما أنت مقبل عليه ، وتحليت بالصبر في الظفر به ، وقارنت بين منافعه ومضاره ، أو فوائده ومثالبه ، وكنت صاحب قدرة عقلية سوية ، وجوانب نفسية صحيحة ، فأول خطوة تلجأ إليها ، إنما هي استخارة الله تعالى[٢]، ثم استشارة ذوي العلم والحكمة والخبرة ، فلا خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، وبناء عليه ، تكون النتائج موفقة ، ويدخل عملك في نطاق المسئولية الخلقية التي تثاب عليها بالجزاء الخلقي أيضا .

كثير من الناس ، يزعمون قيامهم بالمسئولية على أتم الوجوه ، وهم في ذات الوقت ، يجهلون حقيقة المسئولية وطبيعتها ، كما أنهم ليسوا ملمين بواجباتها ، ولا ما نفرضه من إلتزامات على من يلزمهم بالقيام بها ، ومن ثم فهؤلاء جميعا ليسوا من ذوي المعرفة المتبصرة بعواقب الأمور[٣]، كما أنهم فقدوا الرصيد الذي يمكن حسبانهم واقفين عليه من المعرفة الحقة والسلوك القويم ، وقديما قالوا

قدر لنفسك قبل الخطو موضعها ∴ فالذكرى للإنسان عمر ثان

والمعرفة الإستبقائية تستلزم أمرين ، وتفرض على المرء لبلوغ الغاية سلوك الطريقين ، أحدهما النظر للماضي حتى يأخذ منه العبرة ويستدرك ما فاته ، لأن ذلك الرصيد يكون بمثابة المخزون الذي يستمد منه، ويستدين إليه وقت الحاجة [٤]، وثانيهما استعمال هذه الخبرة المعرفية، والإستفادة بنتائجها في القضايا والمشكلات التي تفرضها ذات المسئولية [٥]، والله تعالى حدث عن المرسلين وأممهم في الغابرين ، فقال تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن

---

(١) المنزلة العالية للنفس ، يمكن أن يصنعها المرء ذاته بسلوكياته ، وطيب أخلاقه ، وكلما تعاظمت وسائل إحترامه لنفسه ، عزت في نفوس الآخرين منزلته ، ومن ثم كان الكريم بمثابة النحلة التي تعطي بلا حدود ، والنخلة التي كلما علت أغدقت .

(٢) حديث الاستخارة واضح في كتب السنة النبوية ، وكيفية القيام بها واضحة في شروح المحدثين والفقهاء ، ولذلك ، نسعى إليها ونحافظ عليها .

(٣) راجع المؤلفات الإسلامية في الفكر السياسي ، لترى كيف عالج الإسلام هذه المسألة عندما حتم على ضرورة أن يكون إختيار الخليفة قائما على أسس شرعية ، منها معرفة عواقب الأمور معرفة دقيقة .

(٤) لأن الأرصدة الكبرانية ليست وليدة لحظة بذاتها ، ولا هي رهن حدث بذاته ، إنما هي عمليات متعددة الأطوار تم الوقوف عليها من مرور الأيام ، وكر الأعوام ، ولذا فمن الصعب ، بل من العسير التفريط فيها .

(٥) المسئولية تفرض على صاحبها إلتزام القيام بالعديد من الواجبات ، وهي في جميع الحالات لا تخرج عن طبيعة الواجب من الناحية الخلقية ، وإذا إلتزم صاحبها المعيار الإلهي فإنها تكون متوافقة مع النصوص الشرعية ، وتسمى المسئولية التواضعية ، كما تسمى المسئولية الشرعية أيضا .

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١] .

كما أن المعرفة الإستبقانية تمثل للعمل الخلقي الضوء الكاشف عن معالم الطريق من بعيد ، أنها تسبق المرء للأمام بما لها من رصيد مزدحم بالخبرات ، وحينئذ تأوي إلى الضمير المعرفي ، وتلوذ إلى جناحه الأمن ، حتى يكون لها الملجأ والمدخل[٢] ، فإذا أراد المرء القيام بعمل ما داخل في نطاق المسئولية ، فإنه ينظر إلى إتجاهين ، كل منهما قد يكون بعيدا تماما عن الآخر ، مع أنه يعمل لصالح صاحبه ويتعاون معه .

**الإتجاه الأول :** قدرة المرء على تحمل تبعات هذا الفعل ،وما إذا كانت أرصدته المعرفية تسمح له بالمباشرة له في ثقة وأمان[٣]، كان جديرا بالحكم الخلقي ، حيث يوصف بالحسن والجمال ، وما يجري في الميزان الخلقي من استعمالات كلها تجري في نطاق المدح .

**الإتجاه الثاني :** إنعدام قدرة المرء على القيام بهذا الدور ، ونقص خبرته المعرفية ، وحينئذ يلجأ إلى أهل الخبرة ، ويستعين بمعارف ذوي الثقة ، حتى يكون صاحب مسئولية إيجابية[٤] ، أما إذا غامر ولم يختبر معلوماته ، ولم تكن الركائز الأساسية ثابتة في مهاراته وقدراته ، ولم يستفد من أهل الرأي والخبرة ، فلن يتسامح معه ضميره الخلقي ، لا لكونه أخفق في تحمل المسئولية ، وإنما لأنه لم يقم لها على الوجه الأمثل ، الذي تفرضه الضرورة الخلقية[٥] .

فالإنسان الذي يدخل سوق المال حيث يغريه بريق جمع الأموال ، حتى يسيل لعابه نحوها ، ثم يدخل في مناقصة عامة لبناء جسر من الجسور ، أو عمارة من العمارات ، أو توريد الأطعمة لجهة من الجهات[٦]، ونظرا لعدم خبرته في هذا المجال ، فإنه يسرع في تقديم عطاءات خيالية ، غير قائمة على معارف استنباطية ، فإن كانت في المناقصات قدم أرخص الأسعار،وإن كانت في المزايدات تقدم بأعلى الأسعار.

---

(١) سورة يوسف : الآية ١١١ .
(٢) راجع كتابنا : أنسام جبية في الأفكار الصوفية ، صـ ٢٥٧ ، وكتابنا : القضاء والقدر ، صـ ٣٢٢ .
(٣) ومصدر هذه الثقة يكون نابعا من الداخل ، بعيدا عن الغرور والتكبر ، ومحاولة الاستحواذ على الأمر ، فذلك ليس من شأن أهل الإيمان ذوى العقول السليمة .
(٤) المسئولية الإيجابية تترتب عليها أحكام صحيحة ، تنال لقبول أمام الله متى جاءت على وفق شرعي ، كما تنال القبول بين الناس لأنها على وفق فطرهم ، وتحقق مصالحهم الذاتية .
(٥) هناك فرق بين أن يقع المرء في تجريم ضميره ، وبين تأنيب هذا الضمير لصاحبه ، إذ الضمير المستنير هو صوت يدعو للحق ، ويدفع صاحبه إليه ، ومن ثم ، فأحكامه تحمل طابع الاستقرار إذا كانت لصالح الإنسان ، أما إذا اقترنت بغيره ، جاءت الأخرى .
(٦) عملية المناقصة غير عملية المزايدة ، وكل منهما تدخل في نطاق العمل التجاري والمحاسبي، لكن العمل الأخلاقي فيها مرتبط بالنتائج من إنهدام العمارات الناشئة عن الغش ، وحالات التسمم الغذائي الناتجة عن الإستعمال الأغذية الفاسدة ، إلى غير ذلك من الوجوه .

فإذا رسا عليه العطاء ، وقام بالتنفيذ ، لم يجد صورة الأسعار التي تقدم بها ذات وجود حقيقي على أرض الواقع ، وقد دخل بقدميه في الحفرة ، ولا بد له من الخروج ، فماذا يفعل ؟ إنه ينسى تماما قيمه ومبادئه ، بل ويتجاهل تحذيرات الشرع ، كما يضغط بقوة على سلطة الضمير الأخلاقي ، ويسعى إلى ذبح الفضيلة بمدية الطمع والأشر [١] ، والخيال الجامح ، والتوبة الكذوب ، وهنا يلجأ إلى الرشوة ، والغش ، ويظل كذلك أمره ، حتى يبلغ ما يبلغ ، وحينئذ يتحمل كل المسئولية التقصيرية لأنه دخل إلى ما ليس له به علم ، ويوصف هو بالقبح ، وفعله بالمذمة .

وقد يلجأ إلى محاولة الوفاء بالتزاماته ، فيقع في ديون لا حصر لها ، تنتهي به إلى مالا يحمد عقباه ، من سحق ، وتشريد ، وتشويه سمعة ، بجانب ملاحظات متعددة الأنواع ، كثيرة الجهات [٢] ، أو يلجأ إلى أرصدته التي سبق له جمعها ، وقد تكون من كد اليمين وعرق الجبين ، فيعرضها للبيع بأقل من أسعارها الحقيقية ، وينتهي الأمر إلى إعلانه الإفلاس والتدمير [٣] ،وهو في كل ما سبق قد خان المسئولية ، وخالف القوانين الأخلاقية ، وعصى رب البرية .

---

(١) راجع كتابنا : لماذا انتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٣ ، لترى كيف كانت القناعة هي السلاح الفعال في مواجهة النفس الطامعة ، كيف أمكن للصحابة الإعلام الإنتصار عليها والتخلص منها ،فكانوا بحق هداة .

(٢) والصحف اليومية تحمل العديد من هذه الأنباء ، كما أن الصحف التي تهتم بنشر الأحكام القضائية والتفليسات ، بما يسمى الصحف الإعلانية ، أو التجارية ، قد إمتلأت بهذه الأخبار ، فضلا عن صحف لحوادث التي لا تتوقف .

(٣) وكم مستورد كانت نهايته الإفلاس ، والزج في السجون ، وكم من صاحب عمل إنتهى حاله إلى ما لا يحمد عقباه ، وربما ظل كذلك حتي لقي الله تعالى ، فالموت يلاحقنا أينما كنا ، وحتما سيصلنا ، قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ سورة الجمعة : الآية ٨ .



# الفصل الخامس

## الجزاء والضمير الخلقي

### أولا : الجزاء الأخلاقي [١]

يعتبر الجزاء الخلقي بمثابة النتيجة الختامية للفعل الذي يقوم به ذات الإنسان، أو هو النتيجة الحتمية المترتبة على قيام ذلك الإنسان المكلف بأعباء مسؤلياته الأخلاقية ، أو عدم قيامه بها ، من باب المخالفة للقاعدة العامة التي تحكم السلوك في الميزان الأخلاقي [٢] .

ونظراً لهذه العلاقة التلازمية أو الربطية بين الفعل الأخلاقي والمترتب عليه ، أمكن القول بأن المسئولية والجزاء لا يفترقان من الناحية الواقعية ، حتى وإن اختلفت هذه العلاقة من الناحية الدراسية، بل يمكن القول أيضاً بأنه ما من مسئولية إلا ويعقبها جزاء[٣] ، وما من جزاء إلا وهو مسبوق بمسئولية ، في النظام الخلقي، وبناء عليه سأتناول الجزئيات التالية :

#### ( أ ) تعريف الجزاء :

مادة الكلمة (ج ز ي) في اللغة العربية وردت على معان ، منها المكافأة والاغناء بجانب المبادلة والإعطاء ، ثم الإثابة والكفاية ، التي قد تجئ معها المقابلة العوضية ، أو قد لا تكون بحاجة إلى شيء من ذلك [٤] ، كما جاء ذكرها في القرآن الكريم كثيراً، وعلى معان منها المكافأة والمجازاة ، بجانب المقابلة والأداء ، كما قد تجيء على معنى الثواب المرتبط بالخير ، والعقاب القائم في الشر ، إلى غير ذلك من المعاني والدلالات .

من ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [٥] ، والمعنى وما لأحد عند الله تعالى من نعمة إلا وتقابل بمثلها، ويكافأ عليها، إن كان خيراً، وإن كان شراً فشر،وأن الجزاء من جنس العمل،والله سبحانه وتعالى يعطي ويمنع، ويعاقب أو يعفو ويصفح.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٦] ، والمعنى ترقبوا خاتمة أعمالكم ، فإنكم حتماً ترجعون إلى الله تعالى ، كما بدأكم تعودون ،

---

(١) شغلت فكرة الجزاء الخلقي لدى الدكتور دراز في كتابه دستور الأخلاق في القرآن الصفحات من ٢٤٣ / ٤١٩ ، فارجع إليها واظفر بها تقع لك الفائدة منها ، وهو بحث نفيس فاحرص عليه .

(٢) هذه المخالفة في النظام العام يترتب عليها إبطال عنصر الإكراه ، إذ لو كان المرء مكرها على فعل ما ، ما كان يحاسب عليه ولا مسئولاً عنه .

(٣) هذه الضرورية على المقياس الخلقي ، وليست على باب الفضل الإلهي لما هو ثابت في الأفهام من أن الله تعالى له أن يعفو عمن يشاء ، ويعاقب من يشاء ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

(٤) العلامة ابن منظور : معجم مقاييس اللغة باب الجيم ، والمعلم بطرس البستاني : قطر المحيط باب الجيم فصل الزاي ، وتهذيب القاموس ص ٢٥٧ .

(٥) سورة الليل الآيات ١٩ ـ ٢١ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٨١ .

وأنتم في ذات الوقت فرادى لا تملكون شيئاً سوى ما قدمت أيديكم ، والله سبحانه وتعالى يجازي كل أمرئ بالوفاء[١] ، فمن كسب الخير كان له كل الخير وزيادة، ومن اكتسب الشر كان عليه وزره من غير زيادة .

ومنها قوله تعالى في كفارة قتل الصيد حال الإحرام: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [٢] ، وبالتالي فعلى من فعل ذلك كفارة تساوي الذي وقع عليه القتل من النعم في حال الإحرام ، وهو ما يعني البديل المساوي ، فكان الجزاء لعين البديل المساوي.

ونظراً لكثرة ورود مادة الكلمة في القرآن الكريم ، وتكاثر معانيها ، فقد تمت دراسات واسعة حول هذا الموضوع من خلال علم التفسير الموضوعي والشيخ الأصفهاني يشير إلى ملاحظة جوهرية عمادها أن لفظ جزى هو الذي ورد في القرآن الكريم الدال على وقوع الفعل ، وذلك أن المجازاة أو المكافأة إنما تكون من باب مقابلة النعمة بالنعمة التي هي كفؤها ، ونعم الله تعالى جل شأنه تتعالى عن ذلك ، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في الله عز وجل شأنه ، وتبارك اسمه [٣].

كما عرف الجزاء في الاصطلاح بالعديد من التعريفات التي جاءت على الكثير من النواحي بعضها شرعي، وبعضها قانوني، وبعض ثالث أخلاقي أو اجتماعي ،أو من الناحية الأخروية أو الدنيوية [٤] كما هرع الكثيرون إلى تقديم تعريفات له من الناحية التطهيرية والاصطلاحية ، وكل حاول تقديم ما أمكنه الوقوف عليه .

ويمكن أن نعرفه بأنه ما يكون واقعاً على الإنسان المكلف لقاء مسئوليته التي صارت في عنقه من مكافأة شاملة ، تمثلت في ثواب أو مدح وإحسان على عمله الحسن في الدنيا والآخرة، وما لحقه من عذاب أليم،وعقاب مستديم جزاء ما عمل من عمل ذميم في الدنيا والآخرة ، ولذلك شواهد من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .

---

(١) لكن الوفاء هنا يكون بالزيادة متى تعلق الأمر بالحسنات ، ويكون بمثله متى تعلق بالسيئات لقوله تعالى : " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" سورة الشورى الآية ٤٠ .
(٢) سورة المائدة الآية ٩٥ .
(٣) العلامة الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ص ٩٣ .
(٤) هذا التعدد يكون لصالح البحث الخلقي لأنه يقضي على فكرة يروج لها أصحاب الواجب تقوم على أن الجزاء ينفي فكرة الواجب ، وفكرة الواجب تلغي فكرة الجزاء ، ومن ثم تكون كثرة الاصطلاحات التعريفية بمثابة الردود العملية والعلمية ، على المناهضين لوجود الجزاء مع الواجب .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (٣) ، وهي آيات تطلع القارئ على أن الجزاء مرتبط بالعمل ، وأنه يقع على الأمر بمثله .

بل وردت آيات في القرآن الكريم تفيد أن أصحاب العمل الصالح يجزون بأحسن الأجور ، وأحسن الجميل ، لأنهم قدموا إلى الله تعالى ومعهم أحسن الأعمال من كافة النواحي ، فكان هذا منه جل شأنه بمثابة مقابلة الشيء بأعظم منه في الحسن والجمال ، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤) ، وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٥) .

وكذلك جاءت آيات تفيد أن أصحاب العمل الفاسد يقع الجزاء عليهم بأسوأ مما عملوا ، إذ كما يكون صاحب العمل الصالح يجزي بالأحسن ، فمن باب المقابلة يجزي صاحب العمل الفاسد ، الذي ارتبط مع صاحبه سوءاً بالجزاء الأكثر سوءاً لقوله تعالى﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٦) ، وهكذا يرى المفكر المسلم أن الجزاء مترتب على العمل ، وأن الواجب لا يحول بين وقوف المرء على صالح الأعمال بأحسن الأجور .

## ( ب ) أقسام الجزاء ، وأنواع كل قسم :

تعددت أقسام الجزاء بتعدد أقسام المسئولية ، بحيث يمكن القول بأنه ما من مسئولية إلا ويعقبها جزاء ، كأنه يجئ معها على سبيل المتابعة ، أو يأتي خلفها من ناحية المطاردة ، إذ العلاقة الشرطية بين الجزاء والمسئولية قائمة ، ومن ثم فكل قسم من المسئولية ، هو ذاته المعبر عن القسم المرتبط به من ناحية الجزاء ، وكذلك الحال في الأنواع ، والذي يعنينا هنا هو الجزاء الأخلاقي (٧) .

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨ .
(٢) سورة النحل الآية ٩٧ .
(٣) سورة الإنسان الآيتان ١٢ ، ١٣ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٧ .
(٥) سورة سبأ الآية ٤ .
(٦) سورة فصلت الآية ٢٧ .
(٧) لأن أقسام الجزاء وأنواع كل قسم سأفرد لها بحثاً مستقلاً أتناول فيه هذه الجزئيات في شئ من التفصيل إن شاء الله تعالى .

وقد وردت نصوص شرعية تبين هذا النوع من الجزاء ، الواقع فيه الثواب والأجر الجزيل ، والقربى من الله ، والحسنى وزيادة ، وبلوغ درجة السعادة ، وشفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : لله أن من أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً لله [١] ، فالحديث رتب الجزاء ، وهو القربى ، في مجلس الشفاعة من القيامة ، بل والقرب من الحوض المورود ، إنما يكون بحسن الخلق .

ويحدد الإمام الغزالي أمهات محاسن الخلق في فضائل أربعة حيث يقول فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، والباقي فروعها ، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه ، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق ، فهو قريب من الله تعالى ، بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً ، يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به في جميع الأفعال [٢] .

من ثم فالجزاء هنا بالحسنى وزيادة ، لكونه قد ترتب على الأخلاق الحسنة التي ارتبطت بها الأعمال الصالحة ، أو هي نتائج لها، بغض النظر عن كون هذه النتائج في الدنيا ، أو في الآخرة ، أو جامعة بينهما [٣] ، وكما يكون صاحب الخلق العظيم عالياً في منزلته عند الله تعالى ، فإنه يكون كذلك رفيع المقام بين الناس .

أما أصحاب الخلق المرزولة ، فإن الجزاء يأتيه من جنس عمله ، يقول الإمام الغزالي: ومن انفك عن هذه الأخلاق الكريمة كلها، واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد ، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين ، المبعد عن رحمة الله رب العالمين[٤] ، ويكون ذلك كله من باب الجزاء على الخلق السيئ الذي مارسه ، بل والأفعال المحرمة التي لم يتوقف عن القيام بها ، وكان الجنيد رضى الله

---

(١) والحديث له روايات كثيرة كلها دالة على مرتبة حسن الخلق ، كما أنها كاشفة عن الجزاء المترتب على ذلك .

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) والجامعة بينهما على الأعلى والأرقى ، بل الأرقى والأكمل ، وهذا مما لا يمارى فيه عاقل . نظراً لكون هذه الدلائل قد قامت عليه .

(٤) فمثلاً يتصف بالتهور والجبن ، والدناءة والظلم ، لأنها قبائح ورذائل أخلاقية ، وهي امتداد للأولى التي هي فضائل قائمة في أصولها متعلقة بها فروعها .الإمام أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

تعالى عنه يقول أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات ، وإن قل عمله وعلمه[١] ، وهي الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق ، وهو كمال الإيمان .[٢]

وقد تظهر صور الجزاء في الدنيا ، كما ستأتي بارزة يوم القيامة ، لكن هناك صورة داخلية لهذا الجزاء الأخلاقي ، قد تتمثل في راحة الضمير ، واستقامة الوجدان ، والرضا بالأقدار ، مع التعفف عن الأغيار ، إذ القاعدة قائمة في التعلق بما يقضي به الواحد القهار ، وهذا في حد ذاته أعظم من أطيب دار.

ويذهب الشيخ دراز إلى أن الوجدان والضمير، قد يكون كل منهما بمثابة جزاء أخلاقي داخلي ، بما يملكه كل منهما من سلطان ذاتي ، يضفي على صاحبه الشعور بالسرور بعد فعل الخير ، والتألم بعد فعل الشر ، على أن السلطان الداخلي ليس واحداً لدى الجميع، أو عند كل الناس، إذ هناك صاحب الإحساس المرهف ، وصاحب البلادة والجمود[٣] ، ومن ثم فكل من هؤلاء يلحقه الجزاء ، بما يناسب العمل الذي قام به ، ويكون له التأثير الواضح عليه.

**( ج ) الغاية من الجزاء :**

بيد أن الغاية من الجزاء الأخلاقي ، ليست هي مجرد في الترغيب والترهيب،إنها بجانب ذلك كله تمثل قاعدة المحافظة على أمن المجتمع وأمانه إذ حين يرتبط بالعمل،إنما يحدث في النفس أثراً يمتد من الفرد إلى الجماعة[٤] حينئذ تحفظ الدماء ، وتصان الأعراض ، وترشد الأموال ، وتبقى المشاعر النقية على نقائها ، والمشاعر التي تحتاج الإصلاح تسعى إليه وتهتف من داخلها بالطلب عليه ، الميل نحوه [٥].

كما أن الجزاء إنما شرع ليبث في الناس الطمأنينة ، ويحثهم على العمل، ويأخذهم من ألبابهم إلى ، شرع الله تعالى ، ويصدهم عن الشهوات وأفعال الشياطين ، وحينئذ يكون الجزاء له قيمة

---

(١) هذه القلة في العمل والعلم ليست مقصودة ، لأن حسن الخلق يزين ولا يكمل حتى لا يظن ظان أن حسن الخلق يغني عن العلم والعمل، فذلك ليس له وجود في فهم الإمام الجنيد.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ج ٣ ، ص ٥١ .

(٣) راجع للشيخ عبد الله دراز الأخلاق القرآنية ص ٢٤٨ .

(٤) بدليل أن الحدود والتعزيرات بجانب كافة العقوبات لم توضع من الشارع الحكيم إلا لتكون بمثابة القوة الرادعة ، بحيث ترد أصحاب الأطماع ، وتدفع كذلك ذوي الأغراض الشهوانية ، والنفوس المبعثرة الشيطانية .

(٥) من هنا تتحقق المصالح المشتركة لكل من الفرد والجماعة ، ومن ثم يبقى المجتمع على وضعه الأول الذي خلقه الله تعالى عليه من غير أن تلوثه اتجاهات فاسدة ، أو عمليات محاطة بالكثير من العمليات التدميرية .

ذات أثر فعال ، كما أن الأعمال إذا لم تكن خلفها دوافع إليها ، لم تكن إرادة الفرد هي المحركة لها ، وإنما يتأتى ذلك بالترغيب القائم فيه الصورة الواضحة عن الجزاء الذي يقع في اتباعه والقيام به القدر الأكبر من مصالح العباد .

أضف إلى ما سبق أن الجزاء الأخلاقي يقيم جدرانات واضحة المعالم بين المطيع والعاصي، وآيات القرآن الكريم وأحاديث البشير النذير، جاء فيها عن هذه وتلك الكثير ، إذ تقرر آيات القرآن الكريم أن الإنسان له قيمة ، ومن خلالها يتحمل كامل المسئولية،التي يعقبها الجزاء الأوفى،قال تعالى: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (١) ، وقال جل شانه : "أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى"(٢)، وقوله تعالى "أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ " (٣)

والملاحظ أن هذه الآيات تحدثت عن الجزاء بنوعيه - الثواب والعقاب - حتى يرغب أهل الصلاح في إتيان المزيد من الخيرات ، وينصرف أهل الفساد عنه ، أو يرتدعوا بحيث لا يقع عليهم المزيد من صور العذاب ، وفي هذا مصلحة كبرى للإنسان باعتبار أنه فرد من مجموعة أفراد يتكون منه المجتمع كله ، وكذلك للمجتمع باعتباره الميدان الذي يمارس فيه أفراده - بنو البشر - أعمالهم ، ومن هنا يتم الجزاء الموقع الذي يعالج أمراض النفوس ، واندفاع الشهوات ويعيد اتجاهات أصحاب الغرائز ، ويلجم اندفاعات ذوي الحماقة والسفه .

### ثانيا : الضمير الخلقي

يعتبر الحديث عن الضمير الخلقي أحد العلامات في الفكر الأخلاقي ، لأنه يوقف الإنسان الواعي على طبيعة ما يقوم به ، وفي نفس الوقت يدفعه إلى الراحة النفسية والطمأنينة القلبية، ويقدم له الألوان التي يلتمسها من بلوغ تلك الغاية ، وراحة الوجدان ، وهذا الضمير قد جاءت إشارات إليه في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (٤)، حيث ذهب الكثيرون من العلماء إلى أن السرائر هي ما يتعلق بالضمير الذي يستطيع المرء إخفاء آثاره على الجميع ، فكأن الله تعالى قال تذكروا يوم تعرضون علي ، فلا يكون هناك ما يمكن إخفاؤه عني ، قال المفسرون السرائر التي تكون بين الله تعالى وبين العبد ، تفتضح يوم القيامة حتى يظهر خبرها ، من مؤديها ، من مضيعها ، وهو معنى

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥ .
(٢) سورة القيامة الآية ٣٦ .
(٣) سورة البلد الآية ٥ .
(٤) سورة الطارق : الآية ٩ .

قول ابن عمر رضى الله عنهما ، يبلى الله يوم لقيامة كل سر منها فيكون زينا في وجوه [١] ، وشينا في وجوه [٢]، بمعنى من أداها كان وجهه مشرقا ، ومن ضيعا كان وجهه أغبر [٣] .

والضمير بمثابة صوت قائم داخلا النفس الإنسانية ، يوجهها إلى ما قامت به ، فإن كان حسنا طمئنها إليه ، وإن كان فاسدا نبهها من الوقوع فيه ، ثم أنبها عليه .

ومن ثم كثر الحديث حول الضمير بما يحتاج تقديم دراسة عنه ، استلهما ببيان الموقع في اللغة والاصطلاح على النحو التالي

## ١ - تعريفة

يعتبر الضمير من أسماء المعاني التي لا جنس لها ولا فصل ، وبالتالي فتعريفها إنما يكون من خلال التعاريف التقريبية [٤] ، فإذا أردنا الخوض في هذا الجانب ، كان علينا الإلماح إلى تناول وضعه من الجوانب المختلفة :

### أ - في اللغة

وردت مادة الكلمة ض - م - ر في لغة العرب على معان [٥]، منها الهزال والضعف، ومنها ذهاب الماء ، ومنها ما يقع به ، أو له الخفاء ، ومنها ما يتعلق بالربط والعلف والركض ، وعلى الجملة ، فما خفي ودق يطلق عليه اسم الضمير في اللغة [٦] ، وهذه المعاني واردة كلها في الإطار اللغوي ، بارزة من حيث حقيقتها اللغوية ، ولا يعنينا هذا إلا بقدر ما عرضنا ، ولذا يقولون الضمير هو ما تضمره في نفسك و ويصعب الوقوف عليه بالنسبة لغيرك .

---

(١) هذا الذين يكون في الوجود الضاحكة ، المستبشرة ، لقوله تعالى ﴿ جُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ سورة عبس : الآيتان ٣٨ و٣٩ .

(٢) وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ سورة عبس : الآيات ٤٠ - ٤٢ .

(٣) الإمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد السادس عشر ، الجزء الحادي والثلاثون ، ص ٣٣٩ .

(٤) وهي التي تقوم على الخاصة ، أو يمكن تسميته التعريف بالرسم ، ومن ثم فهو تعريف مقبول متى استوفى شرائطه .

(٥) كثرة هذه المعاني اللغوية تستدعى من الباحث ضرورة بذل المجهود في التعرف عليها ، وما تستهدفه ، إذ الباحث المعرفي مطالب بتقديم ما يمكن له ،وما يستطيع الوقوف عليه .

(٦) راجع للمعلم بطرس البستاني : قطر المحيط ، باب القاف ، فصل الطاء ، ومايثالثهما ، ولإبن منظور : لسان العرب ، باب الضاد ، ولإبن فارس : معجم مقاييس اللغة ، باب الضاد ، والمعجم الوجيز ، باب الضاد ، ص ٣٨٢ .

ب - في الإصطلاح

ذهب علماء الأخلاق إلى تعريف الضمير من الناحية الإصطلاحية ، وبنفس القدر عمد إليه السياسيون وعلماء القانون ، حيث عرفوا الضمير بأنه قدرة المرء على مراقبة نفسه ، ثم ضبط سلوكيات الآخرين ، بما يحقق المصلحة العامة للمجتمع الإنساني ككل [١] .

والضمير عندهم يمثل قوة مزدوجة الأداء ، فهو يراقب صاحبه تارة ، ثم يدفع صاحبه لمراقبة الآخرين تارة أخرى ، كما ذهب الأخلاقيون إلى تعريف الضمير على النواحي المختلفة نظرا لتباين المدارس الأخلاقية ، ومن ثم فقد تباينت تعريفاتهم للضمير ، وبناء عليه، سألتقط منها ما يلي :

١ - أنه غريزة كائنة في الإنسان ، تعينه على اكتشاف ذاته ، من غير إحتياج إلى شخص آخر [٢]

ومادام الضمير غريزة تولد مع المرء ، فإنها تكون فطرية ، والفطريات الثابتة إنما تعني بما يتعلق به مصلحة الفرد وكونه قد ركز على نظرية الضمير ، فمعناه إعترافه بوجوده وكينونته على الجوانب المختلفة .

٢ - ذهب الشيخ محمد على الطحاوي إلى أن الضمير قوة داخلية ترتب على الإنسان طرق السعادة أن أطاعها ، وتدفعه إلى الشقاوة إذا عصاها ، فهو قوة توجيهية ذات أثر تأديبي [٣] ، وهو في تعويله على كون الضمير قوة مميزة كأنه لا يجعل فاصلا بينه وبين الإدراك ، أو الملكات العقلية سوى أن الضمير راصد للقيم الخلقية .

وذهب الشيخ محروس القوصي إلى أن الضمير هو سلطة داخلية خلقها الله في الإنسان ، بحيث يأتمر بأمرها ، ويصدر عنها ، ويستقيم عليها . ويملك قدرة على المثول أمامها [٤] ، وإلى قريب من هذا التعريف ما ذكره لدكتور الشاعر ، حيث ذهب إلى أن شرط الأخلاق أن يكون سلطانها نابعا من الإنسان ذاته ، أي سلطة داخلية يأتمر بأمرها الإنسان ويصدر عنها و هو ما يسمى بالضمير [٥] ، فالضمير على كلا

---

(١) راجع للدكتور عبيد الحميد فوزي : النظم السياسية ،صـ ٥٤٠ ، وللدكتور عبد الحميد بدوي : النظم الدستورية ، المجلد الثاني ، صـ ٦١٣ .

(٢) جيمس هنري : القواعد الأخلاقية ، صـ ٧٣ ، ترجمة هناء فوزي ، دار النشر ، بيروت ، ط. دار الجيل سنة ١٩٨٣ .

(٣) الشيخ محمد على الطحاوي: دراسات في الأخلاق ، صـ ٧٣ ، طبعة دار حكمت بالإستانة، ١٣٤٣ هـ .

(٤) الشيخ محروس عبد المتعال القوصي ، نظرات في علم الأخلاق ، صـ ١٤ ، ١٥ ، طبعة الدار العصرية سنة ١٩٢٣ .

(٥) الدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر ، مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ، صـ ٦٠ ،الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. دار الطباعة المصرية .

التعريفين يعبر عن سلطة داخلية ، حيث يكون الشرع أو القانون هو السلطة الخارجية ، وهو إتجاه قد يكون مقبولا متى أمكن الوقوف عليه من الناحية الفنية .

ويذهب الدكتور بيصار إلى أن الضمير قوة كامنة في نفس الإنسان ، مودعة في فطرته ، وهى ما أطلق عليه علماء الأخلاق اسم الضمير الخلقي [١] ، وما دام الضمير قوة كامنة في نفس الإنسان ، مودعة في فطرته ، فإن عملها الذي تؤديه هو الذي يبرزها إلى حيز الحكم عليها ، وبناء عليه ، تكون العلاقة بين الضمير كقوة داخلية ، وبين المظاهر الدالة عليه هي أصل النص ، العلاقة بين اللغة المتنية التي تمثل النص ، واللغة الشارحة التي تفسر النص وتوضحه .

ويذكر الدكتور مزروعة أن الضمير قوة ذاتية في الإنسان ، تأمره بالخير وتنهاه عن الشر ، وتثنيه إن أطاعها ، وتعاقبه أن عصاها [٢] ، وهذا التعريف يتعلق بالفائدة أو الوظيفة ، وفي نفس الوقت يعمل على الربط بين المقدمات الشرطية المترتبة على السعادة أو الشقاء [٣]، ثم ينقل صورة ضوئية للمشكلة القائمة حول تعريف الضمير وماهيته [٤].

ويعتقد إدوارد كانتور أن الضمير قوة مكتسبة ، وثمرة قائمة تدعمها غريزة فطرية قادرة على التوجيه [٥] ، بهذا يجعل الضمير جامعا بين طرفين عمادهما جملة من العادات والقيم بجانب كونه غير قابل للتنازل ، عن القواعد التي ينطلق منها .

أما أنا فذاهب إلى أن الضمير قوة إدراكية قائمة داخل وجدان الإنسان لا يستطيع أحد التحكم فيها سوى الله [٦] ، ويعلم طبيعتها صاحبها ،ولها تأثير تتنوع درجاته بين القوة والضعف ، وهو يقبل التعديل بإعتبار المحتوى والتأثير ، لأن الضمير صوت الله الذي أودعه داخل الإنسان ، ولذا يقال على

---

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق ، صـ ٢٢٠ .

(٢) الدكتور محمود محمد مزروعة : دارسات في علم الأخلاق ، صـ ٥٥ .

(٣) لأن الضمير الذي يسعد صاحبه يتمثل في توفير سبل الراحة له، والبعد عن أسباب القلق ، والإضطراب فالضمير الذي يتفق صاحبه مع طبيعته ، تتمثل فيه السعادة الذاتية والذي يخالف طبيعته تترتب عليه التعاسة والشقاء .

(٤) الماهية هي ما يتعلق ببيان المعرف ،حتى يكون واضحا سواء من الناحية الذاتية أم الناحية العرضية .

(٥) إدوارد كانتور : المشكلة الخلقية من منظور فلسفي ، صـ ٩١ ، ترجمة علية عبد الرحمن وناهد شوقي طبعة دار الجيل ، سنة ١٩٧١ .

(٦) هذا من الناحية الإعتقادية التي ألقى الله تعالى عليها ، وهي ]أن الله وحده علام الغيوب ، وأنه القادر على كل شيء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، كما أنه على كل شيء قدير ، و أنه جل شأنه قد أحاط بكل شيء علما ، والضمير ما هو واقع داخل لعبد ، والله سبحانه وتعالى وحده الذي يملك السلطان الأوفي عليه ، ودور العبد فيه مجرد المراقبة والإنصات لصوت الضمير الذي يقود صاحبه نحو الهداية، ويصرفه عن الغواية ، بدليل أن العبد إذا غفل ينبهه ضميره ، وإذا غفا أيقظه ذات الضمير .

صاحب الأخلاق الدنيئة ليس لديه ضمير ،يقصدون النور الإلهي [١] ، والوازع الفطري ، ويقولون على الكريم المحسن لديه ضمير ، يقصدون أن قيامه بما أمر الله إنما هو مستقر فيه لا يتزحزح عنه ، فالعبرة ليست في التسمية ، بقدر ما هي قائمة في المسمى .

## ثانيا : الآراء في وجود الضمير

### المجموعة الأولى : أصحاب القول بالفطرية

وهم الذين يذهبون إلى أن الضمير ، غريزة فطرية تولد مع الإنسان ،وبها يستطيع التمييز بين الخير والشر ، كما يستطيع التمييز بين الضوء والظلمة ، أو بين الأبيض والأسود ، إنه للنفس كحاسة البصر للبدن [٢].

وإذا كان الضمير فطريا ، فإن فرصة قبوله للتغيير قد لا تكون ممكنة ، لأن الفطرة هي الجبلة التي خلق الله الإنسان عليها [٣] ، وهذا الإتجاه في القول بفطرية الضمير قد يكون له ظواهر تدعمه ، لكنه مختلف القوة بالنسبة للأشخاص ، وعليه فإن الخلط بينه وبين القلب النوراني قد يكون أمرا واقعا ، مع أنهما مختلفان [٤]، بينما يترتب عليها نتائج دلت عليها النصوص السمعية نظرا لورود مادة الكلمة ومعناها فيها .

### المجموعة الثانية : أصحاب الضمير المكتسب

وهم الذين يقولون أن الإنسان يكتسب قوة تغدو وتروح في داخله ، من خلال المجتمع الذي يعيش فيه والبيئة التي يسكنها ، ونوع التربية التي يتلقاها [٥]، والضمير في هذا المعنى الإكتسابي تتمثل فيه مواقف رصدية قامت على كونه مكتسبا من ثلاثة عناصر ، هي الأسرة ثم المجتمع بماله من تأثير بيني والبيئة بما لها من قوة قابلة للتعديل عن طريق التربية .

---

(١) راجع كتابنا : أنسام حبية في الأفكار الصوفية ، صـ ٢٤٧ .

(٢) الدكتور محمود محمد مزروعة " دراسات فيعلم الأخلاق ، صـ ٥٦ .

(٣) حجة هؤلاء القائلين بفطرية الضمير أنه موجود عند الحيوانات العجماوات ، فهو من باب أولى يكون موجودا عند الإنسان ، ويستدلون أيضا بأحوال الحيوانات من الكلب والقطة ، فالكلب مزود بقوة فطرية تبين له ما يفعله ، والقطة إذا اختطفت شيئا من المائدة تهرب به خوفا من إيذائها ، لكونها عارفة بأنها قد فعلت ذنبا .

(٤) فالقلب النوراني أقيمت فيه العقيدة . الإلهية لقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٥) الأستاذ محسن عبد الحميد بدوي : الأخلاق النظرية ، صـ ٧١ ، طبعة أولى ، سنة ١٩١٥ ، مطبعة المنيل .

ويذهب الغربيون من أصحاب الوضعية ، والمذاهب التجريبية ، إلى إنكار وجود الضمير مطلقا ، لأنهم لا يعترفون إلا بما هو خاضع للحس والتجربة ، ومن أشهرهم جون لوك بجانب أوجا استكنت ، ثم دور كايم وأخيرا زعيم الشكاك في فرنسا أبان عصر النهضة مونتاني [١] .

وإذا كان الضمير مكتسبا من البيئة والمجتمع والتربية ، ويقبل التعليم ، فهل يمكن إعتباره شيئا موجودا له استقلال نوعي داخل النفس الإنسانية ؟ أم هو خليط من جملة عناصر متباينة لا يجمعها سوى اسم الضمير ؟

## المجموعة الثالثة : أصحاب الضمير الأكذوبي [٢]

وهؤلاء يعتقدون أن الضمير مجرد أكذوبة ، فلا هو نظري كما يقول أصحاب الرأي الأول ، ومنهم كانت ، ولا هو مكتسب على ما ذهب إليه دوركايم ومن معه ، إنهم يقولون أن فكرة الضمير صورة إختراعية قام بها الأقوياء لخداع الضعفاء [٣] ، وهي خدعة قام بها الضعفاء ليواجهوا بها سلطة الأقوياء ، أو يحدوا منها ويقللوا من سطوتها .

ويعتقد هؤلاء أن المفردات التي تحمل هذا الاسم يجب استبعادها من المصادر ، نظرا لعدم الاعتداد بها ، ولكن هذا الإتجاه ليس له ما يبرره ، وأغلب من قاموا به يمثلون مجموعة من ذوي الإتجاهات الفردية الخالصة التي يغلب عليها الطابع الشكي [٤] ، حينا والجدل حينا آخر ، ولذلك فليس لهم في دنيا المعارف الدقيقة نصيب ، كما أن ما تعرضوا له ، أو أبدوه غير متفق عليه معرفيا ، أو علميا ، بل ولا أخلاقيا أيضا .

وقد لخص الأستاذ منصور رجب جملة الأراء الثلاثة ، ثم أنتهي إلى نتيجة هي أن الرأي الأول والثاني يتفقان في الاعتراف بالضمير ، وإنما يختلفان فقط في هل هو فطري أم مكتسب ؟ أما هذا الرأي الأخير فإنه ينكر الضمير إنكارا من أصله ، فليس عندهم شيء أسمه ضمير ، وليس هناك شيء أسمه

---

(١) والملاحظ أن أوجا استكنت كان من زعماء الوضعية المنطقية والطبيعية ، بينما كان دور كايم من أتباع الوضعية الإجتماعية ، وكان مونتاني زعيما للشكاك ، بينما جون لوك من الحسيين الذين كانت لهم جهود كثيرة ، راجع للأستاذ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة .

(٢) هؤلاء المنكرون لوجود الضمير بإعتبار الفطري والمكتسب ، إنما يرفضونه جملة وتفصيلا ، ويرون أن مجرد القول به يمثل استمرار في ممارسة الكذب من النواحي المختلفة .

(٣) هذه العبارات دائما يرددها خصوم آية فكرة عندما يعجزون عن تقديم وجوه نقد إليها بحيث تكون ذات تأثير فعال أو تقوم على أصول واضحة صحيحة ، ولذلك تظهر أوجه القصور لديهم في صور عديدة .

(٤) لأن الشك في الأصول العامة يؤدي إلى إهدارها كاملة ، كما يلزم عنه سحب الثقة منها ، وهذا في حد ذاته هو الذي سعى إليه الشكاك قديما وحديثا .

فضيلة ، وليس هناك قيم أخلاقيـة ، وليست الأخـلاق إلا إخـتراع الضـعفاء ، لكـي يقيـدوا بهـا سـلطان الأقوياء ، ولذلك ينادون بضرورة أن تكون حربا على الأخلاق [١] ، وينقل عنهم شبهتهم ، ثـم يسـتخرج منها نتيجة هي أنه لن تكون القـوانين الأخلاقيـة سـوى مبتـدعات جـديرة الإزدراء [٢] ، هـي أصـحابها الذين وضعوها ، ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من قصاصـات أوراق ، إن الإرادة الوحيـدة الصـحية ي إرادة القوة وإن الحق الحقيقي هو الذي يعلو ولا يعلى عيه ، وهي وحدها التي تقرر الحق [٣] .

### ٣ ـ وظائف الضمير ودرجاته

ذكرنا أن الضمير قد يكون هاديا صاحبه إلى السـعادة ، فيريحـه ويسـتريح معـه ، وقـد يكـون قائما في مواجهة فيشقيه ويشقى معه ، ومن ثم تعددت وظائفه على النحو التالي :

#### الأولى : توضيح الطريق

حيث إن الإنسان إما أن يسلك طريقا تتعلق به المصلحة ، وفي هذه الحال يتجنب طريق المفسـدة ، فهو داخل إلى طريق غير ملتفت إلى الآخر ، وإما أن يسلك الطريق الذي كان عليه أن يتجنبـه ، فـيترك ما يتعلق بالسعادة ، ويلتزم بما هو واقع في الشقاء ،ويقوم الضمير في هذه الحالة مقـام القائـد الأعلـى ، والداعي المتميز ، لكنه على الناحية الأولى يكون مثيبا مسعدا ، وعلى الثانية يكون معذبا متعسا .

#### الثانية : إصدار الحكم

مادام الإنسان قد اختار الطريق الذي يسـلكه ، فـإن الضـمير يـأتي ليصـنفه لـه علـى ناحيـة الثواب، أو على ناحية العقاب ، وهذا في حد ذاته بمثابة حكم كاسف لمايترتب على هذا الأمـر السـبقي ، إذ وظيفة الضمير ليست في صياغة الحكم وإنما في تصنيفه وتقديم الأدلة على دقة هذا الحكم .

إن الضمير حينما يصدر حكما ،لا يكون خلوا من أدلته ، ولا عاريا عن حجته ، القويـة ، بـدليل أنه إذا وقع الإنسان في مخالفة أخلاقية ، فإن ضميره يظل يؤنبه ، لأن وجه الضـمير مكتـوب عليـه مركـز التوجيه في الإنسان [٤] .

---

(١) وهؤلاء يعبرون عن وجهة نظر ليست مقبولة أخلاقيا ، وألا إنهدمت الأخلاق من أساسها ، وليست مقبولة معرفيا لأن المعرفة تقر بوجود الأخلاق والفضيلة ، كما تعترف بوجود مادة خلقيةلها طبيعة استقلالية .

(٢) هذا إعلان صريح منهم بعداوتهم للأخلاق على وجه العموم .

(٣) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، بتصرف يسير ، وهو قد ذكر زعماء كل فريق ، وقدم فكرة موجزة ، أو ترجمة ضيقة حول كل واحد منهم .

(٤) هذا المركز يؤدي دورا حيويا ، وليس دورا ثانويا ، أو استكماليا ، لأن النفس الإنسانية تمثل في وجهين العقل أحدهما ، والضمير هو الثاني، فالعقل عليه التمييز بين الحق والباطل ، والضمير مكتوب عليه مركز التوجيه في الإنسان .

يقول الأستاذ منصور على رجب ، وكما أن قطعة النقود لا تستطيع أن تبتاع بها شيئا إذا كانت بوجه واحد ، فكذلك النفس الإنسانية لا تستطيع أن تعمل عملا أخلاقيا إلا بالاثنين معا ، الضمير و العقل [١]، ومن ثم فوظيفة الضمير تقديم الأدلة والحجج للعقل حتى يصوغ أحكامه في صورة تطبيقية .

**الثالثة : إسباغ السعادة أو التعاسة**

يعتبر الضمير صاحب سلطان متعدد الجهات من حيث أنه يكشف الطريق ، ثم يسيغ الحكم ، وفي النهاية ، فإن كان الطريق صحيحا ، جاء الحكم الخلقي لصالح هذا الإنسان ، أو ذاك ،حتى إذا إرتبط به جزاؤه فيرفل في حل السعادة النفسية ، وتتكاثر عليه عوامل الطمأنينة، فيقع له الإستقرار النفسي، والقلبي والوجداني ، فما أفضل من راحة الضمير ، وما أعظم من هدوء النفس، وأطيب في هدوء الخاطر .

أما إذا سلك طريقا غير موفق فيه . فإن الحكم الذي يصاغ عليه داخل في نطاق العقاب ، لأن من خالف قضية الخير ، وجب عقابه بالتعاسه ، إذ بضدها تتمايز الأشياء ، حينئذ يأتي الضمير ،وقد حمل سوطه بين يديه ، وأوقف هذا المرء بين يديه ، ثم قيده بأغلال القسوة ، وقيود الحرمان ، وظل يجلده بعصا التعاسة ، ويسقيه كأس الندم ، أما طعامه فهو الشقاء ، ولذا يقولون أن الضمير له وظائف ثلاثة ، كل وظيفة تقع طبقا لسلطة ، فكأنه دولة وحده تدور السلطات فيها على مدار ترتيبي .

١ - **السلطة الأولى :** التشريعة ، وتظهر في الضمير ، حينما يكون في دور توضيح الطريق للمرء ، حيث يعرض له جوانبه المختلفة ، ويرشده إلى ضرورة الإلتزام ، ويحذره من عقوبة المخالفة ، ويبين له أن العاقبة وخيمة ، وينصح له أن لا يخرج عن الحدود المسموح له بالتجول فيها .

٢ - **السلطة الثانية :** القضائية ،وتبرز في تصنيف الحكم حينما يرتد العمل إلى الضمير من الناحية التي تبينه ، وهذه السلطة تستكشف الجوانب المختلفة ، إنها ليست سلطة إنطوائية أو قاصرة، بل على العكس من ذلك ، أن جميع القضاة يتعاونون على أداء واجباتهم على الصورة المثلى ، وهي تكون بعد دراسة القضية وتناول الأجزاء وتهيئة النفس لأمر آخر ؟

٣ - **السلطة التنفيذية :** وهي التي تملك تنفيذ المثوبة، أو العقوبة التي أصدرها أصحاب السلطة القضائية ، فالضمير الإنساني تأتي فيه سلطات ثلاث لا تسبق إحداها الأخرى ، وإنما هي على التوالي حيث تبدأ التشريعية ، ثم تليها القضائية ، وأخيرا تأتي التنفيذية لتكون الحلقة قد أكملت . والحقيقة ظهرت ، والعلاقة تم تداولها بأحسن ما يكون .

---

(١) الأستاذ منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ، صـ ٢٤٥ .

لقد كان الإمام الغزالي صاحب رؤية سبقية حينما تحسس هذه القوى والسلطات في الضمير الإنساني ، ثم ربط ذلك بالأخلاق ، من الناحية النظرية والعملية ، لكنه أكد في ذات الوقت على درو الشرع في تربية هذا الضمير ، وسماه الضمير الديني الذي تكون له سلطة التوجيه إلى الكمال الإنساني والحكم على الفعل بالخير أو الشر ٠

من ثم اتضحت علاقة الضمير بالسلطات الأساسية ، كما بأن أن وظائف الضمير ليست محصورة في قواعد أو علاقات ضبطية بقدر ما هي إشارات تجمع بين ثناياها العديد من الجهات ، كما تنطوي بداخلها جملة من العلاقات ، كل علاقة منها مرتبطة بمرتبة من مراتب الضمير ، ولها علاقة قائمة بوظيفة من وظائفه ٠

**رابعا : موقف الإسلام منه**

وردت آيات كثيرة تتحدث عن الضمير ، من غير تسميته بذاته ، وإنما عرفت من خلال طبيعته التي يكون عليها ، والصفة التي ينفرد بها ، من هذه الآيات ، قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [١]، فما تقع فيه الوسوسة إنما هو ما يمكن أن يطلق عليه اسم الضمير ، ومن ذلك يقول العلامة الفخر الرازي هذه إشارة إلى أنه لا يخفى عليه شيء ، كما لا تخفى عليه خافية ، لأنه يعلم ذوات صدروهم ، وبالتالي فمعرفته بما في صدورهم أولى [٢]، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [٣] .

قال العلامة الزمخشري إما ينخسنك من الشيطان نخس بأن يحملك بوسوسنه على خلاف ما أمرت به ، فاستعذ بالله ولا تطع الشيطان ، فالذين اتقوا إذا طاف بهم خيال من خيالات الشيطان ، أو أصابهم أذي نزغ منه ، وإلمام بوسوسته تذكروا ما أمر اله به ، ونهى عنه ، فأبصروا السداد ، ودفع ما وسوس به إليهم ، ولم يتبعوه أنفسهم ، وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين بأنهم يكونون مددا لهم، في الغي كما يعضدونهم فيه [٤] ٠

---

(١) سورة ق : الآية ١٦ ٠
(٢) العلامة الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع عشر، الجزء الثامن والعشرون ، صـ ٤٣٥ ٠
(٣) سورة الأعراف : الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١ ٠
(٤) العلامة الزمخشري : الكشاف ، المجلد الثاني ، صـ ١٩٠ ـ ١٩١ ٠

والملاحظ أن كلمات الوسوسة والنزع إنما هي من طبيعة عمل الضمير ، بل يمكن إعتبار الضمير هو الميدان الذي تقع فيه تلك المعركة ، ولذا كانت إشارات القرآن الكريم إليه واضحة دون أن يركز على كونه فطريا ، أو مكتسب ، وإن كان يرجح من فهم الآيات والأحاديث كونه حاسة فطرية ، بدليل قوله ﷺ لوابصة الذي جاء يسأل رسول الله ﷺ عن البر فقال له الرسول الكريم البر ما أطمأنت إليه النفس واطمئن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس ، وأفتوك .

من هنا ، فهم كثيرون من أهل الإسلام إن الضمير حاسة فطرية أو قوة جبلية ، ولكنه في كل الحالات يقبل التعديل فيما يتعلق بالسلوكيات ، ويمكن القول بأنه فطري من حيث ذاته ، كسبي من حيث تعبئته ومعارفه ، ثم أن الضمير في الإسلام يرتبط بالاعتدال والتوسط ، كما يتسم باليقظة ، وفوق ذلك فإنه ليس معصوما من الخطأ ، وهو في كل الناس ، ليس على درجة واحدة ، وإنما يتفاوت الناس فيه ، وبقدر كفاءتهم تظهر مشكلات بحثية جديدة تتعلق به من حيث درجاته ومراتبه ووظائفه .

ويبدو لي أن من يريد الوقوف على طبيعة هذا الضمير فليقم بإحداث مجموعة من التساؤلات حول وظيفة الضمير ، ودرجاته ، ومتى يكون قادرا على مساعدة هذا الإنسان في الوصول إلى طريق الهدى الأخلاقي ، أو كبح جماحه إلى جهة أخرى .

# الفصل السادس

# الفضائل الخلقية

**أولاً : الإلزام الخلقي في الإسلام :**

يقول الدكتور دراز :يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم ــ في نهاية الأمر ــ على فكرة الإلزام ، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، بل والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي ، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاتها ، وفناء ماهيتها ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عدمت المسئولية ، فلا يمكن أن تعود العدالة ، وحينئذ تتفشى الفوضى ، ويفسد النظام ، وتعم الهمجية ، لا في مجـــال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضاً ، طبقاً لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي.(١)

ومن الواضح أن مادة الكلمة (ل ز م) قد جاءت في القرآن الكريم داخل مواضع قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، حيث جاءت في آيتين بصيغة الماضي في قوله تعالى : "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا "(٢)وصورة الإلزام واضحة في المنطوق اللفظي،وبنفس القدر يظهر أمرها من خلال المفهوم الأخلاقي أيضاً إذ ما كان لازماً لشئ كان ممتنع الزوال عنه ، واجب الحصول له .

وقوله تعالى : " إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَـأَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَـا وَكَـانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " (٣) .

يقول الإمام الفخر الرازي : وألزمهم كلمة التقوي هو الأمر بالتقوى ، فإن الله تعالى قال للنبي محمد صلى الله عليه وسلم : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"(٤) ، وقال للمؤمنين :" يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ"(٥) فالإلزام بكلمة التقوى قائم على الأمر بتقوى الله ، حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله (٦).

---

(١) الدكتور/ محمد عبد الله دراز - دستور الأخلاق في القرآن ، ص ٢١ .
(٢) سورة الإسراء الآية ١٣ . (٣) سورة الفتح الآية ٢٦
(٤) سورة الأحزاب الآية ١ (٥) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .
(٦) الإمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب المجلد الرابع عشر الجزء الثامن والعشرون ص ٣٤٥ .

ثم جاءت الكلمة على صيغة المصدر القائم في الفعل ـ ل ز م ـ الماضي في موضعين ، أحدهما : في قوله تعالى: " وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى"[١]، والثاني في قوله تعالى : "قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا"[٢] وهذا الوجود اللفظي للكلمة بصورة المصدر جعلها دالة بذاتها على المعنى القائم فيها .

ثم جاءت الكلمة مرة واحدة على صورة المضارع المسبوق بالهمزة الإنكارية في قوله تعالى : " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ " [٣] ، والمعنى أن نبي الله نوحاً عليه السلام لما رأى من قومه الجحود والإنكار أخذهم إلى الطريق الدال على الله تعالي ، وإمكان أن يكون النبي من البشر، فقال لهم هل علمتم موقفي ، وأنا على معرفة ربي وصفاته ، وما يجب له ، وما يمتنع وصفه به ، وما يجوز عليه .

ثم أنه تعالى أتاني النبوة ، والمعجزة الدالة على صدقي في دعواي ، وقد صارت هذه كلها معماة على عقولكم ملتبسة فيها ، فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى هذه المعرفة على سبيل الإكراه والإجبار ، وهذا ليس بإمكاني ، فدل الأمر على أن الإلزام قد يفهم منه الإجبار والإكراه ، كما يفهم منه وجود القوة القادرة على إنفاذ ما تأمر به ، أو تنهى عنه ، ومن ثم فسأحاول تقديم تعريف لكل من الإلزام والالتزام ، مع بيان مصادر الإلزام وما يتعلق به ، وسأبدأ باللغة ، ثم الاصطلاح ، ويأتي بعد ذلك ما يلزم له .

## ١ ـ تعريف الإلزام :

### أ ـ في اللغة :

لما كانت اللغة هي الحقيقة التي تحمل الألفاظ في صورها المنطوقة ، ومعانيها المتداولة من الناحية الاستعمالية ، فقد صار أمر الوقوف عليها من هذا الجانب حقيقة واقعة ، نتعرف عليها من ما يلي :

---

(١) سورة طه الآية ١٢٩ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٧٧ .
(٣) سورة هود الآية ٢٨ .

**الأول : الثبات وعدم الانفكاك :**

تقول العرب هذا الأمر لازم ، ومعناه أن علاقته السببية قائمة في الضرورة ، بحيث إذا نظر إلى طبيعة المفارقة لم يكن لذلك جدوى ، لأن اللازم للشئ قد ينشأ عنه ، ويتحصل منه[1] ، ومن ثم فكل لازم لشئ إنما هو متحصل معه ، في حالة الوجود والعدم على السواء ، والعلاقة بين الإلزام وهذا المعنى قائمة في أن الإلزام أمر ثابت لا ينفك عن الملتزم به ، إنه كجلده الذي يظهر فيه .

**الثاني : الوجوب الذي لا ينفصل :**

قالت العرب هذا الرجل ألزم الخصم الحجة ، ودفعه لتحمل المسئولية ، ومعناه أنه قد قر بما يجب عليه فعله، وصار هذا الواجب غير قادر على الابتعاد عنه، لأن ما يجب ولا يمكن الانفصال عنه ، يكون لازما على وجه الضرورة الوجوبية[2]، ووجه العلاقة هي أن الإلزام أمر واجب متعين في صورته وموضوعه وغايته لا يمكن لأحد أن يتزحزح عنه طالما تعهد به .

**الثالث : المفضي للاتحاد :**

يقولون فلان التزم فلاناً ، أو لزمه ، يقصدون أنه تعلق به تعلقاً لا يمكن أن يظن أحد انفصال طرفيه[3] ويصير المتعلق لازماً له مفضياً إلى الاتحاد به كأنهما شئ واحد ، والعلاقة واضحة بين الإلزام وهذا المعنى من خلال فكرة التعلق المفضي إلى الاتحاد ، حتى كأن المسألة واقعة في ثلاثة ملزم ، وملتزم ، وموضوع .

**الرابع : التعهد بما يجب فيه الإلزام :**

قالت العرب ألزمت الدولة الرجل بكذا ، ومعناه جعلته يتعهد بأن يؤدي ما فرض عليه[1] ، ويحافظ على ما تم الانتهاء منه إليه ، ومنه تعهد المرء بأن يؤدي للدولة الضرائب المقررة عليه ، أو يؤدي قدراً من المال لقاء استغلاله أرضاً من أملاكها[2] فهي

---

(١) العلامة ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، باب اللام فصل الزاي .
(٢) راجع لابن منظور : لسان العرب ، باب اللام فص الزاي .
(٣) راجع للعلامة الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، باب الميم فصل اللام وما ثالثهما .
(٤) وهو معنى يرد كثيراً في التعاملات المالية والقانونية ، بل والاجتماعية والعادية ، بجانب العرفية ، لأنه نوع من الإلزام الفوقي الذي يملك سلطة إنفاذ ما يريد من غير حاجة لشئ آخر وراء ذلك .
(٥) راجع تهذيب اللغة ص ٧٥١ ، المنجد في اللغة والآداب والأعلام ، باب اللام .

ملزمة ، وهو ملزم والعلاقة الإلزام ، ثم أن العلاقة هنا قائمة في الصورة الالتزامية بين طرفين هما الدولة ، والشخص الذي تعهد بدفع ما فرض عليه .

**الخامس : الاقتضاء :**

يقال استلزم هذا الشيء كذا ، ومعناه اقتضاه اقتضاءاً ثابتاً ، واللازمة في الرياضة والهندسة هي نتيجة تلي بالضرورة ، نظرية قد برهن عليها[١] وفي الأخلاق عادة فعلية أو قولية ، تلازم المرء فيأتيها على الدوام ، بحيث تصدر عنه دون إرادة ولا شعور .[٢]

والعلاقة بين الإلزام وهذا المعنى هي أنه متى تم عقد الإلزام ، لم يعد للمتلزم الحق في أن يفكر فيه ، لأنه صار عقداً لازماً ، وصيغة ثابتة ، فإذا حاول أحد التعرض إليها لم يلتفت إليه ، كما أنه لا يملك هذا الحق[٣] ، بل أنه يؤدي ما التزم به ، دون أن يفكر أو يعترض إذ لا يملك حق التساؤل ولا الاستفسار[٤] لأن ذلك صار بمثابة القاعدة الآمرة ، والسلطة الحاكمة .

**ب — في الاصطلاح :**

يذهب الكثيرون إلى أن الإلزام لا يحد اصطلاحياً نظراً لوضوحه ، وذهب غيرهم إلى أنه لا يحد نظراً لخفائه ، وبعيداً عن هذه الاحتكاكات الفكرية التي قد ترتبط بها أهداف سبقيه ، أو أفكار جمعية ، فمن المناسب تقديم أو التقاط عدة تعاريف اصطلاحية للإلزام على النحو التالي :

١ — هو شعور داخلي يستوجب القيام بعمل ما ، أو الانصراف عنه ، فهو منبعث من الضمير الإنساني ، مار بالوجدان المعبأ بالقيم ، منصرف إلى ما يرتبط بالمسئولية ، انصرافاً لا محيد عنه ، ولا طريقة في الفرار منه[٥] ، وهذا التعريف قد ينطبق على الأفعال شبه الإرادية .

---

(١) المعجم الوجيز باب اللام فصل الزاي ، ص ٥٥٦ .

(٢) راجع للشيخ أحمد محمد النجدي : الأخلاق في الإسلام ص ٢١٧ .

(٣) لأن كل عقد يقوم بين طرفين فأكثر يكون قابلاً للتعامل معه بظروفه قبل ابرامه ، فإذا انتهت مدة الاختيار ، وتم التصديق عليه كانت نصوصه ملزمة لكل من وقع عليه وأمضاه مادام العقد قد خلى من الجهالة ، وانتفت عنه ظاهرة التدليس والغش، ولم تظهر منه رائحة الخداع.

(٤) هذا الأداء مترتب على الالتزام وهو يساويه ، لكن كلاً منهما قائم على الإلزام الذي يمثل القوة القاعدية ، فإذا انتهت هذه القوة القاعدية ، لم يعد للالتزام قيمة إلا بالرجوع للأصل الذي نشأت عنه

(٥) التعريف التقريبي يمكن أن يتم بالموضوع ، أو الغاية التي يقوم عليها ، ومن ثم فلا أرى مانعاً من إقامة هذا التعريف مقامه إلى الحد الذي يجعلني في حل من قبول غيره ، إذ يمكن لي أن أقوم به أو امتنع عن قبوله

٢ ــ هو قوة ذات تأثير داخلي تستهدف الإنسان ذاته ، وتجعله في حالة من عدم السكون وتظل به حتى يؤدي ما يحقق العدالة الانضباطية ، داخل ذات النفس الإنسانية ، وتغطي في ذات الوقت الاتجاه الأخلاقي[1] ، وهو اتجاه يقترب كثيراً من تحقيق أهداف الخلق ، إذ العقل الذي يتم التعامل معه أخلاقياً إنما هو القائم على الاختيار دون سواه .

٣ ــ هو ملكة فكرية يحكمها تصور الأمور، أو الحكم عليها في حرية تامة ، ومشروعية أخلاقية ، غير خاضعة لتأثيرات الهوى ، ولا قانعة بالانقياد الأعمى ، أنها تلتقط أنفاسها من ضمير الواجب ، وتستمد خياتها من الحرية المنضبطة ، أما التماس هوائها فمن الوجدان الخلقي[2] .

٤ ــ إنها قوة عليا ذات أثر فعال ، تملك سلطة الأمر والنهي ، الإعطاء والمنع ويمكنها أن تمارس الترغيب والترهيب ، وحينئذ تتمكن من إصدار أحكام المدح أو التبرير ، كما تستطيع إصدار أحكام الذم ، قيامها على الواجب ، هدفها الحق ، وغايتها العدل[3] وليس من وراء ذلك هدف آخر .

٥ ــ ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أن الإلزام هو العمل الأخلاقي الذي يبعث الوجدان على الإتيان به[4] ، ومن ثم فالعلاقة بين الإلزام والعمل الأخلاقي هي ذات العلاقة القائمة بين اللغة الأصلية والشارحة ، أو بين المترادفين الذي يدور كل منهما في إطار الآخر ، وعند الاستعمال يمكن أن يقيد أحدهما بما لا يدع الحاجة ملحة مع الآخر .

٦ ــ إنه عملية يتلاقى فيها المثل الأعلى ، مع الهدف الأخلاقي الطموح ، من خلال الضمير الواعي ، حيث ينتج عن ذلك مظهر أخلاقي ، قائم على مبادئ قانونية ، يقويها ويفرضها العقل[5]، تكون لها صيغة الأمر الصادر عن العقل الخالي من الهوى ، الرافض للانقياد .

---

(١) هذا التعريف قائم على استثارة الضمير، وليس في حدود سلطان الحواس ، لأنه إنما يستدعي قوة داخلية لها تأثير فعال بالنسبة للنواحي الوجدانية ، ومن ثم يصح مجيئه عليها أو من ناحيتها .

(٢) وهذا التعريف أراه يقبل المساواة بين الإلزام كطبيعة ، وقوة الإلزام من الناحية الاستقلالية بالنسبة للجانب الخلقي .

(٣) أرى أن هذا التعريف يصلح كباقي التعريفات لكن لا على الجامع المانع ، كما يقول المناطقة ، وإنما باعتباره أحد التعريفات التقريبية التي يعتد بها في العلم وتحديد موضوعه .

(٤) الأستاذ أحمد أمين : الأخلاق ص ١٤٣ ، وراجع للدكتور فرج صابر : الأخلاق وعلاقتها بالفلسفة ، ص ٥٣ .

(٥) لا يستطيع العقل القيام بهذا الدور إلا إذا مارس حقه في التفكير بحرية تامة ، قد لا تتوفر عند استعمال حرية التعبير ، لكن لابد للعقل من ممارستها حتى تؤدي عملها على الوجه الأمثل .

ويعلل الدكتور دراز طبيعة هذا التعريف ، بأن الهوى والانقياد الأعمى لا يسمحان بوجود إلزام خلقي، يقوم على الواجب، كما لا يفسحان المجال لظهور حركة العقل، وحرية الفكر،وإبراز المشروعية[1]،وهي العوامل الأساسية في طبيعة الإلزام،والمعرفة الأخلاقية .

يقول الدكتور دراز من هنا نرى القرآن الكريم يقف دائماً أمام هذين العدوين إتباع الهوى والانقياد الأعمى للأخلاقية ،فعن إتباع الهوى دون تفكير " يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ "[2] ، وقوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا "(٣) ، وعن الانقياد الأعمى قال تعالى : "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ"[4].

فهل يقول الذين يريدون السير على سنة أسلافهم على الانقياد لهم دون تمييز حتى أولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون — وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ"(٥)، ولا يستطيع من شاء أن يقلل من شأن الملكة الفكرية ، وما لها من دور في تصور الأمور والحكم عليها ، باعتبارها الأخيرة من حيث تاريخ ظهورها ، ويستطيع أن يصر على أن تأثيرها ضئيل في مقاومة الشهوات ، ولكن يبقى شئ لاشك فيه ، هو أن جوهر الأخلاقية ذاته يكمن في نشاط ذاتنا المفكرة[6] .

٧ — أنها قوة باطنة كامنة في القلب والوجدان ، لا تقتصر على نصح المرء وإرشاده إلى ما فيه هدايته ، وإنما توجه إليه أوامر بأن يفعل أو لا يفعل ، وهي الجانب الوضيء من

---

(١) يقول الدكتور دراز : ففي الفرد إذن - من حيث كونه فاعلا - عنصر عقلي ، أعني عنصر أخلاقيا بالمعنى الحق ، وفي الأمر الخلقي عنصر آخر هو العقل والحرية والمشروعية وتلكم هي العوامل الأساسية ، التي أدى إغفالها إلى نقص كبير في تحليل برجسون - دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٥ .

(٢) سورة ص الآية ٢٦ . (٣) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٤) سورة الزخرف الآيتان ٢٢ ، ٢٣ . (٥) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

(٦) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٧ .

النفس الإنسانية ، ويكون وجودها داخل العقل نفسه الذي تتمثل فيه السلطة السائغة للإلزام[١] ، من ثم يمكن القول بأن الإنسان يقدم منه جانبان . أحدهما هو: السلطة التشريعية المتمثلة في العقل وأحكامه الصحيحة، ومعقل قاعدة الإلزام، أو مبدأ الإلزام الأخلاقي[٢]الذي تسعى إليه ، ثانيهما هو الرعية الذين يجب عليهم الإلزام بما عليه سلطة الإلزام ، وهذه الازدواجية في: الإنسان تحمل الإلزام والالتزام ، بل يمكن أن تكون الميدان الذي يطبق فيه الأمران .

أما الالتزام فهو رعاية أحكام الإلزام ، والتقيد بها ، ثم تطبيقها مع ضرورة القيام بما تفرضه ، بغض النظر عن ميول الفرد واتجاهاته التي مصدرها ثقافته المجتمعية ، أو رغباته الذاتية[٣] ، وهنا يصير الإلزام بمثابة قوة الدفع التي ينطلق منها الالتزام ، بحيث لا يحيد عنها المرء ولا يتخلف ، ومتى انضبط الأمر في الالتزام ، على قاعدة الإلزام تكامل النظام واستقام[٤] يستوي أن يكون ذلك مع الفرد ذاته،أو الأسرة، أو المجتمع الإنساني كله.

**٢ - موضوع الإلزام :**

عرفنا أن موضوع أي شئ هو ما نبحث فيه عن عوارضه الذاتية ، وجوانبه الموضوعية[٥]، ومسائله التي يتم التعامل بها، والتناول لها ، ومن ثم فإن موضوع الإلزام هو طبيعة الواجب الأخلاقي ، من خلال المسئولية ذات الارتباط الشرطي في المثل العليا[٦]. يقول الأستاذ محمد جواد مغنية : الإلزام والالتزام يتألف مفهوم النظام ، ومن تمرد على الإلزام والواجب فقد خرج على النظام العادل[٧].

---

(١) هذه السلطة عمادها فكرة الواجب الأخلاقية ، ولكنها من الناحية الشرعية تقوم أساسا على فكرة متابعة المصدر الإلهي وهو النقل المنزل ، وأعني به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(٢) يذهب البعض إلى إطلاق لفظ قاعدة الإلزام على هذه الأفكار الأخلاقية ، بينما يرى آخرون إطلاق اسم مبدأ الإلزام ، والخلاف من هذه الناحية لفظي لقيامه على حروف اللفظ لا معانيه .

(٣) هذا التعريف أرى اللغة مؤدية إليه ، ودالة عليه ، بل إنها تتصرف ناحية هذا المعنى من خلال صور عديدة .

(٤) فالنظام الأخلاقي يمكن أن يكون قاعدة يطبق فيها الكثير من الأحكام ، أو يكون هو المقياس الذي يمكن أن تنضبط به بعض العلوم مادامت القاعدة قائمة في صورة معيارية .

(٥) يقصد بجوانبه الموضوعية هنا الجزئيات التي يتناولها ، لأنها في الأصل تعبر عن الصيغ التي لابد منها من الناحية البحثية .

(٦) فكرة المثل العليا، تقوم عليها فكرة الواجب ، أو مبدأ الواجب ، ولذلك فالعلاقة بين المسئولية والارتباط الشرطي واضحة المعالم .

(٧) الأستاذ محمد جواد مغنية : فلسفة الأخلاق في الإسلام ، ص ٥٧ .

على أن موضوع الإلزام ليس محل اتفاق بين كثير من الدارسين ، إذ يذهب البعض إلى أن موضوع الإلزام هو ما تفرضه ذات القوة الداخلية ، التي تختلف من شخص لأخر، ومن ظرف لغيره ، لكن لهذا الرأي خصومه بلغوا حداً من الكثرة ، كمـا أن اتجاهـاتهم للأسس التي قام عليها قدموا حولها أدلة قد أتت عليها تماماً .

ويعتقد كثير من الباحثين أن موضوع الإلزام ثابت من خـلال قاعـدة أفعـل أو لا تفعل[١] ، والمعنى افعل ما يمليه عليك الواجب بأوسع معانيه ، ولا تفعـل تمليـه عليـك الشهوات والغرائز ، مهما ضاق هذا المفهوم ، لأنك في الأول تكون صاحب خلق عليـا ، ومثل رفيعة ، بجانب التزام بما هو قائم عليك أخلاقياً[٢] ، وفي الثانية لا تفعل مـا يسـقط مروءتك ، ويهدم أخلاقك ، ويسقطك من الأعالي ، حتى تكون في الدرك الأسفل ، وتصير صاحب خلق مرزولة.

قد يساورني كثير من الشك المؤرق ، ولكن ذلك لايبقى معي طويلاً ، لأن الشك قـائم في منظومة ماهية النفس الإنسانية ، وعلاقتها بموضوع الإلزام الأخلاقي ، ولكنه ما يلبث أن يأفل ، حينما تجري على قلبي آيات القرآن الكريم فأرى النفس البشرية قد جبلت علـى الشعور القوي بالخير والشر ، وأنها قادرة على الاختيار من ذلك قوله تعالى: " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا "[٣].

يا لها من روعة ، وأعظم به من جمال ، حيث يصور القرآن الكريم النفس على أنها بعد التسوية ، صارت قادرة على الاختيار بين ما يصلح لها فتزكو به ، وبين ما لا يصلح لها ، وإن وقعت فيه ترديت وهلكت ، ويا له من جمال أخاذ ، حين يعطي تلك النفس حرية الإرادة، ويحملها المسئولية كاملة[٤] لأنه تعالى قد زودها بملكة إلهامية تمكنها من اختيار الفجور أو التقوى ، التزكية أو التدنيس ، فألهمها فجورها وتقواها .

---

(١) هذه القاعدة قائمة في النصوص الشرعية حينما نسعى للتكاليف العملية ، حيث يظهر ذلك كله في جانب الحلال والمباح من خلال قاعدة أفعل ، ثم يأتي الجانب الثاني في الحرام والمكروه حينئذ نجد الصوت القوي لا تفعل ، وهكذا في الأحكام الفقهية العملية والتشريعية بل والأخلاقية أيضا.

(٢) لأن الأخلاق السليمة لا تقوم إلى على مصادر الشريعة الإلهية ، ومن ثم فلا تكون إلا صحيحة وسليمة أيضا ، وهو المعيار الذي تفترق به الأخلاق السليمة عن غيرها ، وأعنى بذلك صحة المصدر وسلامته .

(٣) سورة الشمس الآيتان ٧ ، ٨ .

(٤) تحميل النفس مسئولية الإرادة يمثل أحد أجزاء النظام العام في الإلزام ، ويمثل كذلك صورة وثائقية للجزاء الأخلاقي ، من ثم يصلح المثال الواحد لكل من الجزاء والإلزام الأخلاقي.

ثم طافت آيات الذكر الحكيم بهذه النفس من كل ناحية ، وأتت عليها فحصاً من كل جانب ، وجعلتها ناطقة من خلال بصيرة نافذة ، منحها الله تعالى إياها ، بحيث تكون هي التي تملك حرية الإرادة ، وحرية العمل ، كما تملك في ذات الوقت حرية اختيار نوع الجزاء[١] ، الذي يمكن أن يعقب المسئولية ثواباً ، أو عقاباً،إنه يطالب الإنسان أن يعمل بعين عقله ، لا بعقل عينه.

وقد جاء ذلك الإعجاز الملهم ، والإلهام المعجز ، في قوله تعالى : " بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ "[٢] ، وقوله تعالى : "أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[٣] ، وقوله تعالى : "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "[٤] ، وهل أدل من حرية ذلك الإنسان أن وضع أمامه كل من الخيارين ، وترك أمر تفضيل أحدهما على الآخر ؟ ، ألم يكن يملك حرية اختيار الخير ، حين اختار الضلال ؟ الم يكن يستطيع تغيير اتجاهه من الزاوية المنحرفة ، إلى الطريق المستقيم ؟ .

إن آيات الذكر الحكيم قدمت صوراً استقرائية ، لعلاقة الإنسان بالنفس من خلال قاعدة الإلزام ، وبينت أن بإمكان هذا الإنسان العاقل المفكر كبح جماح شهواته ، وتكميم أفواه غرائزه ، وتقليم أظافر رغباته المشبوهة من خلال أحكام الهوى ، وإلجام باقي القوى ، قال تعالى: " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى "[٥].

من ثم أستطيع القول بأن موضوع الإلزام هو الواجب لدى الأخلاقيين ، وهو ما تجئ به النصوص الإلهية في أوامرها ونواهيها ، وأحكامها الشرعية لدى أصحاب المعارف العقدية والتفسيرية والحديثية ، بل والفكرية القائمة على أصول إسلامية ، لأن التزام المصدر الإسلامي هو من أولى الواجبات بعد معرفة أجزاء العقيدة الإلهية .

**٢ - مصادر الإلزام الأخلاقي :**

اتجه الأخلاقيون بالحديث عن الإلزام ، من خلال الطريقة التي يدار بها ويتصرف عليه من خلالها ، وبعبارة أخرى ذهبوا إلى بحث الأصل الذي قام عليه كفكرة أخلاقية ،

---

(١) ومن ثم فالإنسان يحاسب على إرادته الخاصة ، أما قدرته فهي لا تخرج عن دائرة الأسباب المساعدة التي مهما بلغت من القوة والصرامة ، فلا يتم ذلك لها استقلالاً ، إنما يتم من خلال أقدار الله تعالى .
(٢) سورة القيامة الأيتان ١٤ ، ١٥ .
(٣) سورة البلد : الآيات ٨ ـ ١٠ .
(٤) سورة الإنسان الآية ٣ .
(٥) سورة النازعات الأيتان ٤٠ ، ٤١ .

والمصدر الذي صدر عنه كجزء من أجزاء البحث الخلقي[١] ، وبخاصة أنهم تلفتوا يمنة ويسرة ، فإذا هم يلتقون بالإرادة الحرة والإدراكات العقلية المتنامية بجانب الثقافة البيئية ، والعلاقات الاجتماعية ، والمتطلبات الفكرية .

إن العقل من داخله يصدر العديد من النداءات،التي تطالب التمسك بالواجب وعدم الخروج عليه ، أو التفريط فيه ، فهل تكون النداءات التي يلح على إصدارها العقل هي مصدر الإلزام ، وهل تصلح لذلك[٢]، كما أن الوجدان يشعب على العقل ، ويندفع هو الآخر برجاءاته وتوسلاته ، يلتمس الأخذ بالضمير واستهداءاته ، فهل يصلح الوجدان ليكون هو المصدر الذي يقوم عليه الإلزام ؟[٣] .

على حين قد فطن آخرون إلى دور البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، ويشارك غيره الحياة بين جنباتها ، ويقاسمهم جملة العادات التي هي بمثابة الكتاب المقروء الذي يستلهم كل فرد منه مصدره الإلزامي ، وكيف لا والإنسان ابن بيئته[٤] وربيب عاداتها وأحوالها ، فهل تصلح البيئة لتكون مصدر الإلزام الخلقي ؟ .

لم يكن أصحاب هذا الاتجاه وحدهم في الميدان ، وإنما ظهر فريق أخر تخطى الحواجز الفردية والإنسانية ، كما قفز فوق أسوار البيئة ، وسعى إلى الحديث عن ذلك الذي يلهم الإنسان أفكاره السليمة ، ويغذي اعتقاداته ، وينمي في داخله الشعور بالمسئولية ويطلب منه الالتزام بالعهود ، واحترام المواثيق، والوفاء بما تم التعاقد عليه، وأطلقوا عليه اسم الدين أو اللاهوت[٥].

أجل أحكمت بعض الاتجاهات أمرها على أن الإلزام له مصدر معرفي يقوم على دافع المنفعة الأخلاقية ، والمصلحة التي يسعى إليها الإنسان أينما كان ، لكن أي صورة

---

(١) الإلزام لدى الكثيرين أحد المباحث المشتركة بين علماء القانون وعلماء الأخلاق من الناحية البحثية ، ولكن ظهر فريق يعلي صوته بأن الإلزام يدخل في نطاق العلوم كلها ، لكن صورته هي التي تختلف ، واختلاف الصورة لا يؤدي إلى انكار وجوده .

(٢) أصحاب هذا الاتجاه يطلق عليهم العقليون ، كما يسمون أصحاب المذهب المثالي ولهم اتجاهات عديدة قديما وحديثا .

(٣) أصحاب العقل وأصحاب الوجدان يمثلون جانبا من الاتجاه الداخلي الذي يعول أصحابه عليه في الحديث عن مصادر الإلزام .

(٤) فكرة كون الإنسان ابن البيئة مما يردده أصحاب الفكر الاجتماعي قديما وحديثا ، ومقصدهم من ذلك ربط عادات الفرد الاجتماعية بما هو قائم داخل البيئة التي يعيش فيها ، حيث يكتسبها منها .

(٥) الدين لدى هؤلاء الذين يقيمون في الغرب هو الدين الطبيعي الذي يختاره الإنسان لنفسه ، ويصير من حقه الالتزام به ، ولذا فهم يطلقون عليه من الأسماء ما يشاءون ، أما نحن فالدين الإلهي من عند الله تعالى في اسمه ومصدره وتعاليمه ، ونحن نؤمن به ، كما جاء من عند الله تعالى .

تلك التي تبرز فيها المصلحة ، وتبدو من خلالها المنفعة أهي الوجدان المنبعث بأسـراره داخل النفس الإنسانية ؟ أم هي العقل الذي يخوض به المـرء غمـار الحيـاة ، ويواجـه المشكلات ويتخطى الصعاب ، أم أن هذه الصور تتمثل في حاسة خاصة لم تعلـن عـن نفسها من خلال هذا الجمع ، يمكن أن يطلق عليها اسم الحاسة الخلقية(١).

وبناء عليه فقد صارت لدنيا اتجاهات أربعة هي: نداءات العقل ، واتجاهـات البيئـة ، وتطلعات الوجدان، ونداء الوحي الديني أو تعاليم النقل المنزل. من ثم فقد تنوعت كلمـات الباحثين في الأخلاق من ناحية مصدر الإلزام ، وتعددت مشاربهم إلى الحد الـذي صـار يمثل صعوبة بحثية ، وبخاصة متى أردنا متابعة هذه التعريفات المختلفة في مظانهـا ، إذ صار كل واحد منها له مذهب وكل مفكر مهما كان شأنه ، يرى في نفسه القـدرة علـى إصدار كلمة في هذا الشأن(٢)، وأني سأحاول ضبط هذه الآراء من خـلال المجموعـات التالية:

**المجموعة الأولى : أصحاب النزعة الداخلية :**

وهم الذين يرون أن مصدر الإلزام هو داخل المرء نفسه ، المتعطش إلى إشباع العقل وإرضاء الوجدان، لتحقيق أكبر قدر من المنفعة التي هي عماد الأمر الفلسفي، ودافع العمل الأخلاقي ، بل هي في ذات الوقت التاج الذي يقبع على مفرق الرأس ، فذات الإنسان من الداخل ، هي محور الإلزام ومصدره .

وفي أحضان هذه المجموعة الأساسية نمت نباتات فرعية ، اتجه كل غصن منها ناحية بذاتها ، في ذات الإنسان ، بحيث يدرسها ، ثم يحاول البحث عن مصدر الإلزام في هـذا الإنسان نفسه ، وهنا أمكن التقاط صور نوعية داخل هذه المجموعة من أبرزها :

أ ــ **العقليون** : وهم الذين يعتقدون أن مصدر الإلزام الخلقي هو العقـل ، لأنـه الملكـة الفكرية الحاكمة ، وهو في ذات الوقت الذي يمكن الانصياع لما تمليه فكرة الواجب، ثم هو فوق ذلك أساس المعرفة، ومناط البحث عن الحقيقة(٣) بجانب أنه إذا لم يوجد عقل ، لـم

---

(١) هذه الصور الكثيرة يمكن الرجوع إليها في المصادر العديدة التي تحدثت عن الأخلاق ، كما يمكن متابعتها داخل النتائج المترتبة عليها من الناحية العملية .

(٢) لمعرفة ذلك راجع للدكتور توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ، وزكريا إبراهيم : المشكلة الخلقية وللدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، وغير ذلك كثير .

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ٢٣٥ ، وكتابنا : المعرفة عند ابن رشد ، ص ٩٧ .

توجد أخلاق ، ولا يعرف للإلزام عنوان ، فمصدر الإلزام هو العقل السليم ، ومعيار الحكم عليه هو ذات العقل ، والقائد الذي يفرض على الجميع قبول الأحكام الخلقية هو العقل .

بل يذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك كله ، حين يقررون أن الأخلاق أنما تقوم علـــى الإرادة الحرة ، وفكرة الواجب ، ولا يوفق بين هذه وتلك سوى العقل، فأي انصراف عنه أو خروج عليه ، يمثل اتجاهاً بعيداً تماماً عن القاعدة العامة،التي تدور في نطاقها العلاقات المتبادلة، بين العقل والضمير[١] بل بين الوجدان والأخلاق .

ثم أن هذا الاتجاه لديهم تغذيه جملة من المشاعر،التي تختبئ خلف العقل وأحكامـــه ، وأبرزها المثالية التي هي التزام صريح ، وإعلان واضح بأن السلوك السوي لا يكون إلا من خلال العقل السليم ، والخضوع لأحكامه الأساسية[٢]، وبناء عليـــه فكـــل عقـــل هـــاد لصاحبه ، ومرشد له ، أو قائم بداخله ، وهو مصدر الإلزام بالنسبة له .

وبعيداً عن مناقشة الرأي فإن أغلب دعاوى أصحاب الاتجاه ، وأدلتهم إنما تهدف إلى تثبيت دور العقل في صورته الخاصة ، بعيداً عن النسبية ، فكأن أحكام العقل قادرة علـــى وضع قواعد فردية ، يلتزم بها كل فرد بذاته ، من خلال قاعدته هو ، دون ارتباط بنـــاتج أو جهود عقليات أخرى[٣] ، وبناء عليه تذوب أحكام العقل ، بل وتنقضي معالمه ، نظـــراً لأن العقول مختلفة في طبيعتها الإدراكية، ومعارفها الذاتية، وقد عبرت عن ذلك العديد من الدراسات التي قامت على مبدأ فكرة الفروق الفردية .

**ب – الوجدانيون** : وهم الذين يعتقدون أن مصدر الإلزام الخلقي مـــن داخـــل الإنســـان، ويتمثل في الوجدان[٤] ، لأنه الذي عليه قدرة التحريك لجملة المشاعر التـــي لـــيس مـــن الممكن الوقوف عليها ، إلا من خلال الفرد ذاته ، فهو الذي يحب ويـــبغض ، ويلتـــزم أو يخالف ، حتى إذا لم تكن هناك رقابة من أحد كانت هذه السلطة الداخلية ذات تأثير فعـــال لأن أحكام الوجدان لا تخطئ .

---

(١) راجع للدكتور / صابر حسن شحاته : الفلسفة الأخلاقية ، ص ١٣٧ .

(٢) فكرة الأحكام الأساسية ليست بعيدة عن القاعدة العامة التي تحكم الجوانب الخلقية ، لكن المآخذ قد يكون هو المتباعد قليلاً ، أما النتائج فواحدة تقريباً .

(٣) وهذا يخالف الدعاوى التي يعلن عنها المثاليون ، ويسعى للتأكيد عليها جمهرة العقليين الذين يرون في الالتزام بها صوراً قاعدية لا تبعد كثيراً عن الوقائع العملية .

(٤) وهؤلاء اختلفت تعريفاتهم للوجدان حتى اقترب بعضهم من تعريفات الصوفية ، بينما ذهب بعض آخر إلى قريب من اتجاهات علماء السلوك ، وكأن المسألة مازالت في دور الطرح الفكري ، لم تنل الإجماع البحثي .

ليس هذا فحسب، بل يذهبون إلى أن أحكام الوجدان صادقة[١] إذ هي بعيدة عن المعارف التي قد تكون غير صحيحة، كما أن ملامح الفطرية قد تلقى في الوجدان، وتكون آثارها بادية بداخله أكثر من غيره ، إن الوجدان من السمات الخاصة بكل فرد ، ولا يستطيع أحد أن يجبر أحداً على تغيير ملامحه الوجدانية[٢]، ومهما بذل المصلحون في تعديل الاتجاهات الوجدانية ، فلن يكون لجهدهم ذات أثر فعال أو كبير ، فضلاً عن أن تكون له الهيمنة .

ويتمثل هؤلاء الوجدانيون الحاسة الخلقية أصدق تمثيل ، فهم لا يضربون صفحاً عن البيئة أو العقل ، أو الجوانب التأثيرية المختلفة ، إذ يرون أنها جميعاً صاحبة املاءات خاصة ، يمكن التعامل معها[٣] ، لكنها في ذات الوقت غير مقروءة على وجه يقيني ، كما أنها غير قادرة على تحويل الطبيعة الوجدانية عن الطريق الذي اختارته .

وإذا كان الإلزام يمثل قوة عليا ، لها السلطة الكاملة في التعديل والتوجيه ، والأمر والنهي ، فإن مصدره لن يكون سوى الوجدان الذي يملك هذا التأثير في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية[٤] ، كما يملك قدرة التعديل في القرارات التي يتخذها العقل أو يتبناها ، وهو في ذات الوقت يستطيع التخلص من أحكام الجماعة ، ولا يصغي لقرارات البيئة ، يكفي أنه قوة قاهرة توجه الإنسان لتلبية احتياجاته غير المعلنة .

لكن أصحاب هذا الاتجاه تلاقيهم صعوبات عديدة ، تجعل قراءة أفكارهم على ذات الناحية أمراً مهماً ، لأن ما يتعلق بالوجدان من الناحية المعرفية هو الجمال،وليس علم الأخلاق[٥]، فإذا صح أن يكون للوجدان حكم ظاهر، وقرار نافذ ، فإن ذلك يرتبط أشد ما يكون الارتباط بعلم الجمال لا بعلم الأخلاق ، وإلا صح أن يقال، أن علم الأخلاق هو علم الجمال ، وحينئذ تنتهي القواعد العامة الضابطة للعلوم ذات التأثير الصوري .

---

(١) معيار الصدق في أحكام الوجدان لديهم هو عدم قبول هذا الوجدان ، التنازل عن الآراء التي يعتنقها ، والأحكام التي يصدرها ، راجع في ذلك كتابنا : غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ، وكتابنا : لماذا انتشر الإسلام ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) فكرة تغيير الملامح الوجدانية مازالت محل دراسة بين الكثيرين من الدارسين ، نظرا لارتباط ذلك بالضمير من ناحية والخلق من ناحية أخرى .

(٣) يذهب البعض إلى أن الحاسة الخلقية تكون بمثابة الضمير ، ويرى أخرون أنها فوق الضمير بمراحل ، بينما فريق ثالث استقلال الحاسة الخلقية لتكون في مقابلة الحاسة المعرفية .

(٤) علاقة الإلزام بالوجدان تحتاج لدراسة طبيعة كله منهما استقلالا ، ثم بيان أوجه هذه العلاقة من الناحية الأخلاقية والمعرفية أيضا .

(٥) يختلف كل من علم الجمال وعلم الأخلاق في الاسم ، والموضوع ، بجانب المنهج والنتائج ، ثم الغاية ، وليس من الصواب اعتبار أحدهما مكملا للآخر أو بديلا له

وإذا صح أن الوجدانيين أصحاب اتجاه معرفي له سلطة الزام ، فلن يخرج ذلك عن علم الجمال الذي يمارسون فيه مهامهم من فن الشعر والنحت والرسم ، وما يتعلـق بكـل النواحي ذات الطابع الجمالي من الناحية الحسية أو الذوقية ، أو هما معاً[١] ، أما أن ينازع هؤلاء غيرهم في قواعد سبقية حددت موضوعات العلوم ، فإن ذلك لا يمثل طبيعة بحثية ، بقدر ما يعبر عن رغبة في فرض سلطة غير حقيقية .

ج – **الفطريون** : وهم الذين يعتقدون أن مصدر الإلزام الخلقي قائم فـي حيـز الأحكـام الفطرية التي هي حق منحته الطبيعة لكل فرد ، فأنا من داخلي أشعر فطرياً بحاجتي إلـى الالتزام ، بغض النظر عن المترتب عليه ، ليس يعنيني أن يكون التزامي الأخلاقي يحقق مصلحة، أو يدفع مضرة[٢] ،إذ لا واحد منها يمثل ضغطاً على إرادتي ، أو يضيف شـيئاً جديداً إلى ما هو قائم في فطرتي.

ويذهبون إلى أن الفطرة أحكامها ثابتة ، من حيث أنها غير خاضعة للمؤثرات الأخرى فمثلاً يولد الصغير وفي داخله شعور فطري أن يكون واجبياً،وأن يلتزم بكل أحكام الواجب ولا يغفل هذا الشعور تأخذه سنة من النوم[٣] إن العقل لا يعمل إلا في اليقظة ، والوجـدان لا يتحرك إلا عندما تقع له مصادمة لما هو ثابت فيه ، وبالتالي فالعقل والوجدان يمكن أن يقع لكن منهما التهيب ، ويصيبهما التوجس ، ويقع عليهما أيضا السهو والنسيان .

أجل أحكام الفطرة التي تم تزويد الإنسان بها، ذات خصوصية لكنها تمثل نزعة فردية غير أنها لما كانت مشتركة بين الجميع ، فإن المسافة التي تلعب فيها دورها الأساسي مـا تزال ذات طابع عام، إنها الميدان الذي تتلاقي بداخله الفطر كلها ، ومن ثم فـلا تختلـف الفطرة في الإنسان الغربي عن الشرقي ألا أن يكون الأول ذا طبيعـة امتيـاز جنسـي[٤] خاص تتمثل فيها ملامح النقاء ، وتخرج من دائرة قطبها معالم التفوق والذكاء .

---

(١) عملية المزج المقصود بينهما من أكثر الدلائل على تباين أصول كل منهما عن الأخرى ولذلك فإن الجهود الذي بذلت ليكون أحدهما بديلاً عن الأخر لم تحقق النتائج المرجوة .

(٢) لمعرفة هذا الجانب راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ط العاشرة ص ٢٥٧ .

(٣) هذا التصور قد يكون له ما يبرره لديهم ، لكن الواقع ليس لصالحهم ، لأن الفطرة التي يحتكم إليها ، إنما هي الفطرة التي لم تلوث، ولم يقع على صاحبها شئ من الإنكسار العقدي أو النكوص عن الحق ، وهذه الفطرة أيحائية وليست معرفية ، لأن المعرفية محل نزاع بين العقليين والحدسيين بل والحسيين أيضاً .

(٤) وهذا ما يعبر عنه أصحاب النزعة العنصرية التي تتسم بها أفكار الكثيرين من أبناء الغرب ، مع أنهم باعترافهم يقررون القاعدة العامة وأن الناس جميعا في أصلهم واحد ، لكنهم أمام التعصب الجنسي تسقط المعايير ، ولا يكون للقواعد الأساسية سوى الصور الشبحية .

لم يستطع الفطريون إعلان أن الفطرة هي الصورة التي خلق الله تعالى الناس عليها، وأنها التوحيد الخالص لله رب العالمين، بدليل إلحاحهم المتواصل علـــى فكـــرة الطبيعـــة الخالقة ، المانحة ، صاحبة القوة والسلطان[١]. ومن ثم لم تكن مفرداتهم اللغوية قادرة على تنصيب الفطرة المنصب الذي خلقها الله تعالى عليه ، ولا وضعت أمام المهام التي خلقهـــا الله تعالى لها .

صحيح أحكام الفطرة صحيحة ، لكن أي فطرة تلك ، أنها الفطرة التي أقام الله تعالى فيها دلائل معرفته وتوحيده ، وثبت فيها الشعور بما تمليه تلك العقيدة ، ويسر لها أن تقوم بمهام داخل الإنسان ، ذات تأثير فعال ، قال تعالى: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّـــهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " [٢].

ربما غلبت أفهام هؤلاء أفكار ذوي النزعات ، الذين عبروا عنها باســـم الفطـــرة ، لكنهم لم يوفقوا إلى التفرقة بين مفهوم الفطرة وطبيعتها، ومفهوم الوجدان وطبيعته ، وذلك من شأنه تحريك الاتجاهات البحثية من جديد ، وضرورة التركيزعلى فصل المصطلحات عن بعضها، وتحديد المفاهيم بالقدر الذي يفتح الباب للتأمل الدقيق ، وتقديم نتائج محددة .

**د ـــ أصحاب النزعة النفعية :**

وهم الذين يعتقدون أن مصدر الإلزام ، هو القوة الكامنة في النفس الإنسانية ، التـــي تسعى لتحقيق المصلحة وتجنب المفسدة ، أو بعبارة أخرى هي التي تتبنى المواقف شديدة العلاقة بالسعادة في صورتها التحصيلية[٣] بمعنى أن هذا المصدر يتمثل في الوصول إلى دافع المنفعة ، فيتحرك داخل الطبيعة الإنسانية ، وهو لذلك يعتبر مصدر الإلزام .

ويذهبون إلى أن الوقائع الثابتة أو المشاهدات القائمة انتهت كلها إلى أن داخل طبيعة الإنسان قوة تدفعه إلى السعي في تحصيل ما يلذه ، ويتجنب ما يؤلمه[٤] ، حينئذ تتحقق له

---

(١) لمعرفة الفرق بين الفطرة العلمية ، والفطرة الدينية ، والفطرة الأخلاقية ، راجع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تناولت هذه الجوانب ففيها الشرح والتحليل .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) راجع كتابنا : نظرية السعادة في الفكر الإنساني ج ٢ ص ٢٣٥ ، حيث عرضت هناك للفوارق العديدة بين السعادة في صورتها التنظيمية ، وبينت العلاقة بينها وما يجئ في صورتها التحصيلية ، وعلاقتهما بالأخرى المنهجية أو المعرفية .

(٤) وهذا الاتجاه يتبناه الحسيون ، كما يعلق عليه البراجماتيزم أهمية كبرى ، ومن ثم فما زالت الدراسات قائمة حول هذه الاتجاهات البحثية التي يعتقد أن مواصلة البحث بشأنها ستؤدي إلى نتائج على قدر كبير من الأهمية .

السعادة ، ويتحصل معها الخير ، وتبعده عن التعاسة، وتصرف عنه الشر، ومن ثم فهذه القوة هي المنعفة ومصدر الإلزام

صحيح أن الحاسة الخلقية ، هي عبارة عن قوة باطنة يولد الإنسان مزوداً بها ، وهي تميز بطبيعتها بين الخير والشر ، فتغري صاحبها بفعل أولهما ، وتحمله على تجنب ثانيهما ، دون انتظار لجزاء من نفع أو ضر ، لذة أو ألم ، سعادة أو تعاسة[١]، وأن هذه الحاسة تشبه حاسة إدراك الجمال، أو قوة التفكير من حيث أنها متأصلة في طبائع البشر ، ولكنها تضعف بالإهمال وتقوى بالمران ، وتنمو بالتربية الحسنة ، وتذبل في البيئة الفاسدة ومن أجل هذا اختلفت أحكامنا الأخلاقية على النقل الإنساني الواحد ، كما يختلف الناس في أحكامهم الجمالية ، ويتفاوتون في قدرتهم على النظر العقلي المجرد ، إلا أن وظيفتها إدراك خيرية الأفعال من شريتها،وإصدار أحكام تقيم هذه الأفعال[٢] .

أجل كثير من الأخلاقيين قد اعتدوا بالحاسة الخلقية في قوانينها والصور النفعية ، من حيث أن الوجدانيات وإدراك الحكم عليها قد يحتاج مجهودات متواصلة ، وفي النهاية تقدم صوراً نسبية[٣] ، أما الإنسان الذي يحترم نداء الحاسة الخلقية ، فإنه يقف موقف الحكم النزيه على أفعاله وأفعال غيره من الناس[٤] .

يقول هيتش كوك أن النفعية اعتبرت أحد مصادر الإلزام في الفلسفة الخلقية ، مع أن هذا الاتجاه يخالف طبيعة الإرادة الحرة ، صحيح أن فكرة الواجب لدى كانت يمكن استغلالها، لتحويل الإرادة الحرة إلى صورة أعلى وأرقى، لكن ذلك لن يكون ممكنا إلا من خلال جملة مجهودات قد تستغرق أجيالاً بشرية ، وربما لفترات طويلة من الزمان [٥] كما أنه لابد أن يصدر الإلزام عن قوة توجب احترام مبدأ الواجب .

---

(١) الاتجاه إلى العمل الصحيح من غير انتظار للأجر أو الجزاء والثواب ، قد سبق به الصوفية من أهل الإسلام جميع المفكرين ، لأن هؤلاء الأعلام كانوا يعتبرون العلاقة القائمة بين الله والعبد لا يصلح لها أن يكون القائم فيها هو محل الرغبة أو الرهبة ، وكانت رابعة العدوية من أكثر الذين عبروا عن هذا الاتجاه شعراً ونثراً ، سلوكاً وعلماً .

(٢) الدكتور توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ص ١٦٥ ، ط منشأة المعارف بالإسكندرية .

(٣) هذه الصور النسبية التي تقوم بها لا تخرج عن الإطار العام في المصدر الوجداني على الناحية الإلزامية ، ولذلك فالفوارق بينهم مقدرة الوجوه ،

(٤) الدكتور / توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ص ١٦٥ .

(٥) هيتش كوك : الاتجاه الأخلاقي في الفلسفة المعاصرة ص ٧٣ ، ترجمة إيناس عابدين .

غير خاف أن هذه المجموعات الفرعية ، التي خرجت من عباءة المصدر الإلزامي الداخلي ، قد حاول كل طرف بذل قصارى جهده لإقناع الذي يفكر في الوقوف على نتاجهم الفكري ، بأن يتخلى عن هذه الرغبة[١]، ويخالف ذلك الاتجاه، حتى يكون قادراً على مواصلة السير في دروب الفكر الأخلاقي الوعرة ، التي امتلأت جنباتها بالشوك والمتفجرات، وصارت المساحة بينها أرض زلزال ، وأني له في القدرة أو الرغبة على استمرار ممارسة السعي بأقدام حافية، في ظل سيطرة حرارة ملتهبة .

على كل ظهرت اتجاهات متعددة داخل هذا الإطار الذاتي على النحو الذي سلف ، من ثم أمكنني أن أطلق عليها اسم المجموعة النوعية الافتراقية وليس التواصلية،في التعرف على مصدر الإلزام،الذاتي أو الداخلي للإنسان ، وبان أن هذه الاتجاهات لم تتفق فيما بينها[٢]، بل ظهر أنه كلما تقدم المرء مع واحد من هذه الاتجاهات ، قوبل بعاصفة من النقودات والاعتراضات، بل والمناقشات التي تذهب به ، وتأتي عليه من كافة أقطاره .

الثاني : المجموعة الخارجية :

وهؤلاء يذهبون إلى أن مصدر الإلزام الخلقي ، لا يكون من داخل الإنسان أو في ذاته ، لأن هذا الإنسان متقلب المزاج ، عرضة لأن يسقط في الهاوية ، ولا عصمة له في شئ أبداً ، كما أن كل فرد تحصل له أنماط معرفية، وخلقية نسبية[٣]، ومن ثم فلا يقدم سوى أحكام خاصة ، لا تصلح لقيام الإلزام عليها ، بل ولا يمكن اعتبارها مصدراً له .

---

(١) التخلي عن مواصلة هذه الرغبة يعطي انطباعا بأن هذا المفكر أو ذاك يتمتع بقدر من التسامح والذكاء وتفرضه ظروف طلب الحاجة بغض النظر عن طبيعتها وتركيبتها ،

(٢) هذه الاختلافات والتباينات قد تكون طبيعية لحد ما ، ولكنها في ذات الوقت قد تخرج عن الوجه الطبيعي عندما يصل الأمر حد السفه والتجاوزات ، ورمي كل فريق بالنقائص ، وربما امتد ذلك إلى العقيدة والاتهام في الأخلاق ، وهذا مكمن الخطر والخطأ .

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ٢٧١ ، وكتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد لترى فكرة النسبية المعرفية ودورها في الوقوف على الصواب من الخطأ .

ويعتقدون أن مصدر الإلزام لابد أن يكون سن خارج ذات الإنسان ، حتى يكون بمثابة القاعدة التي يجب الالتزام بها ، وتطبيق كل ما يتعلق بها من غير اعتبار لشئ آخر ، لكن ما هو هذا الخارج عن الذات الإنسانية ؟ هل هو القانون البيئي العام ؟ أم القاعدة الاجتماعية ، التي تبسط جناحيها على جميع الأفراد في المجتمع الواحد ، أم سلطة علوية يكون مصدرها نصوص الدين بما لها من قوة تأثيرية،ونشاط واسع ، أم أن هذا المصدر رجال اللاهوت بما لهم من عظات ذات تأثير رائع في النفوس والقلوب ؟ تلك التساؤلات تمثلت فيها مجموعات نوعية أخرى من أبرزها ما يلي :

**أ ـ أصحاب النوعية البيئية :**

وهم الذين يعتقدون أن البيئة تملك سلطة الإلزام الأخلاقي ، من حيث أنها التي تتمثل فيها القوانين العامة[١] ، وإليها يتحاكم الناس ، ومن خلالها يتعايشون في أمورهم الحياتية ولا يمكن أن يخرج المرء بأخلاقه عن هذه القواعد المعمول بها ، ومن ثم يصير مصدر **الإلزام هو البيئة[٢] ، لكن مفهوم البيئة يقع في دائرة الحرارة والرطوبة والماء والهواء[٣] كما يضم كافة العناصر التي تتكون منها البيئة ، فكيف تكون هي المصدر الذي يقوم عليه الإلزام في الأخلاق .**

يذهب هيليون إلى أن المفهوم من البيئة في الدراسات الأخلاقية هو أحكامها لا طبيعتها ، ولما كانت أحكامها ثابتة ، فإنها تصير صالحة لأن تكون مصدر الإلزام ، ما في ذلك أدنى شك[٤] .

ثم أن سلطة البيئة لا يرجع فيها لعناصر البيئة بقدر ما،مهما كان ضئيلاً إذ لا فائدة ترتجى من هذا الطريق ، إنها مجرد معطى معرفي يمكن توظيفه على الناحية الأخلاقية

---

(١) فكرة تمثل القوانين العامة لا يشترط أن يكون المقصود بها ما هو مكتوب ، إذ يمكن التعرف على جملة القوانين من نواح عدة راجع كتابنا : الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) راجع لادوار فيكتور : فكرة الإلزام ص ١٤٥ ، ترجمة أمل المراكبي ، ونادية العطار ، ولتوماس فيزر : القيم والأخلاق ص ٢٤٤ ترجمة إيمان سعيد ، مراجعة خالد فوزي .

(٣) تعددت المفاهيم حول البيئة مفهومها وموضوعها ، أنواعها وأخطارها ، ملوثاتها وسائل حمايتها ، وهناك دراسة علمية تعد في قسم التفسير حول عنوان البيئة في القرآن الكريم يقوم بها الباحث إبراهيم عباس سليمان بأصول الدين اسيوط .

(٤) جورج هيليون : المشكلة الأخلاقية ص ٥٧٧ ، ترجمة ناهد فوزي - مراجعة ايناس فاضل ، وأمل المراكبي .

في سهولة ويسر[١] ، ومن يرفض هذا الاتجاه فكأنما ينطح رأسه في الصخر ، إذ الثابت أن مصدر الإلزام يجب أن يكون من خارج هذا الإنسان الأخلاقي ، ويكون له سلطة تنفيذ ما يأمر به أو ينهى عنه وعمادهم في ذلك أن منابع تكوين الأخلاق تجئ منها البيئة[٢] .

ب ــ أصحاب الاتجاه الاجتماعي :

وهم يرون أن مصدر الإلزام يجب أن يكون هو الجماعة الإنسانية ذات التأثير الفعال في الفرد ، الذي يكتسب مبدأ الواجب من ضميره ، ثم ينمي مظاهر هذا الواجب في داخله عن طريق جملة الأفراد الذين يتعامل معهم ، ويتفاعل بتأثرهم ويؤثر فيهم[٣] ، والقاعدة الجماعية تفرض على الفرد الالتزام بقوانينها حتى وإن لم تكن مكتوبة ، لكنها تتم في إطار التعاملات بشكل دائم .

ويعتقدون أن الجماعة تملك قوة تأثير على الفرد أكبر بكثير مما تقوم به قوى الإنسان الداخلية، وسلطة القانون المدونة في نصوص مسطورة،أما لماذا، فلأن سلطة القانون يملك الفرد مخالفتها، وحينئذ لا يخالف سوى جملة عبارات صاغها ذوو الخبرة بهذا المجال المعرفي[٤] ، أما في الجماعة فإن المرء لا يستطيع مخالفتها لأنها قائمة في سلوكياته منذ طفولته ، إن لم يكن قد امتصها مع اللبن الذي كان غذاؤه الوحيد في شهوره الأولى .

ويستشهدون على ذلك بأن الفرد يعترف بعادات مجتمعه الثابتة ، ويمارسها بطريقة آلية وقد لا يفكر في قوانين بلاده ، وربما ظل طيلة عمره لا يعرف شيئاً عن الدستور الذي يقوم عليه النظام السياسي في ذات البلد[٥] وما ذلك إلا من المظاهر العامة، والأدلة الواقعة على أن مصدر الإلزام الأخلاقي هو القانون الاجتماعي .

بل ربما سعى هؤلاء لاستنطاق الأحداث الجارية في طلب المعارف، وكيفية الوصول إليها ، وكذلك ما يتعلق بالأخلاق ، وطبيعة اكتسابها،ومنابع الأخلاق وطريقة تصنيفها ، حتى انتهوا إلى تضخيم دور الجماعة في نفوس الأفراد ، مهما كانت ظروف هذه الجماعة

---

(١) جورج هيتر : البيئة من منظور فيزيائي ص ١٤٣ ترجمة حنان سعيد .
(٢) راجع منابع الخلق ومصادره في صدر هذا الكتاب أثناء الحديث عن الخلق تعريفه وموضوعه ومصادره ففي ذلك بيان واضح لمن أراد الوقوف عليها .
(٣) الدكتور فوزي فاضل : القواعد الأخلاقية ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وراجع للدكتور أحمد خالد : القيم الخلقية ص ١٥٤ .
(٤) جيمس هنري فودك : المنظومة الأخلاقية ص ٢٣٤ ، ترجمة أمل المراكبي ، مراجعة ياسر رضوان .
(٥) الدستور كلمة فارسية قديمة تعني مجموعة القواعد القانونية التي تحتكم إليها أمة من الأمم ، أو تسير على نهجها الشعوب إذ لكل أمة دستور مادامت هذه الدولة متكاملة الأركان

وطبيعتها[١] فالبدوي يحفظ عادات مجتمعه ويمارسها كراً وفراً ، محافظة على العرض والدم والشرف ، تهون حياته كفرد في سبيل أن تبقى قيم مجتمعه شامخة لا تسقط ، وقوية لا تضعف ، وبناء عليه انتهوا إلى أن مصدر الإلزام الخلقي يجب أن يكون الجماعة الإنسانية بما لها من سلطان في النفوس والعقول . لكن هذا الاتجاه لم يكشف عن طبيعة الجماعة ، التي يمكن أن تكون أحكامها هي المصدر الإلزامي . هل هي الجماعة المتهيئة للحرب باستمرار كالحال مع جماعات الهوتو[٢] ، والقبائل المتحركة في الصحراء التي تعيش على الكر والفر ، أم هي الجماعة التي تعيش على السواحل الأمريكية ، وتمثل جمع من السفاحين والقتلة وتجار الرقيق[٣] ، أم هي الجماعة المتسلحة لعمليات القمع والإرهاب والعنف ، كالتي تعيش في مناطق من الشرق الأقصى ، والأوسط ، والأدنى ؟.

إن فكرة الجماعة غير واضحة المفهوم لدى القائلين باعتبارها مصدر الإلزام ، فكيف يمكن الاعتداد بها ، أو أحكامها وتعاليمها مع أن مفهومها ما يزال حائر لا يعرف لمأواه عنوان[٤] ،ولا لعناصره وموضوعات جيران، بل ولا له ذاتية انتساب من نكران .

أضف إلى ما سبق أن فكرة الجماعة أو الاجتماع لا يمكن الإقرار بها إلا من خلال وجود الأفراد أنفسهم ، وبالتالي فكل فرد من هذه الجماعة يكون صاحب قرار سابق، له وجود واقعي في مصدر الإلزام[٥]، لأن العرف والعادة عبارة عن متروكات تأثيرية قام بها كل فرد حال حياته ، ثم تركها أمانة بين يدي أفراد المجتمع الذي يعيش بداخله ، فإذا مات اعتبرت سلوكياته الخاصة وأفكاره هي مع سلوكيات الآخرين ، وأفكارهم ما يجب أن تسير عليه ذات الجماعة[٦] ، حينئذ يعود الأمر إلى فكرة المصدر الداخلي للإلزام .

---

(١) راجع كتابنا : حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، ص ١٩٧ .

(٢) هي من الجماعات التي لا تستقر في وضع بعينه ، وإنما يتعاملون مع كل حدث بحديثه ومن ثم أحدثوا حركات انقلابية كثيرة كما قاموا بثورات متعددة هددت النظام القائم في حالات كثيرة.

(٣) راجع كتابنا : من وحي البيان في جماعة الشيطان ص ٣ - ١٩ حيث تعرض وجهة النظر وستعرف منها ما تراه غير صحيح .

(٤) لأن الأفكار العنوانية ذات الارتباط الموضوعي تعطي المرء انطباعاً واضحاً ، وتقدم تصورات مقبولة ، وبخاصة إذا كانت العلاقة بين الفكرة والمعنى قائمة على ذات الناحية الموضوعية ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ص ١٣٧ .

(٥) وبهذا التصور تنحل الجماعة كما تبطل فكرة الاعتماد عليها ، بل يتحول الإقرار بوجود سلطان لها هو ذاته وجودها في أفرادها ، وهذا يؤكد طبيعة العلاقة بين الفرد وقدرته على إصدار سلطة إلزامية ، ومن هنا يتلاشى مبدأ الواجب .

(٦) هذا الاستنتاج لا محيد عنه ، لأنه قائم على أصل الفكرة من حيث العنوان والموضوع ولا شيء وراء ذلك .

ج ـ أصحاب اتجاه النصوص الدينية :

وهم يعتقدون أن نصوص الدين وحدها ، هي التي يجب أن تكون مصدر الإلـزام الخلقي ، نظراً لما في هذه النصوص من قوة ، وما تملكه من تأثير ، بجانب ما لها من سلطان على النفوس ، وقدسية متعالية يجب أن تبقى هي المحور الأصـلي ، والموجـه الأساسي في البناء الأخلاقي . يقول هيرز : إن نصوص الدين تملك السيطرة والإثـارة ، وتملك في ذات الوقت إبراز دورها في القيم الإنسانية ، ومن ثم فهي المصدر الأساسـي للقوانين الأخلاقية[١] .

لكن أي نصوص دينية التي يعولون عليها ، أي نصوص الدين الإلهي ، ولا يوجـد منها شئ صحيح الآن إلا القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة المطهرة ، أم نصوص الدين التي تدخلت فيها اتجاهات أصحابها ، وكان لها نوع من الأثر البـارز والسـيطرة الأصلية ، أم هي نصوص الدين العقلي الذي قام عليه أصحابه من الناحية المعرفية دون اعتبار لشئ آخر[٢] .

لقد عبر كانت cant عن هذه النصوص من وجهة نظره ، حيث ذكـر أن تعـاليم الدين المسيحي ونصوصه كأقراص الدواء المر ، إن ابتلعت أفادت وإن مضغت كانـت مرة المذاق[٣] واستطاع هنري فون الإعلان الصريح بأن النصوص التي يعول عليها في الدين غير موجودة ، إلا أنه يقبل نصوص الكتاب المقدس على كره منه ، لأنها لا تستطيع تحقيق الأهداف التي يسعى إليها[٤] فالنصوص التي يعول كل منهما عليها ، هي النصوص التي يحلمها الكتاب المقدس .

غير أن أندريه جيد يقرر صعوبة التصديق بوجود نصوص دينيـة أصـلية ، ويـتهم الكتاب المقدس بالتحريف ، ويعلن أن كافة النصوص الموجودة فيه خاوية من المعـاني ،

---

(١) توماس هيرز : رحلتي مع الأديان ص ١٣٧ ، ترجمة ناظم السعيد ، ط أولى ١٩٩٣م

(٢) الفرق بين المعرفي والقلبي هو ذاته الدليل على وجود فوارق عديدة بين الإيمان والعقل. لأن الإيمان محله القلب ، والعلم محله العقل .

(٣) راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ص ٢٣٥ ، وكتابنا : الجانتينية عقائدها وفلسفتها ص ٢١٥ ط السابعة ،ونفس الفكرة ذكرها توماس هوبز فكأنها قاسم مشترك .

(٤) هنري فون : القيم والدين ص ١٧٣ ترجمة إيناس عابدين ، مراجعة فاطمة النمر ، ففكرة رفض نصوص الكتاب المقدس عنده لا لذاتها - حسب عبارته - وإنما لأنها لا تحقق له جملة الأهداف التي يسعى إليها ، ومن ثم فهو يرفضها جملة وتفصيلا ، كما يتهمها بالقصور الأدائي أو الوظيفي والغائي ، وقد شاركه في هذا الاتجاه العديدون منهم ليو تاكسيل الذي سجل ذلك في كتابه التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ، وكذلك مارتن لوثر وكفاحه ضد الكنيسة الكاثوليكية .

كما لا يمكنها أن تلزم الإنسان بشيء ما ، بل على العكس إنها تدفع للخروج على قاعدة الإلزام الخلقي، لأنها تعلم الإنسان كيفية التخلص من رقابة الدين نفسه، وتسمح له بممارسة الغش والخداع، بما يؤدي إلى إنكار نظرية الاعتراف بالواجب[1] .

وإذا قدر لنا أن نرجع إلى ما سجله ليو تاكسيل حول النصوص الدينية ـ التوراتية ـ نجده يحسم الموقف حين يعلن أنها مجموعة من الأساطير التي تنقل القارئ لها من الواقع الحقيقي بما فيه من آمال وردية ، وأحلام حقيقية ، وتطلعات واقعية ، إلى عالم ملئ بالأساطير والخرافات ، وتبث في قلبه الرعب والخوف، كما تدفعه لممارسة الإرهاب والعنف[2]، ولا تصلح هذه النصوص لأن تكون مصدر الإلزام الأخلاقي .

**د ـ أصحاب اتجاه التعاليم اللاهوتية :**

ذهب البعض ، إلى أن نصوص الدين ليست موضوعة للحكم بها أو عليها إنها نصوص للقراءة ، وتقديم العظات ، فهي لا تمثل صورة إلزام خلقي ، كما لا تعبر عن اتجاه تجريبي عملي ، ولا قانوني[3]، إنها نصوص قرائية تريح النفس بما تحمله من أحلام وما تعبر عنه من أشواق ، بجانب ما يتعلق بها من تنبؤات ، تمهد لحياة أفضل من تلك التي نحياها .

لكن الفكر الذي قام به الآباء حول هذه النصوص يتسم بالموضوعية ، وينقل الإنسان من الدوائر القراءية الصماء إلى أخرى يجري فيها التدريب ، ويلتمس معها الرجاء ، ويتحقق من خلالها الميل إلى المغالبة والرغبة في الانتصار[4]، إن هذا الفكر يمثل للمرء المتدين صمام الدفع القوي والفوري معاً ، وبخاصة أن هؤلاء الآباء بعضهم كان ضحية الالتزام ، لم يتخلوا عنه ، كما لم يحاولوا الخروج عليه[5] .

ويعتقد الكثيرون من الدارسين بأن فكر هؤلاء الآباء له أثر على النفوس ، وبخاصة مواعظ الحاخامات الكبار ، والرهبان الذين افنوا أعمارهم في خدمة الكتاب المقدس ، ومن

---

(١) أندريه جيد : القيم والدين والفلسفة ص ٧١ ، ٧٢ ، ترجمة حسن صالح ، مراجعة صابر خليل طبعة دار الجيل ١٩٧١م .

(٢) راجع ليو تاكسيل : التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ، ترجمة حسان ميخائيل والعنوان كما ترى مليء بالتهيب ، مشحون بالقلق ، فيه الصور المتعددة ، والمواقف المتباينة من العهد القديم بصفة خاصة

(٣) راجع لهولمز بيتر : الكتاب المقدس والحقائق الأساسية ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ترجمة أمل المراكبي ، ط دار الفرسان .

(٤) جورج أنطوان : رجال اللاهوت المقدس ص ٢٣٤ ، ترجمة هاني رجب .

(٥) القس عازر سيدهم : التضحية ص ٤١ ، ٤٢ .

ثم كانت عظاتهم وتعاليمهم هي التي تنقل الإلزام الخلقي من المبدأ الأعلى ، إلى النفوس في العالم السفلي[١] ، وبناء عليه اعتبرت تعاليم الآباء هي مصدر الإلزام الخلقي .

بل كان فيشر يقول كلما قرأت نصوص الدين عجزت عن تفهم حقائقها بما يجعلني أترك الصلاة، وأتردد في زيارة أماكن العباد، فلما سمعت نصائح الآباء، رأيت أنها أفضل مما هو مسجل في الكتاب، إنها أفكار تصلح للاستعمال، كما أن أصحابها الذين تحدثوا بها هم في ذات الوقت قد عبأهم الروح المقدس،فصاروا أطهاراً مثله، أبراراً من كل ناحية[٢].

لقد شغلت جهود رجال اللاهوت العقل فترة من الزمان ، وكادت هذه الجهود تأتي ثمارها ، لولا أن المشكلات لم تتوقف ، والحركات الانفصالية لم تقف عند حد ، وهذا في ذاته كاشف عن طبيعة الدين، ومقدار هيمنته على النفوس، ودور رجاله في السيطرة على القلوب، وكذلك دور رجال اللاهوت في كيفية تحريك الضمائر إلى الاتجاه الذي يريدون[٣] ومن ثم أمكن القول بأن مصدر الإلزام هو الفكر اللاهوتي .

ما من شك في أن الدين نصوص مقدسة ، متى كان على حاله الذي أنزله الله تعالى به[٤] وهو مصدر إلزام في كافة النواحي ، لكن المشكلة تبدو واضحة في الدين الذي لم تسلم نصوصه لدى أصحابها ، كما تظهر في كل ما يتعلق بالفكر اللاهوتي ، وبخاصة إذا ما نظرنا إلى هؤلاء الآباء على أنهم بشر ، وليسوا أنبياء ، ولا ملائكة ، كما أنهم ليسوا بأي حال معصومين[٥]، وبالتالي فأفكارهم لا تعتبر مصدر الإلزام الأخلاقي .

على كل فإن أصحاب الاتجاه الديني بالشكل الذي سلف بيانه،لم يحققوا المعادلة المطلوبة ولم يكشفوا عن الطبيعة التي من خلالها يتم الحكم على الفعل الأخلاقي، أو اعتباره بالنسبة للإلزام والنظر إليه على أنه المصدر الأساسي له[٦]، أما لماذا فلأن الدين الذي تحدثوا عنه قد نقضوه بأنفسهم أو على الأقل سحبوا الاعتراف به بمجرد إعلانهم عنه .

---

(١) جورج انطوان : رجال اللاهوت ص ١٣٧ .

(٢) جورج فيشر : الفلسفة والدين والعلم ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ترجمة م ايناس خضر .

(٣) القس عازر سيدهم : التضحية ص ٤٧ .

(٤) وهذا الشرط لابد معه من صحة المتن ، وصحة السند مع سلامته ، ولن يكون حاملا الغيبيات التي يفضي الناس إليها في الدنيا والآخرة .

(٥) ويعتقد البعض أن هؤلاء الآباء قد امتلأوا من الروح القدس ، ومن ثم فهم معصومون عن الوقوع في الخطأ ، وكل ما يأتي معهم أنما هو صورة حقيقية مرادة من الرب ، ومأمور بها ، والخطأ إنما في تصورها معاص ، وهي ليست كذلك .

(٦) فكرة اعتبار الدين بعيدة تماما عن طبيعة الدين نفسه ، لأن الدين نصوص ، أما الاتجاه الديني فهو صورة الفكر ، وهو يسعى لفهم هذه النصوص ، ومن ثم يمكن أن يقال عليه انه فكر ديني ، لكونه في خدمة النص الديني . راجع كتابنا : أوراق منسية في النصوص الفلسفية ص ٢٧ ، ٢٨ .

كما أنهم يتناقضون مع أنفسهم ، فعلى حين يقـــررون أن نصـــوص الـــدين للعظـــة والاعتبار النظري ، إذا هم مرة أخرى يقررون أنها مصدر الإلزام فكيـــف يـــتم الجمـــع والتوفيق بين الاتجاهين ، إن الإلزام تتمثل فيه قوة ردع ، تملك الإعطاء والمنع[١] وبالتالي تستطيع تنفيذ ما وعدت به ، فإذا لم يكن ذلك ممكنا ، وإنما اكتفي بمجرد المشـــاهدة ، أو القصص الوعظية انتهى دوره ولا يصلح لأن يكون مصدرا للإلزام الأخلاقي .

ثم إن رجال اللاهوت لا يملكون سلطة إصدار أحكام في المجـــال الأخلاقـــي ، لأن دورهم هو تقرير تلك العظات ، وتكرارها على مسامع الذين هم بحاجة إليهـــا ، إذ لـــيس لديهم من السلطان ما يخول لهم إلزام فرد ما من داخله أو خارجه على ممارسة شيء، أو الامتناع عن شيء[٢]،كل ما يملكونه هو السيطرة القلبية الوجدانية ، وما أيسرها وأضعف تأثيرها ، بل وأهون في التخلص منها .

أضف إلى ما سبق أن الإلزام الخلقي لابد أن تظهر فيه صورة القدوة ، لا من الناحية النظرية ، بل من الناحية الأخلاقية حيث يسارع للإقتداء به الجميع ، حتى ينال من الناس المدح بدل القدح ، كما تحصل له السعادة بدل الشقاوة فهو يستطيع ممارسة الخير والشـــر معاً[٣] ، فإذا وقع الجزاء الأخلاقي كان بالخير أو الشر من خلال جملة قواعد انضباطية ، عمادها تنفيذ ما هو قائم في سلطة الإلزام .

وبعيداً عن الصور اللفظية ، والمجادلات الكلامية ، فإن الدين له سلطة إلزامية متى كانت نصوصه مقدسة صحيحة المصدر، مأمونة العواقب ، بعيدة عن العواطف ، ثابتـــة السند، متواترة المتن ، قادرة على استيفاء الحاجيات كلها شاملة لأمور الدنيا والآخـــرة ، دافعة للأخلاق الفاضلة ، كاشفة عن أوجه الامتياز التي تختص بها وحـــدها[٤] ، وأعنـــي بذلك كله الدين الإلهي المنزل من الله تعالى .

---

(١) وهذا تعبر عنه التعاريف العديدة للإلزام من الناحية الاصطلاحية ، فهو في الأصل رادع ومانع لأنه قوة موجهة .

(٢) وقد أحس بهذه الإشكالية جورج أنطوان حيث قال أن هناك صعوبات عديدة تواجه أصحاب المهام العالية ، وهم يحاولون التغلب عليها ، لكنها تحتاج جهودا كثيرة ، وفترة زمنية طويلة . راجع رجال اللاهوت ص ٢٤٧ .

(٣) راجع كتابنا: تأملات غزالية في القضايا الكلامية ، أثناء الحديث عن قضية الحسن والقبح .

(٤) **راجع كتابنا : حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان ص ٢٥٧ ، وكتابنا : اليهودية من السماء إلى الأرض ، وكتابنا : أثر الوثنية في اليهودية .**

**ثالثاً : موقفنا من المسألة :**

ليس لدي أدنى شك في أن الإلزام قضية شغلت الأخلاقيين ، كما شغلت غيرهم بدرجات وقع فيها التفاوت ، وبرز خلالها التباين ، وإن كل فريق استهدف التناول من الجانب الذي راق له ، بدليل أن " هنري برجسون " في تحليله العميق لفضيلة الإلزام الأخلاقي استطاع أن يكشف له عن مصدرين : أحدهما قوة الضغط الاجتماعي ، والآخر قوة الجذب ذي الرحابة الإنسانية المستمدة من العون الإلهي ، وهي قوة أوسع مدى من سابقتها[١].

وقد افترق بوانكاريه عن رأي مواطنه في مصدر الإلزام ذاته ، حيث انتهى إلى قيامه على المنفعة الذاتية ، أو على الأقل ما يصون ذاته ، كما يدفع للمحافظة عليها بعيداً عن المجموعة التي ينتمي إليها ، حتى لو كان في هذه المحافظة قفز فوق إمكانيات ذات الجماعة ، وأعلى من حساباتها ، أو فوق حساباتها[٢] ، ألا يدل هذا التباين على أن مشكلة المصدر في الإلزام الأخلاقي مازالت مطروحة للبحث، وأن مائدة المفاوضات بشأنها لم ترفع ، ومادمت قد حددت لنفسي موقعاً ، فقد صار من الواجب عرض مصادر الإلزام الأخلاقي من وجهة نظري ، سائلاً الله تعالى التوفيق والسداد ، وسيكون ذلك على النحو التالي :

**الأول : النقل المنزل ( النور الإلهي ) :**

كل العقول غارقة في أحوال غيرها ، ومع هذا فهي لا تلتفت إلى الأوحال التي تغوص فيها ، وتوشك أن تتلاشى بداخلها ، لكن هذه العقول خلقها الله تعالى قابلة للنور الإلهي ، عن طريق النور الفطري[٣] الذي يغطي مرحلة من حياة الإنسان ، حتى إذا شب وصار قادراً على تحمل ما جاء في هذا النور الإلهي المتمثل في نصوص الوحي جاءه بعد طول انتظار ، ومن غير معاناه .

إن النور الإلهي الذي يعبر عنه نور الوحي ، هو وحده الذي يمكن أن يحل محل النور الفطري ويغطيه ، ذلك أن الشرع الإلهي هو العمل الإيجابي وهو الذي يجب أن يستمر ويكمل الشرع الأخلاقي الفطري ، وفي القرآن الكريم يسير العقل والنقل جنباً إلى

---

(١) الدكتور / محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ج ٢٣ .
(٢) راجع للدكتور / ناصر السيد : الفلسفة الخلقية ص ١٤١ .
(٣) النور الفطري هذا الاستعداد الموجود في القلب منذ الخلقة ، أما النور الإلهي فهو الوحي الذي يجئ من الله تعالى في مرحلة لاحقة .

جنب ، وهو ما يفهم من قوله تعالي : "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ"(١) وفي قلب المؤمن يستقر نوران ، على حين لا يجد الملحد سوى نور واحد .

وهذا هو معنى النور المزدوج في قوله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(٢) وهما مستويان لمصدر واحد، النقل والعقل (٣).

يمكن أن نطلق على هذا المصدر نداء الوحي الإلهي،باعتبار أن الوحي هو الذي يجئ بهذا النقل، وعن طريقه تم، لكن البعض قد يتصور أن نداء الوحي هو ذاته الفطرة، أو أن الوحي هو الإلهام الداخلي(٤) الذي يجري العديد من الحوارات داخل النفس الإنسانية ومن ثم لزم وصف هذا الوحي بالإلهي ، واستعمال لفظ نداء معه،ليكون الدليل على أن المراد بالوحي الإلهي هنا، تعاليم الله تعالى التي جاءت على ألسنة رسله، ثابتة في الكتب المنزلة.

والنقل المنزل هو القرآن الكريم ، كلام الله ذاته ، المستوفي أوجه التعبير عن الإرادة الإلهية، ويحمل ــ بجانب ما يحمل ــ صور التكليف الأخلاقي المباشر والواقعي ، وهو صاحب الحق المقدس في إصدار الأحكام جميعها ، وبالتالي فهو مصدر الإلزام الأخلاقي الذي لا مثيل له ، ولا يمكن أن تكون هناك سلطة أخرى تقترب منه .

والقرآن الكريم قرر ذلك في آياته ، منها قوله تعالى : " وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"(٥) كما أن النقل المنزل قد يعبر عن جزئه بالسنة النبوية المطهرة الصحيحة ،

---

(١) سورة الملك الآية ١٠ .

(٢) سورة النور الآية ٣٥ .

(٣) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص ٣٤ .

(٤) وقد يسمى الحدسي حتى أن البعض يجعل لهذا الحدسي أثرا فعال في كل ما يعرض له ، بل ظهرت المدارس النفسية حيث تحدث عن هذا الحدسوأثره في العمليات الشعورية واللاشعورية أيضا ، وبعضهم جعل فكرة الحدسي تتنامي ، بل وتتمدد داخل الدراسات السلوكية حيث رتبوا عليه أحكاما كثيرة ، وفي الأونة الأخيرة كثر الكلام حول الحدس على أنه نوع جديد من الحواس الداخلية ذات التأثير الفعال في اكتساب المعارف ، وقد تفرع عن هذا الاتجاه العديد من المباحث ، كما أن الصوفية وقفوا من فكرة الحدس موقفا يتفق مع اتجاهاتهم حتى انتهوا إلى ضرورة اعتباره عاملاً مهما من مصادر المعرفة الصوفية ، راجع كتابنا الموسوعة الغزالية في الأفكار الصوفية ج ٢ ص ٤١٥ وما بعدها ، وكتابنا: غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ص ٩٧ ، وكتابنا: محاضرات في الفلسفة العامة ص ٢٣٤.

(٥) سورة الأنعام الآية ٣٨ .

من حيث تعرف بأنها كل ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة حقيقة أو حكماً ، أو كان خصوصية من خصوصيات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لا تقع له المشاركه فيها من أحد أبداً.(١)

وهذه السنة المطهرة الصحيحة تلي القرآن الكريم في المرتبة ، ولذا فهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم مباشرة(٢)وكل منهما هو كلمة الله ، ويعبر عن إرادة الله ، ومن هنا فالسنة مصدر إلزام أخلاقي .

صحيح أن القرآن الكريم نزل بلفظه ومعناه على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن جبريل الأمين ملك الوحي تلقاه عن الله نقلاً ، ثم نقله جبريل الأمين إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات اللفظ والمعنى ، ثم نقله الرسول صلوات الله عليه إلى كتبة الوحي ، على الصورة التي جاءه بها ملك الوحي ، وتمت المراجعة من الطرفين على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وأن المسلمين مازالوا ينقلونه بذات الكيفية التي نزل بها ، وأن الله تعالى حفظه من كافة صور التحريف والتبديل التي نالت غيره(٣) لقوله تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(٤) . ويلي ذلك القدر من التأكيد أن السنة المطهرة الصحيحة قد نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم المعصوم بعصمة الله له ، لكن هذا النزول بالمعنى الذي عبرت عنه المفردات اللغوية ،التي كان ينطقها الله تعالى لسان رسول الله الكريم ، فكانت السنة وحياً أيضاً ، ومعصوماً بعصمة الله ، لسان رسوله وقلبه معاً ، قال تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى"(٥).

وقال تعالى : "مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ".(٦)

---

(١) راجع كتابنا : الدرة النيرة في الدفاع عن السنة المطهرة ج ٢ ص ١٥٧ .

(٢) المراد بالبعدية هنا بعدية الترتيب في الأدلة لا بعدية التنزيل ، أو بعدية الأهمية ، لأنهما معا من عند الله تعالى جاءا .

(٣) الكتب السابقة نالها التحريف لأنها وضعت للحفظ بطريقة أصحابها الذين انزلت إليهم ، إلا أنهم فرطوا في هذه المهام كلها ، قال تعالى : "بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولأتم نعمتي عليكم ".

(٤) سورة الحجر الآية ٩ .

(٥) سورة النجم الآيتان ٣ ، ٤ .

(٦) سورة الحشر الآية ٧ .

وما دمنا قد انتهينا من هذه المقدمة الصحيحة ، فقد وجب التسليم بأن النقل المنزل هو مصدر الإلزام الأخلاقي الأول، كما هو مصدر كل ما يتعلق بالدين والدنيا ، بل وما هو من أخبار الآخرة ، يقول الدكتور دراز : والقرآن نفسه قد طلب إلى المؤمنين ، أن ينقادوا دون حرج ، لجميع أوامر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، متى أخذوا أنفسهم بالإيمان به ، من ذلك قوله تعالى : " فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا " .(١)

ومنها قوله تعالى : " مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا " (٢) .وقوله تعالى : "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ".(٣) .

وقوله تعالى:"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "(٤) .

ثم يواصل الدكتور دراز قائلاً : غير أننا إذا ما نظرنا إلى حقيقة الأمر نجد أن جميع الأوامر النبوية لا تفرض تكليفاً نهائياً ، مهما يكن شأنه شرعياً أو دينياً ، إلا بقدر، وبشرط ،أن ترتدي الفكرة التي يشتمل عليها صفة الوحي صراحة أو ضمناً(٥) فإذا عدمت هذه الصفة الإلهية لم يعد للدرس أو المثال الذي قاله الإنسان سلطان على أحد ، وقد وردت هذه التفرقة مشاراً إليها في النص القرآني(٦) من خلال قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ".(٧)

وينتهي الدكتور دراز إلى القول بأن كل حديث لم يرد ما ينسخه ، وكان موضوعه جزءاً من رسالة النبي ، بحيث أصبح في نهاية الأمر تعبيراً عن الإرادة الإلهية ، هذا الحديث له في المسلمين نفس السلطة الأخلاقية التي للنص القرآني(٨)، ولو أشتمل الحديث

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ . (٢) سورة النساء الآية ٨٠ .
(٣) سورة الحشر الآية ٧ . (٤) سورة النور الآية ٥٦ .
(٥) هذه الإشارة الصريحة أو الضمنية هي التي تتعلق بشواهد من القرآن الكريم تؤيد نصوص السنة الواردة في ذات الشأن أو الواقعة .
(٦) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص ٣٨ .
(٧) سورة الأنفال الآية ٢٤ .
(٨) وهذه السلطة تخول له ممارسة الحقوق في كل من النظام الأخلاقي والتشريعي والمبادئ العامة وما يتعلق بالرسالة الإلهية على وجه العموم والخصوص دون استثناء ، لأن السنة الصحيحة هي الصورة المطابقة للكتاب الكريم ، راجع في هذا الشأن كتابنا الدرة النيرة في الدفاع عن السنة المطهرة ج ١ ص ٢٧٧ .

علاوة على ذلك تفصيلات وتحديدات ، أكثر ما أشتمل عليه النص القرآني ، فـإن هـذا الحديث هو الذي يحكم النص القرآني، فهو يفسره ويحدد أهميته ، ويبين نماذج تطبيقـه[١] وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه يقول : إن السنة تفسر القرآن وتبينـه ، ومن هنا صح القول بأن السنة المطهرة مصدر الإلزام الأخلاقي .

لقد رأينا من الناحية النظرية أن النقل المنزل، هو المصدر الأول للإلزام الأخلاقي ، لكن هذا يحتاج إبرازا لجانب التطبيق ، بحيث تكون النصوص النقلية هي صاحبة السلطة الإلزامية بقاعدتها العامة ، وتطبيقاتها المثالية[٢] ، ومن ثم فسأحاول تقديم بعض الصـور التي تتعلق بهذا الجانب منها :

١ ــ بيان أن الله تعالى الخالق القادر لا يغيب عن علمه شيء ، وأنه يعلم السـر بـنفس المقدار الذي يعلم به الجهر ، بل لا سر عنده ولا جهر ، إنه خالقهما جميعاً، قال تعـالى:" سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى. إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى"[٣]، فمن يعلم السر والعلـن ، الجهر والخفاء ، هو ذاته الذي يعلم ما يجهر به أو يسر ، وهذا يمثل سلطة مراقبة لأفعال الإنسان ، بحيث تبرز هذه السلطة في صيغة آمرة ناهية، قادرة على إنفاذ ما تريد ، وهو معنى الإلزام .

وهذه الصورة تكررت ملامحها في آيات القرآن الكريم كثيراً من ذلك قوله تعالى : " وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ"[٤] ، إذ في الآية إعلان صريح عن امتـداد سلطة الخالق العظيم جل علاه، لا لمجرد السر والعلن فقط ، وإنمـا علـى داخـل هـذه الصدور ذات الاتجاهات الفردية فيخلخل طبيعتها ، ويمتد سلطانه إلى ذات المكنون داخل هذه الضمائر، حتى أنه ليكون واضحاً أما العلم الإلهي ، نفس وضوحه لدى صاحبه ، بل في العلم الإلهي أشد وضوحاً ، ومن ثم تتم المسئولية عليه ، وتقع المحاسبة بشأنه ، وهو ما يؤكد سلطة الوحي في إصدار الإلزام الخلقي .

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص ٤١ .
(٢) مثالية التطبيق قائمة من حيث أن النظام يستلزم الحالات الجماعية في صورها المتنامية والفردية في الجوانب المتعلقة بطبيعة المسئولية من مثل قوله تعالى : " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" سورة المدثر الآية ٣٨
(٣) سورة الأعلى الأيتان ٦ ، ٧
(٤) سورة النمل الآية ٧٤

قال العلامة الفخر الرازي : بين سبحانه وتعالى أنه مطلع على ما في القلوب ، وقدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم ، والسبب في ذلك أن ما تكنه صدورهم هـو الدواعي والقصود ، وهي أسباب لما يعلنون ، وهي أفعال الجوارح ، والعلم بالعلة علـة للعلم بالمعلول ، فهذا السبب في ذلك التقديم .[1]

٢ ـ إبراز سلطة المراقبة لله تعالى ، وأنه مهما كان العبد في خلوة ، فإنها خلوة صورية، واقعة من حيث الحقيقة في نطاق المراقبة الإلهية ، حيث تتم عملية الرصد والسجيل عليه من خلال الملائكة المكرمين ، الذين يقومون بأعمالهم التكليفية على أدق الوجوه وأتمها ، قال تعالى: "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ"[2].

وحتى لا يظن ظان أن عملية المراقبة والرصد وقتية ، جاء النقل المنزل قاطعاً هذا الوهم من أصله، حين بين أنها عملية لا تقف عند حد، ولا يجوز أن تكون لها نهاية، وإنما هي صورة امتدادية واقعة من جهة رب البرية ، فقال تعالى : " إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ".[3]

قال الشيخ البروسوي: شبه تعالى حاله جل شأنه في كونه حفيظـاً لأعمـال العبـاد مجازياً عليها، على النقير والقطمير ، بحال من قعد على طريق السابلة يترصدهم ليظفـر بالجاني ، أو لأخذ المكس أو نحو ذلك ، ولا مخلص لهم من العبور إلى ذلك الطريق[4] ، وهذا من شأنه تثبيت القلوب والعقول على واجهة واحدة ، هي التي تقـع مـن ناحيتهـا عمليتا الترصد والمراقبة ، ألا وهي جهة الخالق العظيم جل علاه ، بما يؤكد أنـه وحـده مصدر الإلزام الأخلاقي ومن نصوص الدين الإلهي يتم الإلزام على كافة النواحي .

ودلت آيات الذكر الحكيم على أن عملية المراقبة والرصد محاطة بظاهرة تسجيلية تأخذ شكلين أحدهما : الصور الاستنساخية للأعمال ، بل والأقوال والنوايا من كافة النـواحي ، بحيث تبرز أمام المرء كأنها هو بحيث يتأمل أحواله بنفسه ، كما يتعرف كافـة المنـاحي بذاته ، قال تعالى : " هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "[5].

ثانيهما : التسجيل الوثائقي الكتابي الذي يعني بالفعل، والأثر الناتج عنـه والمترتـب عليه، بحيث يتحول الفرد من ذاته إلى ذاته، ويعكس صورة ضميره على وجدانه ، ويجعل

---

(١) الإمام الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ـ المجلد الثاني عشر، الجزء الثالث والعشرون ص ٢٣٤ .
(٢) سورة الانفطار الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة الفجر الآية ١٤ .
(٤) العلامة الشيخ إسماعيل حقي البروسوي : تنوير الأذهان المجلد الرابع ص ٥٤٥ .
(٥) سورة الجاثية الآية ٢٩ .

من نفسه موضوعاً للمراقبة ، وذاتاً مراقبة في وقت واحد ، يدل على ذلك قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ"(١).

يا لها من روعة ما بعدها روعة ، حين يقف المرء مع نفسه مراجعاً حساباتها ، مكرراً معها المواقف التي مرت بها ، ناظراً إليها من زواياها الرقابية المختلفة ، واضعاً نصب عينيه ، أنه يحاكم ذاته إلى ضميره ، ويقاضي ضميره أما سلطة عليا ، قادرة على الإلزام بما تأمر به أو تنهي عنه ، قادرة على إنفاذ ما تريده ، وتوقيع الجزاء المناسب من غير حيف أو جور ، لا مكان هناك للمجاملة ، ولا حيلة في المدافعة ، إنها جميعاً واقعة في نطاق قوله تعالى : "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ "(٢) .

أجل إن النقل المنزل " القرآن والسنة " هو مصدر الإلزام الأخلاقي الأصلي ، ثم يأتي بعده كل من القياس والإجماع ، كمصادر تبعية ورغم أنهما من الأعمال العقلية في إعمال النقل المنزل(٣)، إلا أن لهما دورهما في الأحكام الشرعية ، لما هو معروف من أن مصادر الشريعة الإلهية ستة هي القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، بجانب الإجماع والقياس ، ثم الاستحسان أو الاستصحاب ، وأخيراً تأتي المصالح المرسلة .

ودور كل من الإجماع والقياس تبعي للقاعدة الأصلية الواردة بظاهرها في القرآن الكريم ، من حيث النصوص الصريحة أو الضمنية (٤)، ثم يأتي الإجماع على الجانب العلمي التكليفي ، أو الجانب العقلي الترتيبي، بحيث يكون إجماع متمثلاً في نتائج أعلى رأي من الآراء التي قامت على أصول شرعية(٥) ومن ثم يكون له سلطة الإلزام الأخلاقي

---

(١) سورة يس الآية ١٢ . (٢) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٣) فكرة اعمال العقول في فهم النقل تمثل جهود الكثيرين من علماء الشريعة وبخاصة الفقهاء ، كما يأتي معهم كل من المحدثين والمفسرين والصوفية وعلماء العقيدة وما يمكن أن يطلق عليه اسم الفكر الإسلامي ، لأن قاعدة إعمال الفكر هي التي قد ترتب عليها وجود هذه العلوم الإسلامية التي تسعى كلها لخدمة النقل المنزل ، ورغم أنها علوم خدمية ، إلا أن استقلالها عن بعضها في الأسماء والموضوعات والمناهج ، والغايات جعلها أيضا تعطي انطباعا واضحا بطبيعة الفكر الإسلامي ، وواجبات المفكر المسلم ، حتى أمكن القول بأن العلوم الشرعية يمكن أن يكون كل واحد منها مصدرا للإلزام الأخلاقي على الناحية التبعية التي استطاع استمدادها من الأصل والأساس ، وأعني به النقل المنزل .

(٤) راجع في الصريح والضمني كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ص ٣٩٧ ، وكتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ٢٤١ .

(٥) راجع للعلامة ابن حزم : الأحكام في أصول الأحكام أثناء الحديث عن الإجماع ، وللإمام الأمدي : الأحكام في الأحكام عند ذات الفكرة ، وللإمام الغزالي : المستصفي عند الحديث عن مصادر الشريعة .

وكذلك الحال في القياس الذي هو إلحاق فرع بأصل في حكم ثابت لذلك الأصل[١]، وبالتالي يكون له الحق في إصدار أحكام لها حجية واضحة وسلطة قائمة، ويأتي بعد النقل المنزل وما يتبعه كل من النور الفطري،والنور القلبي العقلي، وهاك صورة تقريرية لهما.

**الثاني : الفطرة السليمة "النور الفطري" :**

دلت آيات الذكر الحكيم على أن النفس الإنسانية قد خلقها الله تعالى ، وهي ذات استعداد تلقائي لقبول الخير والعمل بمقتضاه ، والتماس الواجب والتزام أحكامه ، وأن هذه الاستعدادات النفسية يمكن أن تسمى البصيرة الفطرية ، يدل عليه قوله تعالى:" بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ"[٢] ما أروع هذا التعبير الغائي القائم على الإيجاز والإعجاز ، حين يصور هذا الاستعداد بالراصد الواعي ، والقائد الأمين ، الذي يدرك الخطر فينصرف عنه[٣] ، ويبصر حدة العاصفة فينحني لها ، ولا يثبت أمامها .

بل ما أعظم هذا الجمال في الخلق الذي سواه الخالق العظيم ، حيث يأخذ الإنسان العاقل إلى ذاته أخذاً هادئاً ليناً ، ويدفعه إلى تأمل المواقف الصعبة في ثقة معها طمأنينة ، ثم يقلب ناظريه إلى أنماط الوجود من غير مران ولا تقييد[٤] فيجعله يشرف من عالم النفس الخفي ، على عالم الجسم المادي المرئي ، ويعطي هذا المراقب الداخلي سلطان التوجيه والإرشاد ، بعد أن يمنحه شارة القيادة ، وسلم العمادة . من منهما هو البصير على الآخر ، أهو الإنسان، أو هي النفس، إن المسئولية متحدة الأطراف، متكافئة الأهداف متساوية المباني ، عميقة المعاني ، بعيدة الأغوار[٥] ، لكنها في كل الحالات ماثلة من

---

(١) القياس أنواع منه الأصولي ومنه المنطقي ، ومنه القانوني ، ومنه الأخلاقي ، ومنه الصوفي ، ومنه السلوكي ومنه التجريبي ، ومن ثم يحتاج دراسة مستقلة .

(٢) سورة القيامة الآية ١٤ .

(٣) وقد دل القرآن الكريم على أن النملة التي خاطبت قومها وحذرتهم من سليمان وجنوده وانتزعت البسمة من شفتيه كانت قائدة أمينة، وراعية واقعية، وحكى القرآن الكريم قصتها ، قال تعالى: " حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ " سورة النمل الأيتان ١٨ ، ١٩ .

(٤) لأن الله تعالى لا يكلف العقول بما لا تطيقه أو لا تستوعبه ، وإنما كلفها بالتالي فيما تطيقه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا .

(٥) يدل على ذلك ورود آيات قرآنية تتحدث عن الإنسان وحده كقوله تعالى : " أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى " سورة القيامة ٣٦ ، وأخرى تتحدث عن النفس وحدها لقوله تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " سورة الشمس الأيتان ٧ ، ٨ .

طريقها، كأن كل واحد منهما ـــ الإنسان والنفس ـــ يراقب الآخر من زاوية خاصة ، وهو ما يعرف بسلطة الضمير ، الذي نما داخل إطار مغلف بالمودة والرحمة وسياج من الألفة بجانب التقدير والاحترام .[١]

هذا النور الفطري يستطيع إلجام القوى ، وكبح جماح الغرائز ، كما يتمكن من إبراز وجوه القصور ودواعي النقصان ، بل أنه كثيراً ما استطاع توظيف بعض القوى النقليـة لصالح البعض الآخر ، حتى تكون عوامل نجدة ونصرة ، بدل أن كانت وسائل تعنيه[٢] ؛ وسبل هزائم ، إن هذا النور الفطري يتمثل اصدق تمثيل في النقل المنزل، حين يسـتعمل اسم المكان الذي يبزغ فيه هذا النور الفطري ، ويكشف من سلطته في الإلــزام ، حتــى استوفى الأركان ، وصار تام الوجوه .

هذا النور الفطري أطلق عليه النقل المنزل اسم الحلم[٣] ، وبين أن هذا الحلم ينضـج في الإنسان حتى يكون قادراً على التوجيه والإرشاد ، والنصح والوعظ ، قال تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَـوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[٤] .

فإذا نضج هذا الحلم في داخل الإنسان،صارت له مسئولية أخرى ، تضاف إلى الأعباء السالفة،إنها أعباء القائد الذي يملك الأمر والنهي ،وإذا أمر فيجـب أن تطـاع،وإذا نهـى فالواجب الالتزام، وقد جاء ذلك كله في معرض المسئولية والجزاء، قال تعالى:" أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ "[٥]

---

(١) فالذي يحدث الفرقة بين القوى الداخلية والخارجية في الإنسان ، إنما هو ذلك الإنسان ، لأن الله تعالى خلقها على التعاون والتآزر ، لكن الإنسان هو الذي يسعى لنصرة غرائزه وشهواته ، من خلال حماقته واندفاعه حتى تكون لها السيطرة على قوة الردع الداخلية فيه ، حيث لا يسمع لنصح ناصح ، ولا يقبل وعظ واعظ .

(٢) وكلما برزت وسائل التعني وبذل المجهود ، سقط ذلك الإنسان صريع الأعباء التي تبلغ بـه حد الإعياء ، فكيف يتخلص منها وهو الذي أدخل نفسه فيها ، وحكم على ذاته بأن تكون مغلة بقيودها .

(٣) وردت مادة الكلمة في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة ، راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، باب الحاء ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٤) سورة النور الأيتان ٥٨ ، ٥٩ .

(٥) سورة الطور الأية ٣٢ .

هذا النور الفطري ـ الحلم ـ له سيطرة واسعة على القوى المختلفة في الإنسان ، ومن ثم فإنه يملك سلطة الإلزام الأخلاقي حتى ليعد مصدراً هاماً من المصادر الإلزامية الأخلاقية .

صحيح أن هذا النور الفطري متى نضج ، استطاع التوجيه ، وتمكن من فرض سيطرته على الجميع، لكن ذلك مرتبط بعناصر فعالة ، لابد من وجودها بجانبه حتى تمثل المعونة الجادة، وتجئ من جهتها المعاونة الصادقة وهذه المعاونة مصادرها متعددة [١]، منها العقل النوراني في أغلب الأحوال ، والاستماع الجيد ، مع الإنصات الهادف للشعور اليقظ ، والضمير الواعي ، بجانب الالتفات إلى التوجيه الرباني من حيث تدعيم الروابط الإنسانية ، وتقوية الجوانب الاجتماعية ، يدل على ذلك قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " [٢] .

وقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [٣] .

إن النور الفطري يعين الإنسان على إبراز دور الشريعة في تقويم الأخلاق ، وتنظيم العادات، وضبط المجتمعات ، ويبين في نفس الوقت قدرته على فرض أوامره ، إنه يخاطب الضمير فيستجيب له ، ويناجي الفؤاد فيتجاوب معه[٤] ، ثم يتواعد مع القلب فلا يخلفان موعداً ، وفوق ذلك فإن الإنسان الذي استوى لديه هذا النور الفطري ، يكون مالكاً جميع الوسائل الضرورية ، والعقلية بل والعاطفية ، كما ما يميز بين ما يفعل وما يدع ، بحيث يمكن القول بأن التشريع للخير والشر ، إنما هو نابع من داخلنا ، ويمثل شأناً من شئوننا الذاتية .[٥]

---

(١) تعدد مصادر المعاونة فيه صور إرشادية، بأن الناس ما خلقوا إلا للتعاون ، والتآزر والتآلف ، لأن الفرد الواحد تقع فيه هذه العمليات جميعها ، وهو صورة مصغرة للمجتمع كله ، ولذا جاء الحديث الشريف بهذا التشبيه الرائع في قوله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى "

(٢) سورة النساء الآية ١ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٤) هذه المسألة يشعر بها كل من بلغ درجة معرفية حيث يخلص إلى نفسه ، ويسعى لمراجعة سيرته الذاتية من خلال نشاطه اليومي وحده .

(٥) راجع هذه المسألة في كتابنا : القضاء والقدر ، حيث بينت هناك كيفية قيام الإنسان بإسباغ بعض الصفات على الأفعال التي يمارسها ، من غير استناد لشيء آخر وراء ذاته ، وما يجري في ملكاته وقدراته .

قد يظن ظان أن هذا النور الفطري هو الضمير، ولكـن ذلـك بعيـد ، والعلاقـة الصورية بينهما ليست حاكمة بأنهما شئ واحد ، وقد يظن أيضاً أنه العقل ، ولكـن هـذا الظن لا تعضده شواهد، بحيث يمكن الاعتماد عليها من غير أن تتناولها أوجه القصور[١]، إذ المسألة في كل الحالات واقعة في نطاق الاحتمال الذي نشأت عنه أحكام ظنية ، وليس على جهة القطع التي تقوم عليها أحكام يقينية .

إن الفرد العادي من بني الإنسان إذا خلت له نفسه ، وترك لها حرية الانطـلاق ، يجد داخله جملة من العواطف ، وكتلة من الانفعالات ، وكثرة من الوجدانيـات ، وكلهـا ليست على نسق واحد ، كما لا تؤدي صـورة واحدة [٢] ومع هذا فهي غير منظمة، ولا مرتبة ترتيباً ديناميكياً، أو آلياً ، إنها لا تفاجئ الإنسان وتجيئه من غير حسـبان، وتقفـز على عقله ، وتقتحم خصوصياته بلا استئذان ، ألا يدل ذلك كله على أن هذا النور الفطري يملك سلطة تأثيرية ، كما يستطيع فرض إرادة حديدية ، على الجوانب الإنسانية ، ومن ثم يصير أحد مصادر الإلزام الأخلاقي .

أجل إن النور الفطري يقبل التعديل في الأداء السلوكي ، كما يقبل التغيير في المحتوى المعرفي ، وكذلك لا يمانع في قبول الإضافة والحذف ، ومن ثم كانت مرونته هي التـي أعطته سهولة في التعامل ويسراً في الحركة ، وسعة من ناحية الأداء ، كما سمحت لـه بإبراز الجوانب الخلفية والخفية من النفس الإنسانية ، ذات التأثير الإيجابي في الجوانـب الأخلاقية وهو ما يمكن تفسيره من الناحية العلمية بأنه صورة من الصور المصدرية التي يجئ فيها الإلزام الأخلاقي ، ويبدو النور الفطري كواحد من هذه المصادر التبعية ، طبقاً لما أكدته النصوص النقلية .

**الثالث : النور العقلي :**

العقل حجة الله على عباده ، ومناط فرض التكليف ، وهو الجوهرة المخاطبـة فـي كثير من آيات القرآن الكريم ، ثم هو في ذات الوقت الجوهر المتنامي ، الذي منحـه الله القدرة على تعرف ما يحيط به من الأشياء ، وتوظيف ما يمكن توظيفـه فـي الجوانـب المختلفة ، وبالاعتبارات المختلفة ، في نفس الوقت فإن العقل يملك زمام المبـادرة فـي

---

(١) والفوارق اللغوية من أبرز الشواهد على أن كلاً منهما يخالف الآخر على الجوانب المختلفة .
(٢) بدليل أن عاطفة الحب غير انفعال القلب ، وهما معاً يغايران وجدان العطف والحنو ، وبالتالي فالآثار الناشئة عن كل واحد منهما مختلفة تماما عن الأخرى .

جميع المعضلات،ويحمل عصا القهر للهواجس،وسيف البتر للغرائز والشهوات[١]. ومن ثم كانت له سلطة واسعة النطاق، يجري معها الإلزام الأخلاقي داخل أحد ميادينها الأساسية .

لكن العقل الذي نستهدفه إنما هو القائم على نور الوحي الإلهي،المستمد معارفه الأساسية من مشكاة النبوة ، دون أن يتبرم بها ، أو يطغى عليها ، أو يسعى للانفصال عنها ، ولذا وردت بعض آيات القرآن الكريم جامعة بين النقل والعقل من ذلك قوله تعالى : " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ "[٢] .

إذ المراد لو كنا نسمع ما يجئ به خبر الوحي ، من تعاليم دين الله رب العالمين التي تأخذ بأيدينا إلى النجاة ، وتحقق لنا سعادة الدنيا والآخرة ،من حيث ارتباط الغاية بمصالحنا وقصورنا[٣] لكان لنا شأن آخر ، وتحققت معنا المصالح العظيمة التي نسعى إليها ، ولو كنا نستخدم عقولنا بذات الأنوار التي خلقها الله فيها من إقبال على الطاعات، وانفصال عن المعاصي وسيطرة على الشهوات، ما بلغنا هذا الحال ، وما كنا في أصحاب السعير .

قال العلامة الرازي في معنى الآية الكريمة ، قالوا لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالباً للحق ، أو نعقله عقل من كان متأملاً متفكراً ، لما كنا من أصحاب السعير ، وجمع بين العقل والسمع ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل معاً [٤] ، ومادام العقل بهذه المثابة ، ويملك ذات القدرة ، فمن المؤكد أن له سلطة واسعة تمكنه من إصدار أحكام يكون قادراً على إنفاذها ، وأوامر يستطيع الإلزام بها ، وفوق ذلك فكثيراً ما رأينا العقل يأمر وينهي ، من حيث يوازن بين المعروضات ، ويرجع في الأحكام المتقابلات ، ويجعل المقام الأمثل لصحة التعليلات .

إن العقل نور من أنوار الله ونعمة من أنعمه ، قضاياه أساسية ، وأحكامه البرهانية تحمل اليقين المطلق[٥] بدليل أنه تتوقف عليه معرفة الله عز وجل ، وأحكامه المطلقة في

---

(١) هذا واضح من التسمية ذاتها ، لأن كلمة عقل معناها قيد وربط ،ومنع ، وأحكم ، وبالتالي فالعقل هو المقيد للمعرفة حتى لا تضيع ، والمانع للشهوات حتى تكون موظفة على القاعدة الصحيحة ، التي تحقق المصلحة العامة ، للفرد والمجتمع الإنساني كله وهي في ذات الوقت رابط للقدرات حتى لا تتصرف في غير وعي،ولا تعمل لغير هدف او مصلحة، وفوق ذلك فهو الذي يحكم الروابط، ويقوي العلاقات..

(٢) سورة الملك الآية ١٠ .

(٣) لأن الشريعة الإسلامية ما جاءت إلا لمصالح العباد ، لأن الله تعالي لا يستفيد بطاعات احد ، ولا يتضرر من معاصي الخلق أجمعين ، فهو القادر الحكيم وهو الغني الحميد .

(٤) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر الجزء الثلاثون ص ٦٢٢

(٥) هذا اليقين المطلق لا لكون الحكم صادرا عن العقل ، وإنما لأن العقل قد خلقه الله تعالى ليعرف خالقه ، ومادام العقل هو الأصل الذي به يتعرف المرء على وجود الله تعالي ووحدانيته ، فإن أحكامه الصحيحة بعد ذلك تكون مقبولة ، وبالغة حد اليقين

هذا الجانب قد استمدت منها أحكام أخرى تجئ على الجوانب التبعية ، تتعلق بالعديد من القضايا ذات الارتباط بالأفعال الإنسانية ، من حيث الحكم عليها بالحسن أو القبح ، والأخلاق البشرية من حيث الحكم عليها بالخير أو الشر .[١]

بل انتهى المتكلمون من أهل الإسلام إلى أن أحكام العقل صادقة الحكم على الفعل الإنساني ، بأنه صفة كمال أو نقص[٢] ، وأنه موافق للطبع أو مخالف[٣] ، وأنه مستحق للمدح أو الذم[٤] ، فالعلم يحكم العقل فيه أنه صفة كمال ، وفي ذات الوقت يحكم ذات العقل على الجهل بأنه صفة نقص ، وهو حكم عقلي صحيح غير مطعون فيه .

ويحكم على ما فيه المصلحة من الأفعال بأنه مستحق للمدح ، وما فيه المفسدة بأن مستحق للذم، وهذا مما لا مجال لإنكاره، بل العقل يصدقه ، والواقع يوافقه ، ولا توجد أدني مخالفة لما هو في العقل من أحكام صحيحة بهذا الشأن[٥]. ومن ثم فهو يستطيع إصدار أحكام الإلزام الخلقي . كذلك يحكم العقل بأن ما هو موافق للطبع يكون مقبولاً عند العقل ، وما لا يكون موافقاً للطبع فإنه تترتب عليه أحكام فاسدة، وما لا يكون مقبولاً عند العقل فإنه يكون مرفوضاً وبناء عليه فالعقل يستطيع أن يحسن ويقبح في الأفعال ، ويحكم عليها بالمدح أو القدح[٦] ، كما يحكم بالخير أو الشر على الأخلاق ، لما له خواص الإلزام الخلقي .

---

(١) هناك فرق بين العقل والخلق ، فالعقل حركة صادرة ظاهرة ، أو منحبسه باطنة ، اما الخلق فملكة داخلية والذي يظهر منها هو الناتج عنها ، ومن ثم فالفعل الإنساني غير الخلق الإنساني في التكييف القانوني والأخلاقي ، والأحكام الصادرة ايضا .

(٢) راجع للعلامة الأصفهاني : مطالع الأنظار على طوالع الأنوار ص ٤٠٣ ـ ٤٠٧ وبالهامش حاشية الجرجاني ، وللقاضي عبد الجبار شرح الأصول الخمسة ص٣٢٦ ـ ٣٢٨ تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان مكتبة وهبه .

(٣) راجع للسيد الشريف الجرجاني : شرح المواقف ج ٧ ص ١٥٧ ، وكتابنا : تاملات غزالية في القضايا الكلامية ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٤) راجع للقاضي عبد الجبار : المغني ـ المخلوق ص ٢١٣ وما بعدها ، وحاشية الجرجاني على شرح الدوافي ض ٣١٧ ، وكتابنا : تأملات غزالية في القضايا الكلامية ص ٢١١ / ٢٣٦ .

(٥) هذه القضية تم بحثها في الفكر الإسلامي ، وداخل المؤلفات الكلامية تحت عنوان الحسن والقبح وقد نالت عناية كبيرة من علماء الإسلام ، راجع ابكار الأفكار للآمدي ، والأربعين في اصول الدين للرازي ، والمغني للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، وشرح الأصول الخمسة ، ومتشابه القرآن له ايضا ، والاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ، لترى مدى العناية بالقضية في الفكر الإسلامي من الناحية الأخلاقية والعقدية أيضا .

(٦) كل من الجهتين منفكة على الأخرى ، فلا يقال ان جهة الحكم بالخير مثلا هي جهة التحسين ، ولا جهة الحكم بالشر هي التقبيح ، نظراً لاختلاف المفهوم والمترتب عليه .

وإذا سلمنا أن أساس التحسين والتقبيح في الأمور السالفة هو العقل ، لم يكن هناك سجال لإنكار دوره في إصدار أحكام أخلاقية، ذات طبيعة استقلالية وله في نفس الوقت القدرة على إصدار أحكام الإلزام الأخلاقي[١]ولذا فالأفعال الاختيارية والمنعكسة ، وشبه الاختيارية تدخل في نطاق الأحكام الأخلاقية ، ويكون مصدر الحكم عليها هو العقل .

أما ما لا يستطيع العقل إدراكه ، ولا تجري فيه إمكانياته،فإنها تكون خارجة عن طبيعة العقل ، ويرتد الحكم فيها إلى الفطرة إن كانت مما يدرك بها ، أما إذا كانت مما لا يدرك بها[٢]، فقد عاد الأمر إلى القاعدة الأساسية في جميع الأحكام، وهي النصوص الشرعية .

ربما يقال أن العقل ليس له صفة الإلزام ،لأنه عرض فكيف يصدر أحكاما على الأفعال الأخلاقية ، تكون من قبيل الإلزام ، ألا يعتبر ذلك مغالطة ظاهرة ؟ والجواب : ما ذكره الإمام الغزالي نفسه من أن العقل مشترك لفظي يطلق على معان مختلفة [٣] ، ثم قال : والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان: أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب ، والثاني أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حاله فيه ، والصفة غير الموصوف .

والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به الإدراك أعني المدرك .[٤] وبناء عليه فليس العقل مجرد عرض ، لا يملك صفة الإلزام الأخلاقي ، إلا إذا انحصر معنى العقل في مجرد الصفة ، لكنه لم ينحصر في معنى إلا وجاء الثاني ليفك العقل من قيد هذا الانحصار ، فتبين أن العقل يملك سلطة إصدار الإلزام الأخلاقي ، وبخاصة فيما له استقلال بإدراكه ، ولا مانع في ذلك لدى من خبر هذا الجانب من المعرفة الإنسانية ، من ثم أخلص إلى أن النقل المنزل ، والفطرة السليمة ، والعقل الصحيح ، هي مصادر الإلزام الأخلاقي في الدين الإسلامي .

---

(١) هذه القدرة على إصدار أحكام الإلزام الأخلاقي ، مستوحاة من طبيعة العقل باعتباره صفة مؤثرة تارة ، وباعتباره موقع الإدراك تارة أخرى ، وباعتباره المدرك ذاته من الناحية الثالثة .

(٢) والمعول عليه هنا هو الفطرة السليمة التي لم تلوث وليس مجرد الفطرة لأن الفطرة إذا وقع لها تلوث معرفي أو عقدي ، فقدت اعتبارها ، وكانت عبئا على صاحبها ، وسقطت أيضا جميع أحكامها

(٣) فكرة المشترك اللفظي واسعة ، وفيها تداخل ، ولذا يجب تحديد المفاهيم المراده ، والمصطلحات التي يتم التعامل بها ، طالما كانت المعاني داخل اللفظ الواحد متعددة .

(٤) الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٤ ، وقد افاض في الحديث عن العقل في صدر كتابه تحت باب العلم .

# الفهـــــرس